






الهيئة المصرية العامة للكتاب

ضياء الحاجرى

# إسرائيل من الداخل

# إسرائيل من الداخل

ضياء الحاجرى




# مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

## مكتبة الأسـرة

## برعاية السيدة سوزان مبارك

### سلسلة الأعمال الفكرية

**إسرائيل من الداخل**

**ضياء الحاجرى**

الغـلاف
والإشراف الفنى:

الفنـان : **محمود الهندى**

الفنـان : **صبرى عبدالواحد**

المشرف العام :

**د . سـمير سرحـان**

**الجهات المشاركة :**

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـبـاب

التنفيذ : هيئة الكتاب

**على سبيل التقديم :**

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيبا فى المكتبة العربية ، وأن تزيد رقعة القراءة والقراء ، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع ، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص . هاهى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالا جماهيريا رائعا على الموسوعات التى أصدرتها . وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكانا هذا العام فى **"مكتبة الأسرة"** .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة / **سوزان مبارك** ..

د. سمير سرحان

**طبعة خاصة**

**تصدرها مكتبة ابن سينا**

**ضمن مشروع مكتبة الأسرة**

٧٦ شارع محمد فريد - جامع الفتح - مصر الجديدة - القاهرة
تليفون : ٦٣٧٩٨٦٣ - ٦٣٨٩٣٧٢ فاكس : ٦٣٨٠٤٨٣
Web site : www.ibnsina-eg.com E-mail : info@ibnsina-eg.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# تقـــديم

طوال النصف الثانى من القرن العشرين ظلت إسرائيل - ولا تزال - هى الهم والتحدى الأكبر للدول العربية ، كانت سبباً مهماً فى استنزاف الطاقات والموارد العربية الهائلة ، وكان من الممكن لو تم استثمار هذه الطاقـــات والموارد فى ظل ظروف سياسية أفضل ، وبعيدًا عن الخلافات التي كـــانت القضية الفلسطينية من العوامل الرئيسية فى إثارتها ، لكان من الممكن أن تخطو المنطقة العربية على أعتاب القرن الحادى والعشرين وهـــى قـــوة ضخمة تستطيع أن تتعامل بندية مع الكيانات الكبرى التى من المعتقد أنـــها ستسود العالم خلال الفترة المقبلة : الولايات المتحدة - أوروبا الموحـــدة - اليابان - الصين .

وهناك وجهة نظر تقول : إنه لولا زرع دولة إسرائيل فى وسط العـــالم العربى لتشطره ، وتشتت اهتماماته بعيداً عن البناء الاقتصـــادى والتقـــدم التكنولوجى ، لكانت بعض الدول العربية قد قطعت شوطاً كبيرًا على طريق التقدم الصناعى . ووجهة النظر هذه تشير إلى أن أحد العوامـــل التـــى لا يمكن إغفالها والتى أسهمت فى التقدم الهائل الذى أحرزته اليابان يرجـــع إلى انصراف أنظار القوى العظمى حينذاك عنها كساحة للاستقطاب الدولى، وابتعادها عن التنافس عندما بدأت فى تطوير اقتصادياتها فى ظل نوع مـــن الانضمام إلى المعسكر الغربى رغم كونها تنتمى جغرافياً إلى الشرق، وهذا منحها قدرًا كبيرًا من الاستقرار السياسى الذى مكنها مـــن التطـــور فـــى هدوء، بعكس ما حدث مع عدد من الدول العربية التى عاشت منـــذ ١٩٤٨ فى حالة استنفار دائم وتأهب للمعركة ضد إسرائيل ، وفى نفـــس الوقـــت

خاضت معارك أخرى لمقاومة النفوذ الأجنبى ومحاولات السيطرة من الخارج .

ومع ذلك يمكن القول إنه رغم الخسائر الاقتصادية والسياسية والبشرية التى منيت بها المنطقة العربية بسبب زرع دولة غريبة عنها فى قلبها ، إلا أن هناك فائدة أخرى غير مباشرة وهى إيقاظ الوعى القومى وإدراك أن المعركة مع إسرائيل هى حضارية فى المقام الأول .

وعندما يغزو فيروس المرض الجسد البشرى يحفز الأجسام المضادة للعمل والمقاومة ، وفى ظل المواجهة مع إسرائيل تعرفنا على قوانا الكامنة ، وعلى قدرتنا على الصمود والاستمرار وسط المصاعب ، وعلى إرادتنا لتطوير أنفسنا والتمسك بأساليب العلم والتكنولوجيا .

ومع بداية القرن الحادى والعشرين استفحل التحدى الإسرائيلى، ويزداد هذا التحدى تعقيدا وغموضا وسط التغيرات المذهلة والمتسارعة حولنا والتى تمثلت فى تلاشى التنافس الأيديولوجى بين الولايات المتحدة وبين أقرانها ، وتحول دول أوروبا الشرقية من السياسات الاشتراكية إلى تبنى المفاهيم الليبرالية المقتبسة من الغرب ، وقد برز للعيان توحد القارة الأوروبية - إن لم يكن بالمعنى السياسى- فعلى الأقل بالمفهوم الاقتصادى، وبذلك تتحول هذه القارة العجوز إلى قوة عظمى لها تأثيرها العالمى .

وتعد إسرائيل نفسها لاقتطاف ثمار هذه التحولات ، ومن بين هذه الثمار كسب حصة فى أسواق القارة الأوروبية ، والحصول على مزيد من المهاجرين اليهود من دول أوروبا الشرقية بعد قيام النظم الجديدة فيها بفتح الأبواب أمام هجرة مواطنيها للخارج ، وإعادة العلاقات الدبلوماسية مع الجمهوريات الروسية المستقلة ودول أوروبا الشرقية والتى كانت قد

قطعت فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ ، ومنها أيضاً الحصول على تـأييد دول القارة الأوروبية لسياستها فى المنطقة .

والسلاح الذى تستخدمه إسرائيل فى ذلك إعلانها أنها تعد نفسها امتداداً للعالم الغربى وأنها ليست جزءاً من منطقة الشرق الأوسط ، وهى دائما ما تقول إنها تنتهج الأساليب الديمقراطية من الناحيـة السياسـية ومفـاهيم السوق الحرة من الناحية الاقتصادية ، وهى تحسب نفسها بذلك فى عـداد الدول الغربية التى تتبنى هذه الأساليب والمفاهيم .

ولكن ما وجه الحقيقة فى ذلك ؟ وهل ستستمر إسرائيل فى الحصـول على التأييد الغربى إلى الأبد ؟ وهل يكتشف الغرب ذات يوم زيف الصـورة الديمقراطية التى تحاول إسرائيل ترويجها فى الخارج بغرض الدعايـة ؟ أم أنها ستدرك ما ينخر فى عظام المجتمع الإسرائيلى من عوامـل التنـاحر والقسر والتطرف ؟

هذا الكتاب محاولة للعثور على إجابات لهذه الأسئلة ، ولإلقاء الضـوء على ملامح المجتمع الإسرائيلى من الداخل ، لا نريد التـهويل ولا نبغـى التهوين ، والهدف هو استكشاف التيارات والصراعات التى تعتمـل فـى أعماق المجتمع الإسرائيلى لعلها تساعدنا على فهم هذا المجتمع ومن ثـم زيادة قدرتنا على مواجهة التحدى الذى يمثله ، ومع تزايد هـذا الفـهم لا تصبح إسرائيل شيئا غامضاً مجهولاً .

ضياء الحاجرى



# الفصل الأول

# هل إسرائيل مجتمع غربى ؟

موسى هيسه ، ادموند روتشيلد ، موريس دى هيرشى ، مارتين بوبر ، تيودور هرتزل ، فلاديمير جابوتنسكى ، ناخوم جولدمان ، حاييم وايزمان .

هذه الأسماء كلها زعامات صهيونية بارزة ، وهذه الشخصيات ولدت وتلقت تعليمها وثقافاتها فى أوربا . والأفكار الصهيونية انبثقت وراجت على أراضى القارة الأوربية ثم تحولت إلى حركة ونالت بعد ذلك مباركة من الولايات المتحدة ، ووعد بلفور الذى استندت إليه إسرائيل فى قيامها على أرض فلسطين كان أوربيا .

ومعظم القيادات التى تولت الحكم فى إسرائيل بعد قيامها عام ١٩٤٨ جاءت من أوربا : جولدا مائير – دفيد بن جوريون– ليفى أشكول – حاييم بارليف – بنحاس لافون – مناحم بيجين – شيمون بيريز .

والنظام السياسى القائم فى إسرائيل توليفة من النظم السياسية الغربية ، التعددية الحزبية ، البرلمان (الكنيست) كسلطة تشريعية مكلفة بتشكيل الوزارة والإشراف على أعمالها ، نظام إعلامى مقتبس من أوربا .

وتعد إسرائيل جمهورية برلمانية تتوزع السلطة فيها بين رئيس الدولة والكنيست ورئيس الوزراء ثم السلطة القضائية ، ولكن منصب رئيس الدولة مجرد موقع شرفى بينما تتركز السلطة الحقيقية فى يد رئيس الوزراء .

ويتسم النظام السياسى فى إسرائيل بتعدد الأحزاب والقوائم السياسية بدرجة كبيرة لا تتلاءم مع معدل السكان الصغير ، ويؤدى هذا غالبا إلى تفتت أصوات الناخبين ، وعدم حصول أى حزب على الأغلبية المطلقة حيث أن الحد الأدنى للتمثيل فى البرلمان يبلغ واحدا فى المائة فقط ، كما يؤدى إلى قيام الائتلافات بين الأحزاب لتشكيل الحكومة على الرغم من عدم وجود اتساق بين برامج هذه الأحزاب ، ويحدث ذلك

عن طريق قيام أكبر حزب يحصل على أصوات بتجميع عدد آخر من الأحزاب فى ائتلاف يمكنه الحكم .

والأزمة الحقيقية التى تعيشها إسرائيل باستمرار هى عدم وجود حزب واحد بداخلها يستطيع أن يجمع حوله قيادة لها وجهة نظر موحدة ، ومع ذلك فهناك قوة مركزية داخل الائتلاف تحتفظ لنفسها بالقوة والسلطة .

وتعد إسرائيل بكاملها دائرة انتخابية واحدة ، وتجرى الانتخابات وفقًا لنظام التمثيل النسبى وعن طريق القوائم وليس عن طريق الأفراد وإن كان يُسمح للمستقلين أن يشكلوا قائمة بينهم .

وتقدم الأحزاب قوائم بمرشحيها ، على أن يختار الناخب – بغض النظر عن مكان إقامته – قائمة حزبية بكاملها وليس مرشحين بعينهم ، ثم يتم تمثيل كل حزب داخل الكنيست وفقًا للأصوات التى حصلت عليها قائمته ، ومع ذلك تلعب الشخصيات أدوارًا مساوية للبرامج الحزبية فى الانتخابات .

وهذا النظام يجعل الأحزاب الإسرائيلية فى حركة دائبة بين الانشقاق والتحالف ، كما لا تعمر الأحزاب كثيرًا ، فهى تتشكل وتزداد قوة وتشارك فى الحكم ثم لا تلبث أن يأفل نجمها وتظهر أحزاب جديدة تبتلعها وهكذا .

وهذه الظاهرة ليست شائعة فى أوربا – باستثناء إيطاليا – حيث استقرت مجموعة من الأحزاب التقليدية التى تتبادل الحكم ، ومن ناحية أخرى نجد أن إسرائيل لازالت تفتقر إلى وجود دستور مدون ، مما يسبب مشكلات سياسية حيث يصبح من المتعذر أحيانًا الحكم على دستورية القوانين والتشريعات ، كما أن البرلمان الإسرائيلى ليس فعالاً مثلما هو الحال فى أوربا على الرغم من أنه يتمتع بالقوة شكليًا، ولكن الممارسة الفعلية تثبت ضعف دور الكنيست فى الحياة السياسية وأن الحكومة هى التى تقوده وليس العكس ، وربما كان ذلك راجعًا إلى الظروف الأمنية التى تمر بها إسرائيل والتى أدت إلى تركيز النفوذ فى يد السلطة التنفيذية لمواجهة الأزمات المتلاحقة التى تواجهها.

هناك أيضًا ظاهرة العنف السياسى فى الشارع الإسرائيلى وإن كانت الأضواء لم تسلط عليه بشكل كافٍ ، فرغم رفع لافتات الديمقراطية فى كل مكان إلا أن هناك

مظاهر للعنف والسخط تحت السطح بشكل لم تشهده أى من المجتمعات الأوربية فى عصرها الحديث ، وقد بدأ هذا الاتجاه واضحًا فى انتخابات عام ١٩٨١ [ الكنيست العاشر ] .

شهدت هذه الانتخابات أعنف الحملات الانتخابية فى تاريخ إسرائيل القصير ، حيث سادها مشاعر المرارة والكراهية والبغضاء ، وأثبتت أن المجتمع الإسرائيلى منقسم على نفسه بشكل لم يسبق له مثيل ، وأنه ليس مجتمعًا على النمط الغربى كما تزعم إسرائيل دائمًا ، وإنما هو أشبه بالمجتمع القبلى البدائى الذى تحركه دوافع التناحر والشحناء والتنافر .

والانتخابات السياسية فى أى مجتمع تحدد تقسيم القوى السياسية والاجتماعية والاقتصادية وبالتالى فهى تخضع لعدة عوامل تابعة لهذه القوى ، بعضها موضوعى والآخر ذاتى ، وإذا طبقنا هذا المفهوم على هذه الانتخابات لوجدنا أن أكثر السمات اللافتة للنظر فى هذه الانتخابات هى تغلغل عملية الاستقطاب فى إسرائيل استنادًا إلى اعتبارات عرقية وسياسية واجتماعية ، وهذه الملامح كانت ظاهرة للعيان فى الماضى ، إلا أنها زادت كثافة وقوة وتشابكًا منذ عام ١٩٨١، فلم يحدث أن انقسمت إسرائيل إلى قسمين متساويين وبدرجة كبيرة عن طريق الحزبين الكبيرين فيها وهما الليكود والتجمع العمالى ، فلقد حصل الأول على ٤٨ مقعدًا والثانى على ٤٧ مقعدًا ، أى أن الفارق بينهما مقعد واحد .

ومن المعروف أن الحزب الرئيسى للحركة العمالية سواء كان حزب "احدوت هعفودا" فى بداية نشأة إسرائيل أو "المباى" بعد ذلك أو "العمل" أخيرًا كان مسيطرًا على الحياة السياسية فى إسرائيل خلال السنوات التسع والعشرين الأولى منذ إقامة الدولة الإسرائيلية ، كما كان مسيطرًا على الحركة الصهيونية قرابة ٢٠ عامًا قبل إعلان قيام الدولة ، إلا أن هذا النموذج للسيطرة تحطم عام ١٩٧٧ عندما فاز الليكود لأول مرة بأكبر عدد من مقاعد الكنيست ، ثم أكد فوزه مرة أخرى عام ١٩٨١ ، وأثبت قوته فى الانتخابات التى جرت بعد ذلك ، مما يثبت أن عصر سيطرة حزب العمل لم يتوار مؤقتًا كما اعتقد البعض ، بل إلى فترة طويلة مقبلة، فقد أصبح النظام

السياسى يتسم بالتنافس وليس بالسيطرة ، ولم يعد حزب العمل الذى كان مسيطرًا فيما مضى قادرًا على الاعتماد على التأييد المتنوع الذى كان يحصل عليه من معظم المجموعات الاجتماعية التى تشكل جمهور الناخبين .

وقد أظهرت نتائج الانتخابات السابقة أن حزب الليكود ينمو بثبات ، ولعل أحد التفسيرات لهذا النمو والتصاعد هو أن المجتمع الإسرائيلى شهد خلال السنوات الماضية تحولاً تدريجيًا من اليسار الممثل فى التجمع العمالى إلى اليمين الممثل فى الليكود ، ويلاحظ أيضًا أن أحزاب الوسط واليمين الصغرى نمت وزادت قوتها بينما تقلصت أحزاب يسار الوسط ، ومن الأسباب الرئيسية لذلك طبيعة هيكل الاقتصاد الإسرائيلى والدور الهام الذى يلعبه القطاع الخاص وقوى السوق فى الاقتصاد، إلى جانب حاجة إسرائيل المستمرة إلى المعونات والسلاح والتكنولوجيا من الغرب، إلى جانب تقلص التأييد السوفيتى لإسرائيل خاصة بعد حرب ١٩٦٧ التى أدت إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين أوربا الشرقية وإسرائيل ، والموقف الذى كان يتخذه الاتحاد السوفيتى من تحديد هجرة اليهود إلى الخارج ، وقد أدى ذلك إلى أن أحزاب اليسار الإسرائيلية لم تجد التأييد التقليدى من موسكو بينما كانت أحزاب اليمين تلقى كل التأييد من الغرب .



الكبيوتزات العنصرية

معسكرات لاستقبال حشود اليهود السوفييت والفلاشا المستوردين لطرد الفلسطينيين من منازلهم

وساعد الليكود فى صعوده الإحساس بالتعاطف معه والذى استطاع تكوينه فى نفوس قطاعات كبيرة من الإسرائيليين باعتباره الحزب المعارض للمؤسسة الحاكمة ، الذى يمثل المظلومين والمضطهدين من أفراد المجتمع ، وهذا يقودنا إلى الدخول إلى صراع الخفى والعلنى بين اليهود الاشكناز والسفارديم والذى يثير كثيرًا من تساؤلات حول "ديمقراطية" إسرائيل .

فقد شهدت السنوات الماضية لعبة "**شد الحبل**" عنيفة بين الاشكناز "وهم اليهود الذين جاءوا من أوربا" وبين السفارديم "اليهود الذين جاءوا من الشرق والدول العربية والعالم الثالث عمومًا" ، كان يهود أوربا هم الذين أخذوا على عاتقهم إقامة الحركة الصهيونية فى بداياتها الأولى وتحملوا القسم الأعظم من إقامة الدولة الإسرائيلية على أرض فلسطين بعد ذلك ، ولعبت أموالهم وتبرعاتهم واتصالاتهم السياسية ومراكز القوى التى احتلوها فى الدول التى كانوا يقيمون فيها بالخارج دوراً بالغ الأثر فى نمو الحركة الصهيونية وتشجيع المهاجرين وإقامة إسرائيل فى النهاية .

وكان اليهود الغربيون – من الناحية التاريخية – أول من وصل إلى فلسطين لإقامة الكيبوتزات التى كانت نواة لمستوطنات أوسع تقام بعد ذلك ، وكان ارتباط هؤلاء الاشكناز بحزب العمل ، الذى كان يحمل شعار الاشتراكية والتقدمية مما أكسبه تعاطف الرأى العام الأوربى وقتذاك .

ومن الطبيعى أن يبنى هؤلاء اليهود الغربيون قواعد المجتمع الإسرائيلى الجديد على غرار المجتمعات الأوربية التى كانوا يعيشون فيها ، فالمدارس تدرس فيها الآداب الغربية، والنظام السياسى يقوم على التعدد الحزبى ، وتم فصل الدين عن الدولة وتبنى النظام العلمانى كأوربا ، ثم أخذ المجتمع الإسرائيلى ينقل من الحضارة الأوربية أشكالها المتعددة .

وبالتالى تميز الاشكناز بمستوى ثقافى واقتصادى وحضارى عالٍ ، وانطلقوا يشغلون القيادات والمناصب العليا فى الجيش والسياسة والصناعة والمجالس المحلية بل الحكومة ذاتها ، ولكن حدث تحول جديد فقد زادت هجرات اليهود السفارديم الذين جاءوا من

عدة دول عربية وعلى رأسها المغرب والعراق واليمن ومصر ، ومن عدة دول أسيوية كالهند ، وأفريقيا مثل جنوب أفريقيا وأثيوبيا بعد ذلك ، وتكثفت هذه الهجرات منذ الخمسينيات وخاصة يهود العالمين الإسلامى والعربى الذين تركوا بلادهم طمعًا فى مزيد من الغنائم من الدولة اليهودية ، واعتقادًا منهم أنه ستكون لهم السيادة فى هذه الدولة الجديدة ، وقد تكشف بعد ذلك أن إسرائيل نفسها أسهمت فى الضغط على هؤلاء اليهود للهجرة إليها بأساليب سرية مثل الانفجارات التى وقعت بالعراق داخل مجموعة من المعابد اليهودية والتى أثارت مشاعر الخوف وسط يهود العراق ودفعتهم إلى الهجرة إلى إسرائيل طلبًا للأمان ، وتبين فيما بعد أن المخابرات الإسرائيلية هى التى دبرت هذه الانفجارات .

وقد أدت هذه الهجرات بالإضافة إلى تزايد معدلات المواليد بين اليهود الشرقيين إلى ترجيح كفتهم العددية على اليهود الغربيين ، ولكن هذه الزيادة فى التعداد لم تنعكس على تحسين أوضاعهم المتدنية فى المجتمع أو زيادة تمثيلهم السياسى ، ويلاحظ أن اليهود الشرقيين كانوا دائمًا فى قاع المجتمع ، يعيشون فى الأحياء الفقيرة أو المدن البعيدة ، أو المنازل الآيلة للسقوط ، كما أن ٩٥% من المسجونين من اليهود الشرقيين مما يعنى تفشى الجريمة فى أوساطهم بسبب تردى أوضاعهم الاقتصادية والشعور بالظلم الاجتماعى ، ويلاحظ أيضًا ضآلة عدد الطلبة السفارديم الذين يصلون إلى الجامعات بسبب ارتفاع مصاريف التعليم .

ومن الطبيعى أن تنعكس الحالة الاجتماعية والاقتصادية لليهود الشرقيين على أوضاعهم السياسية ، وذلك بسبب انخفاض مستواهم الثقافى وتدنى أوضاعهم الاجتماعية حيث كانوا يعملون أساسًا عند قدومهم إلى إسرائيل فى الأعمال اليدوية البسيطة التى لا يقبل عليها الاشكناز ، وبسبب فقرهم الشديد لم يسهموا بدور هام فى الحياة السياسية ، ومع ذلك استطاع عدد منهم تولى بعض المناصب البارزة فى الدولة .

وبدأت فى الآونة الأخيرة صراعات مستترة سرعان ما تحولت إلى مطالب سافرة من جانب اليهود الشرقيين بتحسين أوضاعهم وتقلدهم مناصب الدولة العليا والقيادات فى

الجيش ، خاصة وقد تزايدت قوتهم الانتخابية باضطراد ، وقد اتخذت هذه المطـــالب أشكالاً عنيفة فى بعض الأحيان ، كما رأينا حركات تتشكل للدفاع عـــن مطـالب السفارديم مثل "**الفهود السود**" .

وحيث أن حزب العمل كان منبثقًا ومعبرًا عن اليهود الغربيين الذين سيطروا علــى "**كعكة**" الدولة الإسرائيلية، وحيث أن زعماء الحزب مثل بن جوريون وجولدا مائــير كانوا ينظرون إلى اليهود الشرقيين دائمًا بازدراء باعتبارهم من الرعاع الذين لا ينبغــى أن يشاركوا فى الحكم ، فلم يكن هناك مفر أمام السفارديم سوى البحث عن حــزب منافس للاحتماء فى ظله وليحقق لهم مطالبهم وينصفهم من الظلم والاضطـــهاد ، و لم يكن هناك فى الساحة حزب أفضل من الليكود .

وقد لعبت الصراعات العرقية بين السفارديم والاشكناز دوراً حاسمًا فى فوز الليكـــود فى انتخابات الكنيست العاشر ، وعلى الرغم من أن زعيم الحزب وقتـــذاك منـاحم بيجين كان من الاشكناز إلى أن توجه الحزب بأكمله كان صوب السفارديم ، وقـــد اتسمت هذه الصراعات بكثير من أعمال العنف دفعت اليهود الشرقيين إلى الوقـــوف بقوة وراء الليكود ، ودفعت اليهود الغربيين إلى مساندة حزب العمـــل دفاعًـــا عـــن مصالحهم القديمة ومناصبهم التى تقلدوها .

وأدت مشاعر الغضب هذه إلى اعتداء اليهود الشرقيين على شيمون بيريز زعيـــم حزب العمل أثناء الحملات الانتخابية عدة مرات عن طريق إلقاء الطماطم عليه ومنعه


شيمون بيريز

**ويعود الفضل فى تنظيم هذه الاتصالات إلى فيليب دورسون، أحد مسؤولى حزب "الجبهة الوطنية" ، على أثر اجتماعاتـــه فى باريس مع عوفاديا سوفر . وتفيد صحيفة "معاريف" الإســرائيلية بأن دورسون كان قد أعرب خلال أحد اجتماعاته الأولى الـــتى تمت قبل عامين ، عن رغبة لوبين الجامحة فى زيارة إسرائيل .**

من التحدث ، وتنظيم المظاهرات المعادية له ، وقد رد اليهود الغربيون بسلسلة من الشتائم والمعارك الكلامية تناثرت طوال الحملة الانتخابية .

وإذا كان الاشكناز هو الوجه الأوربي لإسرائيل الذى ساد طوال السنوات الماضية فإن التوقعات تشير إلى أن الشيخوخة فى طريقها لأن تدب فى هذا الوجه وتغير معالمه، مفسحة الطريق أمام ظهور وجه جديد غالبيته مكون من اليهود الشرقيين وجيل الصابرا الجديد الذى ولد على أرض فلسطين إلى جانب السكان العرب الذين يتزايد عددهم باضطراد أى أن الاتجاه الشرقى وليس الغربى هو الذى سيكون غالبًا فى إسرائيل – فى أغلب الظن – خلال الفترة المقبلة من تاريخ هذه الدولة ، برغم المحاولات المضنية التى تقوم بها الحكومة الإسرائيلية لاستجلاب مزيد من المهاجرين من أوربا .

ولكى تصبح الصورة واضحة ننظر إلى هذه العناصر التى تكون الصورة :

– يشكل اليهود نسبة ٨٤ فى المائة من سكان إسرائيل ، بينما يمثل العرب والدروز الذين يعيشون داخل حدود إسرائيل ما قبل ١٩٦٧ وفى القدس نسبة ١٦ فى المائة .

– يبلغ تعداد اليهود فى العالم كله ١٤,٥ مليون يهودى يعيش ٢٢ فى المائة منهم داخل إسرائيل .

– يمثل اليهود الغربيون ٨٥ فى المائة من يهود العالم ، والشرقيون ١٥ فى المائة .

– يعيش فى إسرائيل عشرة فى المائة فقط من يهود العالم الغربيين ، بينما ترتفع هذه النسبة إلى ٦٦ فى المائة بالنسبة ليهود العالم الشرقيين .

– يمثل اليهود الشرقيون ٥٥ فى المائة من تعداد اليهود داخل إسرائيل ، واليهود الغربيون ٤٥ فى المائة .

– معدل المواليد لدى اليهود الشرقيين ١,٤٨ فى المائة ولدى الاشكناز ١,٣٠ فى المائة .

– سيزداد اليهود الشرقيون قوة عندما يصل أطفالهم إلى سن الانتخاب ، حيث يمثل أطفالهم ٥٣,٧ فى المائة من القوة الانتخابية القادمة مقابل ٣٥,٨ فى المائة لأطفال اليهود الغربيين ، ويلاحظ هنا أن الاشكناز الذين وصلوا إلى إسرائيل فى مراحل مبكرة منذ إنشائها قد طعنوا فى السن مما يقلل من فرص اشتراكهم فى الانتخابات ، كما أن أولادهم أقل عدداً من السفارديم ، بالإضافة إلى أن إغراءات الهجرة إلى الخارج بالنسبة لهم تفوق بواعثها ما لدى اليهود الشرقيين الذين لن يجدوا نفس الفرص لو فكروا فى الهجرة إلى الغرب .

وهناك مسألة هامة فيما يتعلق بالتعدد الحزبى فى إسرائيل ، فالأحزاب الصهيونية السياسية فيها ليست أحزابًا بالمعنى المتعارف عليه فى أوربا الغربية ، إنما هى تنظيمات سياسية من نوع خاص ، تطورت عن الفرق والعصابات المسلحة التى كانت تدافع عن المستعمرات التى أنشأها الصهاينة على الأراضى العربية فى أوائل القرن العشرين ، فنجد أن حزب "الماباى" العمالى الذى كان يرأسه بن جوريون كان فى الأصل عصابة **"الهاجاناه"** ذات الطابع العسكرى التى شنت هجمات إرهابية ضد السكان العرب على أرض فلسطين ، أما حزب "المابام" العمالى فقد انبثق من عصابة **"البالماخ"** شبه العسكرية ، وفى معسكر الأحزاب اليمينية تجد أن حزب "حيروت" الذى يعد نواة تكتل الليكود قد خرج من معطف منظمة "الأرجون" الإرهابية الشهيرة التى أشرف الزعيم الصهيونى "فلاديمير جابوتنسكى" على نشاطها والتى قادها من بعده مناحم بيجين، وقد شنت هذه المنظمة هجمات دموية ضد العرب .

الذين ولدوا على أرض فلسطين أو جيل "الصابرا" يلقون مزيدًا من الشكوك حول صورة إسرائيل الديمقراطية كما يضعون علامات استفهام على وجه إسرائيل الغربى ، وأغلب جيل الصابرا فى مقتبل العمر ، ولذا فهناك تناقضات بين هذا الجيل وبين جيل الرواد الذين أسسوا الدولة الإسرائيلية والذين كان كل هدفهم فى الحياة يتمثل فى إقامة الدولة ، أما الجيل الجديد فإنه ينظر الآن إلى هذه المسألة كحقيقة مسلم بها ، وأصبح لا يفهم كلمات التضحية والمثابرة وبذل العرق ، ولذلك يتهمون الجيل الجديد فى

إسرائيل بأنه استسلم للانحلال وأصبح لا يؤمن بالجدية والعمل الـــدؤوب ، ولكـــن الأمـــر ببساطة يكمن في الخلاف في وجهات النظر بين الجيلين ، الأول الـــذى بـــنى والثاني الذى يريد جنى الثمار .

وكلمة "الصابرا " تعنى بالعبرية نبات الصبار، ويقصدون بهذه التسمية أن من ولـــد على أرض إسرائيل هو جاف من الخارج كنبات الصبار ولكـــن ملـــىء بـــالرحيق الداخلى، ولكن هذا الجيل لم يتعرض لمعاناة الشتات ، والاضطهاد فى القارة الأوربية، و لم يذق عذابات الجيتو ومذابح النازية ، ولا يعرف من معاداة الســامية إلا اسمـــها ، ذلك لأنه ولد أساسًا داخل مجتمع أغلبيته من اليهود ، والتناقض هنـــا يكمـــن فى أن الحكومة الإسرائيلية تريد أن يستمر هذا الجيل متمسكًا بالصهيونية ومرتبطًا باليــــهود المهاجرين فى الشتات ، ولكن هذا الجيل لا يهمه يهود الشتات كثيرًا لأنه ارتبط بأرض معينة ولد عليها و لم يعرف غيرها .

وبزيادة عدد الأجيال الجديدة من الصابرا ، سينشأ مجتمع جديد ولـــد غالبيتـــه فى منطقة الشرق الأوسط ، بخلاف المهاجرين الذين جاءوا من أوربا وشــــكلوا غالبيـــة المهاجرين إلى إسرائيل فى مراحلها الأولى ، فكيف سيكون وجه إسرائيل وقتذاك ؟

هناك تغيرات اجتماعية تطرأ على الأجيال الجديدة الشابة التى لا تفتأ تبحث عـــن هوية محددة لها مستقلة عن اليهودية العالمية ،ومستقبل آخر غـــير مرتبـــط بالحركـــة الصهيونية التى سيطرت على قطاع كبير من يهود العالم ردحًا من الزمـــن ، وهنـــاك جماعات من المثقفين فى إسرائيل رأت أن هويتها تكمـــن فى الانتســـاب إلى القبـــائل الكنعانية الموغلة فى القدم والتى سبقت اليهود إلى الإقامة فى فلسطين ، وهذه الجماعات تتخذ موقف الرفض من الثقافة اليهودية التقليدية التى نمت وتطورت خـــلال قـــرون الشتات ، كما تنادى بقطع الاتصالات مع يهود الخارج وعدم الاعتماد على المعونات التى يقدمونها لإسرائيل ، والجديد أنهم أعلنوا موقفا استقلاليا عن الحركة الصهيونيـــة فيما يتعلق بالصراع العربى الإسرائيلى ، إذ أعلنوا استعدادهم بقبول فكـــرة انضمـــام إسرائيل إلى اتحاد فيدرالى يشمل دول الشرق الأوسط .

ولكن مثل هذه الأفكار غير مسموح بها داخل "الديمقراطية" الإسرائيلية ، ولذلك لا نجد لها أى تأثير على الإطلاق على مسار العملية السياسية ، بالضبط مثل حركة "السلام الآن" التى شاعت وسط المثقفين والكتاب والصحفيين، والتى تطالب بالحوار مع العرب لمحاولة إيجاد حل سلمى للقضية الفلسطينية ، فعلى الرغم من نشاط هذه الحركة والمظاهرات التى قامت بها ، والمقالات والخطب والكتب التى دونت وقيلت ، إلا أنها لم يكن لها أى تأثير يذكر على عملية اتخاذ القرار السياسى .

يقول عالم النفس الإسرائيلى جورج تامارين : "إن الصراع داخل المجتمع الإسرائيلى يكشف عن نفسه فى التناقض الجذرى بين دعاة تحويل إسرائيل إلى "جيتو" كبير وبين هؤلاء الذين يسعون لإقامة مجتمع حر مفتوح .. هذا التعارض الأساسى ، إلى جانب الخلاف بين دعاة التكامل مع الحضارة الإنسانية المعاصرة وبين أنصار الانعزال والبعد عنها ، قد أدى إلى عزل إسرائيل حضاريًا ، وإن جعلها قلعة عسكرية بالنسبة لجيرانها العرب ، وكانت النتيجة قطع الروابط بين الشباب الإسرائيلى والعالم ، وساعد ذلك على ظهور مشاعر مرضية لدى الإسرائيليين إزاء الانتقادات التى توجه إلى الممارسات السياسية والاجتماعية " .

العرب الذين يعيشون داخل إسرائيل مشكلة تؤرق مضاجع الحكومة الإسرائيلية ، فتزايد معدلات النمو السكانى العربى بدرجة تفوق معدلات التكاثر اليهودية يلقى



شكوكًا حول خريطة الأغلبية اليهودية فى إسرائيل وحول انتمائها الذى تعلنه دائمًا إلى العالم الغربى ، وفى نفس الوقت تثير تساؤلات عديدة حول الممارسة الديمقراطية الإسرائيلية التى لم تسمح لهذا العدد المتزايد من العرب بأن ينال حقوقه السياسية والمدنية .

فبعد قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ ، تبقى ضمن حدودها أقلية عربية يبلغ عددها حوالى ١٧٠ ألف فلسطينى، وكان نصيب الغالبية العظمى من السكان العرب الإبعاد والطرد إلى الخارج حيث نزحوا إلى عديد من الدول العربية المجاورة أو إلى أوربا والأمريكتين ، أما من بقى تحت الاحتلال الإسرائيلى فقد كان ينتمى إلى شرائح الفلاحين التقليديين الذين لم يجدوا فرصة للهجرة والعمل بالخارج ، وبالتالى فقد فقدت هذه الشرائح قياداتها المدنية والمؤسسات السياسية التى كانت مرتبطة بها على أرض فلسطين .

و لم ينجح العرب الذين ظلوا يعيشون داخل حدود الدولة الإسرائيلية فى تشكيل تنظيمات أو حركات سياسية خاصة بهم بسبب عدم وجود كوادر سياسية فعالة بعد هجرة القيادات القديمة إلى الخارج تحت ضغوط السلطات الإسرائيلية ، وبسبب الرقابة الشديدة التى فرضتها هذه السلطات على العناصر الجديدة المؤهلة لتلعب دورًا سياسيًا على مسرح الحياة الفلسطينية .

وتمثلت سياسة إسرائيل الرسمية ضد العرب فى مصادرة أملاكهم ومحاولة القضاء على هويتهم ، فقد أسست الحكومة الإسرائيلية عقب إعلان الدولة إدارة خاصة أسمتها إدارة الأملاك العربية ، وتم وضع مساحات كبيرة من الملكيات تحت تصرف حارس يخضع لوزارة المالية ، وكان له حق التصرف فى "أملاك الغائبين" وهم الفلسطينيون الذين أبعدوا عن أراضيهم إلى الخارج .

هذا على الرغم من أن المادة ٤٩ من اتفاقية جنيف الرابعة والمتعلقة بمعاملة المدنيين فى الأراضى المحتلة نصت على أنه لا يجوز نقل أو إبعاد الأشخاص من الأراضى المحتلة إلى أى منطقة أخرى لأى سبب كان ، كما لا يجوز لسلطات الاحتلال أن تنقل أى

قسم من سكانها إلى الأراضى المحتلة ، ونصت المادة ٥٣ من ذات الاتفاقية على حظر قيام سلطات الاحتلال بتدمير الممتلكات فى الأراضى المحتلة بأى شكل من الأشكال .

ولكن إسرائيل عمدت بمختلف الوسائل إلى القضاء على الهوية العربية وإذابة العرب فى الكيان الإسرائيلى أو إبعادهم عن طريق التهجير ، والاستيلاء على الأماكن المقدسة فى القدس والخليل وبيت لحم ، وبلغت هذه الوسائل حد حرق الأماكن المقدسة ، ثم قامت إسرائيل بسن مجموعة من القوانين التى تضيق الخناق على الأقلية العربية صاحبة الأرض أساسًا بهدف إجبارها على الهجرة .

ثم فرضت القيود على حرية تنقل الفلسطينيين داخل البلاد ، بل داخل المنطقة الواحدة ، ويحق لوزير الدفاع تعيين حكام عسكريين فى المناطق التى يرى أنها تتطلب ذلك ، ولهؤلاء الحكام صلاحية كاملة فى فرض القيود التى يروها مناسبة مثل وضع أى فرد تحت مراقبة الشرطة أو اعتقاله دون إبداء الأسباب ولأى فترة يشاءون كما لهم صلاحية إبعاد العرب الذين لهم أنشطة معارضة أو مصادرة ممتلكاتهم بل ونسف منازلهم عند الضرورة .

ويعد قانون الجنسية الذى أصدرته الحكومة الإسرائيلية بتاريخ ١٤ يوليو ١٩٥٢ من القيود التى ليس لها مثيل فى أى مكان فى العالم والموجهة ضد العرب الذين يعيشون حاليًا داخل إسرائيل ، فهذا القانون يمنح الجنسية الإسرائيلية بشكل تلقائى لجميع اليهود المقيمين فى إسرائيل يوم صدوره ، وجميع اليهود الذين وفدوا إلى إسرائيل أو ولدوا فيها قبل إعلان الدولة ، أما اليهود الذين يصلون إلى إسرائيل بعد تأسيسها فيعتبرون مواطنين منذ وصولهم إلى البلاد ، وكذلك اليهود الذين ولدوا فى إسرائيل بعد تأسيسها يصبحون مواطنين منذ ولادتهم ، ولكن هذا القانون لا ينطبق على غير اليهود خاصة العرب ، وترفض وزارة الداخلية الإسرائيلية نشر الإحصائية الرسمية حول عدد العرب الذين لا جنسية لهم ومع ذلك يعيشون فى ظل القانون الإسرائيلى ، وهذا يثير الشكوك فى ديمقراطية إسرائيل ، خاصة وقد جاء فى وثيقة الاستقلال التى أعلنتها إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ **"إن دولة إسرائيل ستشجع تقدم الدولة ورقيها بما فيه**

**صالح كل السكان ، وسيكون أساسها الحرية والعدالة والسلام، وستدعم القطاع الاجتماعى والسياسى بالمساواة التامة بين كل المواطنين، بدون تفرقة بسبب الدين أو العنصر أو الجنس" .**

وقد عدل قانون الجنسية عام ١٩٦٨ ، ليسمح لكل شخص ولد بعد تأسيس الدولة فى موقع ضمن الأراضى الإسرائيلية و لم يكن يتمتع بأية جنسية أن يكتسب الجنسية الإسرائيلية إذا تقدم لطلبها خلال مهلة تتراوح بين بلوغه ١٨ – ٢١ عاما على أن يكون قد أقام فى إسرائيل لخمس سنوات متتالية تسبق مباشرة اليوم الذى قدم فيه الطلب .

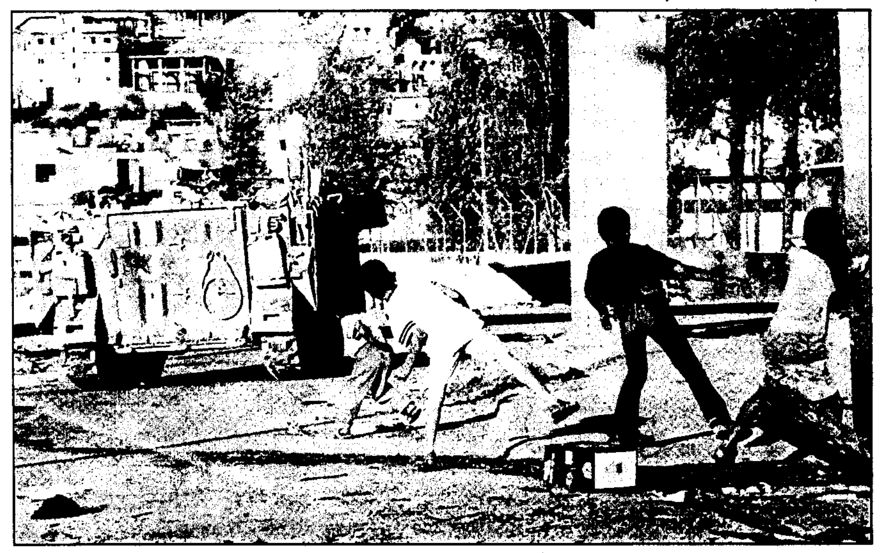
وهذا التعديل أيضا فيه غبن كبير للفلسطينيين ، فالمولود الفلسطينى يظل بدون جنسية حتى يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، وهناك أيضا احتمال لأن يرفض طلبه فيقضى عمره بالكامل دون جنسية ، وقد تحدث ظروف تعوقه عن تقديم الطلب خلال المهلة المسموح بها ، أو قد لا يستطيع إثبات أنه أقام خمس سنوات متتالية داخل إسرائيل ، كما أن هذا القانون يضع العقبات أمام منح الجنسية للفلسطينيين الذين يعيشون فى الخارج ويرغبون فى العودة .

ثم جاءت سياسة التوسع فى بناء المستوطنات فى الأراضى العربية المحتلة التى ضمتها إسرائيل بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، كان يراعى فى البداية أن تكون هذه المستوطنات بعيدة عن القرى والتجمعات العربية ثم أخذت تتسع وتنمو حتى أصبحت تفصل بينها، وكأن الإسرائيليين يريدون أن يبنوا جدرانا من هذه المستوطنات بين التجمعات العربية لعزلها والأخطر من ذلك لإضفاء الصبغة اليهودية على الأماكن وإزالة الهوية العربية ، وذلك تنفيذا لسياسة الأمر الواقع التدريجية التى تهدف إلى تحويل المناطق العربية ، إلى مواقع يهودية بمرور الزمن ، ومن بين الخطوات التى اتخذت لتحقيق هذا الهدف إطلاق الأسماء العبرية على كثير من القرى والمناطق العربية .

كانت رغبة إسرائيل واضحة فى إحداث انفصام فى الهوية العربية ، وأن تعرض التقاليد العربية المتماسكة فى القرى لهزة نتيجة لاحتكاك الشباب العربى بأساليب الحياة

اليهودية ذات الطابع الأوربى ، مع العمل على تشجيع الفلاحين الفلسطينيين على التحول إلى عمال والاندماج فى الآلة الاجتماعية الإسرائيلية ، إلى جانب فرض رقابة على الكتب ووسائل الثقافة التى تصل إلى أيدى الفلسطينيين بهدف التحكم فى نوعية الثقافة والمعرفة التى يتلقونها ، ويلاحظ أيضًا عدم تشجيع السلطات اليهودية للتعليم العربى ، فنجد أن المدارس العربية تعانى من القصور وعدم توفر الإمكانات كما تتعرض كثيرًا للإغلاق حيث تتهم السلطات الإسرائيلية التلاميذ بالاشتراك فى أعمال معارضة للدولة ، وحتى مناهج التعليم العربية تخضع لرقابة إسرائيلية شديدة حتى لا توقظ فى التلاميذ الفلسطينية الوعى القومى أو تحفزهم على التمسك بتراثهم .

غير أن هذه الأساليب الإسرائيلية لم تنجح فى فصل الفلسطينيين عن أصلهم العربى، بدليل أعمال المقاومة الفلسطينية المستمرة وآخرها الانتفاضة الحادثة فى قطاع غزة والضفة الغربية والتى يمكن أن تمتد بشكل عميق إلى عرب إسرائيل ، وذلك ما تخشاه إسرائيل دائمًا ، فهناك تقارير تشير إلى أن العرب داخل إسرائيل قنبلة موقوتة يمكن أن ينتزع فتيلها فى أى وقت ،كما أن أعدادهم تتزايد بشكل مضطرد ، وأن الزمن لصالحهم لأن تكاثرهم السكانى سيفوق على المدى البعيد مثيله اليهودى .



الانتفاضة الفلسطينية دعوة استغاثة لدحر المشاريع القطرية وإعلان "الجهاد" القومى

في سنوات الخمسينيات والستينيات حققت زيادة السكان العرب فى إسرائيل وزنًا نسبيًا مستقرًا فى المجموع العام لسكان الدولة بلغت نسبته ١١,٣ فى المائة ، وفى السبعينيات زاد عدد السكان العرب بشكل يلفت الأنظار حيث بلغ عام ١٩٧٤ نصف مليون نسمة يشكلون ١٥,٢ فى المائة من سكان إسرائيل فى حدودها قبل ١٩٦٧ ، وقد أظهرت الدراسات الإسرائيلية أن الهجرة اليهودية العالمية إلى إسرائيل ستستقر عند رقم ٢٥ ألف مهاجر سنويًا ، وأن عرب إسرائيل شكلوا ١٨% فى المائة من عدد السكان فى أواسط الثمانينيات وسترتفع هذه النسبة إلى ١٩ فى المائة فى التسعينيات .

وتشكل مسألة ضم الضفة الغربية وقطاع غزة قضية تثير قدرًا كبيرًا من الخلاف فى إسرائيل ، لأن هذا الضم يحمل فى طياته إضافة تعداد سكان الضفة والقطاع من العرب إلى مجمل السكان العرب داخل إسرائيل بحيث يمكن أن تؤثر فى المستقبل على الأغلبية اليهودية الموجودة ، وفى عام ١٩٦٧ سئل موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى وقتذاك عن مقدرة إسرائيل على استيعاب السكان العرب فى حالة ضم الأراضى المحتلة ، فرد قائلا : "**إننا قادرون على ذلك من الناحية الاقتصادية ، ولكنى أعتقد أن هذا لا يتمشى مع خططنا المقبلة ، ذلك يؤدى إلى وجود دولة يهودية مزدوجة القومية ، دولة عربية يهودية ، ونحن نسعى إلى دولة يهودية فحسب**" .

الرد الإسرائيلى على معدلات التزايد السكانى العربى يتمثل فى تشجيع هجرة اليهود إلى إسرائيل .

فى محاضرة شهيرة لبن جوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل يقول : "**إن ما يربط بين يهود العالم ليس اللغة أو الدين ولا العنصر وإنما هى رؤيا العودة إلى جبل صهيون حيث أقام داود معبده الأول .. أى إلى أرض إسرائيل**" ..

وجولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل – التى كان يقال عنها أنها الرجل الوحيد فى الحكومة الإسرائيلية – تقول أيضًا : "**بعد قيام دولة صهيون .. لا يمكن أن يكون صهيونيًا إلا ذلك الذى يحمل حقائبه ويأتى على الفور**" .

الرغبة فى استجلاب مزيد من يهود الشتات إلى داخل إسرائيل قديمة ومبكرة ، وتمارس الحكومة الإسرائيلية ضغوطا دولية متعددة لتحقيق هذا الهدف ، مثل استخدام سلاح حقوق الإنسان للضغط على الحكومة السوفيتية للسماح لليهود بالهجرة إلى الخارج، واستخدام سلاح الدعاية لاجتذاب يهود الغرب مثل القول بأن إسرائيل هى امتداد للعالم الغربى وأنها واحة الديمقراطية بالمنطقة وأنها قلعة صناعية عسكرية ، واستخدام المعونات الاقتصادية للسماح ليهود الفلاشا بأثيوبيا للهجرة إلى إسرائيل .



**مهاجرون سوفييت إلى إسرائيل**

ويبقى عنصران هامان يثيران التساؤل عند الحديث عن وجه إسرائيل الغربى **الأول:** **نمو** الحركات الدينية اليهودية المتشددة فى إسرائيل بشكل لا يتوافق مع العلمانية **الأوربية** ، **والثانى** طغيان دور المؤسسة العسكرية على الحكم وسيطرتها على باقى مؤسسات الدولة .

فقد شهد المجتمع الإسرائيلى خلال فترة الثمانينيات انبعاث الحركات الدينية التلمودية واليهودية الأرثوذكسية (الأصلية) التى لا ترى أى فكر فى العالم سوى ما هو مدون فى صفحات التوراة ، ويبدو هذا التغيير مواكبا لتراجع الحركة العمالية الصهيونية التى أسهمت فى إقامة الدولة العبرية بما تحمله من رموز العلمانية والديمقراطية على النمط الأوربى .

وهذه الاتجاهات الدينية لعبت دوراً متعاظمًا على المسرح السياسى فى الآونة الأخيرة سواء عن طريق تأييدها لتكتل الليكود أو تشكيل أحزاب دينية خاصة بها ، أو عن طريق العمل السرى خارج إطار البرلمان ، ومن أبرز التنظيمات الدينية ذات الاتجاهات الإرهابية التى ظهرت مؤخرًا حركة **"جوش امونيم"** أى **"كتلة الإيمان"** بزعامة الحاخام يهودا كوك ، وحركة **"كاخ"** بزعامة الحاخام مائير كهانا ، والأولى تدعو للاستيطان فى الأراضى العربية بالقوة ، والثانية تمارس الأعمال الإرهابية ضد العرب .



**المدارس التلمودية .. لا ترى فكرًا غير فكر التوراة ..**

ويرى الاتجاه الدينى أن الأراضى العربية التى احتلتها إسرائيل هى هبة من عند الله لا ينبغى التفريط فيها لأنها تمت بمشيئته ، وهذا يتوافق تمامًا مع المفهوم السياسى لتكتل الليكود تجاه الأراضى العربية المحتلة ، وإن كان يختلف بدرجة طفيفة مع مفهوم التجمع العمالى الذى يرى أنه يمكن تقديم بعض التنازلات فى الأراضى المحتلة وتقديم نوع من الحكم الذاتى للفلسطينيين فيها ،ومن هنا يكون تأييد التيار الدينى لليكود أوضح وأقوى.

ويلاحظ أن المؤسسة الدينية ترى أن الدين اليهودى هو العامل الوحيد المضمون والواضح الذى يمكن الاعتماد عليه فى الترويج للدعاوى المطالبة بضم الأراضى ، ومن

أهم أسباب **هذا التشدد** الحرص على استمرار معدلات هجرة اليهود الشتات إلى إسرائيل ، وترى هذه المؤسسة أن أى تساهل فى القيود الدينية الصارمة يمكن أن يؤدى إلى انتشار الحياة العلمانية فى إسرائيل وانعكاس ذلك بالتالى على يهود الشتات ، مما يجعلهم يتهاونون فى التعليمات الحاخامية المتشددة التى ترفض الزواج المختلط ، وهذا الزواج يكون أخطر ما يكون لأنه يساعد اليهود على الذوبان تدريجيا فى المجتمعات الخارجية مما يؤدى إلى الاستقرار هناك وعدم التفكير فى الهجرة إلى **"أرض الميعاد"** .

ومن المشكلات المثارة فى إسرائيل حاليا عطلة يوم السبت المقدسة ، حيث يطالب المتدينون بوقف جميع أشكال النشاط فى إسرائيل تنفيذا لتعليمات دينهم ، ولكن هذه العطلة الإجبارية تسبب مشكلات عديدة بسبب توقف وسائل الحياة اليومية ، وإغلاق المتاجر تماما ، وتوقف جميع أنواع المواصلات حتى السيارات الخاصة ، وغيرها من مرافق الحياة ، بل بلغ الحال ببعض المتشددين قذف السيارات الخاصة التى تسير فى هذا اليوم بالحجارة لإجبارها على التوقف ، ولا ندرى كيف يجد الغرب فى مثل هذا المجتمع امتدادا لمفاهيمه فى الليبرالية والتسامح .

**والعنصر الثانى** هو هيمنة المؤسسة العسكرية على الحياة السياسية فى إسرائيل ، يقول الكاتب السياسى الفرنسى برنارد فرنييه: **"إذا كان من الممكن وصف دولة ما بأنها مجتمع يحكمه العسكريون ، فإن المجتمع الإسرائيلى برمته هو ثكنة مسلحة"**، وهذه العبارة تلخص أهمية الجيش فى المجتمع الإسرائيلى، فالجيش لا يقتصر دوره على مهمته التقليدية فى القتال ولكن له وظائف أخرى متعددة ، وكل شىء فى أجهزة الدولة الإسرائيلية واقتصادها موجه لخدمة الحرب ، والإسرائيليون كلهم تقريبا مدربين على حمل السلاح حتى النساء منهم .

والجيش الإسرائيلى يعد أداة لبناء الدولة اليهودية إلى جانب تحقيق الأمن ، ومن هنا تجىء العلاقة العضوية بين العمل العسكرى والعمل السياسى ، وهذا يفسر كيف أن معظم السياسيين الإسرائيليين كانوا فى وقت من الأوقات من قادة القوات المسلحة .

وكان بن جوريون هو الذى وقف وراء إنشاء الجيش الإسرائيلى فى صورته الحالية، حيث بدأ فى أكتوبر ١٩٤٧ – أى قبل قرار التقسيم بشهر – فى تكوين وتنظيم جيش مسلح قوى عن طريق دمج المنظمات والعصابات العسكرية التى كانت تعمل على أرض فلسطين قبل إعلان قيام الدولة العبرية ، وتخضع قوات الجيش البرية والبحرية والجوية لقيادة عامة واحدة ، ومن المعروف أنه محظور على العرب الانضمام إلى صفوف الجيش حتى لو طلبوا ذلك .

ونتيجة للمواجهات العربية الإسرائيلية المستمرة برز دور الجيش فى تحقيق الأمن لإسرائيل ، وقد عملت الحكومات الإسرائيلية جاهدة على تطوير قواتها المسلحة وتزويدها بأحدث الأسلحة وطرق التدريب ، ووضع نظام صارم للاحتياطى بسبب الافتقار إلى القوة البشرية الكافية لتكوين جيش نظامى دائم ، وأدى ذلك إلى تزايد نفوذ الجيش فى مجالى الدفاع والسياسة الخارجية بل امتد إلى أمور داخلية أخرى مثل مناهج التعليم وزراعة واستيطان المناطق المجاورة للحدود ، والتدريب المهنى للشباب بغرض تخريج فئة مدربة فنيًا للإسهام فى عملية التصنيع ، وقد رأينا أن أريل شارون أحد أبرز القادة العسكريين فى إسرائيل ورئيس الوزراء الحالى (والذى قام بعملية الثغرة أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣) يتولى فى وقت من الأوقات منصب وزير الزراعة لما لهذه الوزارة من علاقة باستصلاح الأراضى الصحراوية والإشراف على المستوطنات .

ويستقطع الجيش الإسرائيلى قرابة ربع إجمالى الموازنة العامة للدولة ، وهذا يبين إلى أى حد يحتل القطاع العسكرى أهمية قصوى فوق جميع القطاعات الأخرى ، ورغم هذا المعدل الضخم المعلن للإنفاق العسكرى فإن هناك بنودًا أخرى غير مباشرة تصب فى المجهود الحربى مثل مشروعات شق الطرق وغيرها من المشروعات المدنية التى تخدم القطاع العسكرى ، بالإضافة إلى المخصصات السرية الأخرى التى تحصل عليها مؤسسات الأمن مثل الجيش والشرطة ، ويرجع السبب الأساسى فى ارتفاع الإنفاق العسكرى فى إسرائيل إلى متطلبات المواجهات العسكرية وسباق التسلح مع الدول العربية ومتطلبات الأمن الداخلى بسبب نشاط المقاومة الفلسطينية .



الدوريات العسكرية " الإسرائيلية " مهمات رصد دائمة

للأوضاع السياسية فى الوطن العربى

ومن هنا يمكن القول أن المؤسسة العسكرية فى إسرائيل تمثل قوة ضغط تؤثر على أسلوب صناعة القرار السياسى ، خاصة وأن الأحزاب السياسية الموجودة فى إسرائيل هى نتاج لتنظيمات شبه عسكرية كانت تمارس عمليات إرهابية على أرض فلسطين قبل إعلان الدولة ، ولننظر إلى أسماء هؤلاء الجنرالات الذين لعبوا دورًا هامًا فى قيادة الجيش الإسرائيلى : موشى ديان – إسحق رابين – عيزرا وايزمان – حاييم بارليف – أريل شارون – ديفيد اليعازر – شيمون بيريز ، كل هؤلاء انتقلوا من صفوف القيادة العسكرية إلى صفوف القيادة السياسية ، وتولوا مناصب وزارية أو عليا فى الدولة ، وكثيرون غيرهم من الجنرالات انضموا إلى الأحزاب لينخرطوا فى ممارسة السياسة ، وكثيرًا ما كان يطلب منهم التخلى عن دورهم السياسى والعودة إلى الجيش لممارسة دور عسكرى ما .

وهناك مسألة هامة أخرى هى أن أفراد الجيش تحسب أصواتهم فى الانتخابات السياسية فى البلاد ، وهذا يوضح أن الجيش ليس بعيدًا عن السياسة بأى حال .

والتساؤل الذى يبقى هنا هل تتخلى إسرائيل عن هذا الطابع العسكرى لمجتمعها حتى تتواءم مع قيم الغرب التى تعتنق مبدأ دولة المؤسسات حيث لا تطغى مؤسسة على أخرى ، ويكاد دور الجيش فيها ينحصر فى دوره فى حماية الدولة من العدوان الخارجى؟





# الفصل الثانى

## أسطورة اسمها : اليهود

لا يمكن فصل المستقبل عن الحاضر .

والحاضر يولد من رحم الماضى .

وإذا أردنا أن نرسم صورة لمستقبل إسرائيل فيتحتم علينا أن نلقى نظرة على الماضى اليهودى ، وأن نغوص ولو قليلاً بين دفاتره لنتبين ملامح هؤلاء القوم الذين جاسوا مشردين فى العديد من دول العالم منذ القدم ، والذين اختاروا أن يشردوا شعبًا من وطنه ليكون لهم وطن فى النهاية .

والكتب والمراجع التى تدرس تاريخ اليهود كثيرة ومتنوعة ومتشعبة ، ولكن بين يدنا الآن كتاب هام وشامل يقع فى حوالى ستمائة صفحة من القطع الكبير ، يلقى أضواء عديدة على اليهود منذ الأزمنة الموغلة فى القدم ، ويحكى كيف خرجوا إلى الشتات وتجولوا فى ربوع أوربا حيث عانوا من شتى صنوف الاضطهاد إلى أن رحلوا إلى العالم الجديد فى ذلك الوقت وهو الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث تفتحت أمامهم فرص العمل والثراء والارتقاء فى المناصب ، ويروى الكتاب كيف تحولت إسرائيل من **"أرض الميعاد"** كما كان اليهود يطلقون عليها إلى دولة عدوانية تشن الحروب وتمارس الإرهاب ضد العرب ، إنها قصة طويلة ومثيرة ولكن فصولها الدامية لم تنته بعد .

أهمية هذا الكتاب أن مؤلفته روبرتا شتراوس باحثة يهودية أمريكية من أصل سوفيتى ، ولذلك يستبعد أن توصف بأنها من المعادين للسامية أو بأنها متحيزة للعرب ضد إسرائيل ، وهذا الكتاب يكشف الفرقة والتشتت والبغضاء بين فرق اليهود منذ القدم وكيف أن الكوارث التى أحدقت بهم كانت من صنعهم هم أكثر مما كانت من

صنع الآخرين ، وفى النهاية لا تصبح إسرائيل تلك القوة الأسطورية الخرافية التى صنعتها أجهزة دعايتها والتى تردد دائما بأنها لا تقهر ، كما يتضح أن اليهود قوم عاديون مثلهم فى ذلك مثل الشعوب الأخرى ، وأنه إذا ظهر من بين أفرادهم عباقرة أو علماء جهابذة فلأنهم كانوا يشعرون بالعزلة والضعف أمام الشعوب التى عاشوا بينهم، وبالتالى كان التفوق هو سلاحهم الوحيد للبقاء على قيد الحياة ، ولم يكن السبب فى ذلك أنهم يحتكرون الذكاء أو أنهم سلالة تعلو بقية الشعوب .

**يطرح الكتاب تساؤلات عديدة** : ما هى اليهودية؟ أهى ديانة أم قومية أم حضارة أم دولة؟ ومن هم اليهود؟ هل هم جنس أم شعب أم سلالة عرقية؟ من أين جاءوا؟ وكيف انتشروا فى جميع أنحاء العالم؟ كيف أصبحوا ملوكًا فى الغرب الرأسمالى وفى نفس الوقت أصحاب نفوذ فى المجتمع السوفيتى الشيوعى؟ لقد كون اليهود ثروات هائلة عبر التاريخ من الربا وتجارة الرقيق ، وفى نفس الوقت ينادون بالقيم والأخلاق الرفيعة ، بينما صاروا فى وقت لاحق زعماء الحركات العمالية وقادة الاشتراكية ورواد الشيوعية ، بل إن فيلسوف اليسار كارل ماركس خرج من بين صفوفهم ، فكيف تستقيم كل هذه المتناقضات وتنضوى فى إطار واحد .

تشير الدراسات إلى أن اليهود كانوا يجدون فرصتهم فى تكوين الثروات وبناء قوة اقتصادية خاصة بهم فى المجتمعات الرأسمالية ، وهذا ينفى ما كانت تروجه إسرائيل فى بداياتها الأولى من ارتباطها باليسار ، وكانت الأحزاب الإسرائيلية الكبيرة (المابای – المابام – أحدوث هاعفودا) تدعى كلها أنها أحزاب عمالية وتطلق على نفسها وصف الاشتراكية ، الأمر الذى أعطى إسرائيل فى الخمسينيات فرصة لكى تصف نفسها بالدولة الاشتراكية ، وكان ذلك مقبولاً وقتذاك من بعض عناصر اليسار الدولى وبالذات الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية .

وباستثمار ذلك استطاعت إسرائيل إقامة علاقات وثيقة مع حزب العمال البريطانى والحزب الاشتراكى الفرنسى ، ونجحت الصهيونية العالمية فى أن تخترع صيغة توفيقية للجمع بين الصهيونية والاشتراكية ، وإقناع قطاعات واسعة من مثقفى الغرب بهذه

الصيغة ، كما نجحت إسرائيل فى الانضمام إلى رابطة الدولية الاشتراكية وبذلك أصبح لها صوت هام فى المحافل الدولية .

وكان بن جوريون وأشكول ولافون من أوائل "الاشتراكيين الصهيونيين" ، الذين قدموا إلى أرض فلسطين ، وتشكلت خلال هذه الفترة عدة أحزاب "اشتراكية صهيونية" ، ولكن هذه الأحزاب كانت صهيونية فى المقام الأول ، ووصفت الاشتراكية كشعارات لها ، ونجد أن حزب "المابام" الذى تكون عام ١٩٤٨، والذى يعد من الناحية التاريخية أكثر الأحزاب الصهيونية يسارية يضع شعاراً يقول : "إلى الصهيونية والاشتراكية والصداقة بين الأمم" ، ومن ترتيب هذا الشعار نرى أن الصهيونية تأتى أولاً .

وهناك من رجال السياسة من الاشتراكيين اليهود كالمستشار النمساوى السابق برونو كرايسكى من يعتقد أن الصهيونية والاشتراكية ضدان لا يلتقيان ، وهو يقول فى هذا المقام : " الصهيونية تمثل عنصرية ونوعًا من التصوف الأنثربولوجى لست مستعدًا لقبولها" .

وقد ثبت هذا الرأى ، فاليهود الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة طرحوا شعارات الاشتراكية جانبًا وتبنوا المبادئ اليمينية السائدة فى المجتمع الأمريكى ، كما تشير الدراسات إلى أن تيار اليمين يشتد باضطراد داخل المجتمع الإسرائيلى ، وذلك فى توافق مع قوة هذا التيار فى العديد من الدول الأوربية المؤثرة ، إلى جانب تراجع الشيوعية فى دول أوربا الشرقية ، مما يعنى أن إسرائيل تستطيع استثمار المتغيرات السياسية الدولية لصالحها .

وتكشف الكاتبة روبرتا شتراوس فى كتابها الذى أطلقت عليه اسم **"مصير اليهود"** هذه الأسطورة التى حيرت الكثيرين منذ قرون حتى عصرنا الحالى ، وهى تكشف المتناقضات الكامنة والخرافات التى طمست طويلاً وجه الحقيقة ، وتميط اللثام عن ضروب العذاب الذى تعرض له اليهود فى أوربا ، والاحتكار والهوان الذى لاقوه فى

العالم بعد أن خرجوا إلى الشتات هربًا من حروب دامية وطاحنة ، وكراهية مريرة وقعت بين اليهود .. واليهود أيضًا بعد خروجهم من مصر .

وقد وصل اليهود بعد ذلك إلى سواحل الولايات المتحدة جوعى ومفلسين ، معظمهم اقترض ثمن تذكرة الباخرة (عشرة دولارات وقتذاك) ، وبعضهم قضى عليه المرض أثناء السفر ، وكلهم فروا من البطش والاضطهاد فى روسيا القيصرية أو من معاداة السامية فى أوربا الغربية ، منهم من ترك الولد والصحاب ومنهم من غادر الديار وذكريات الطفولة والصبا ، ومنهم من هاجر وهو فى سن الشيخوخة يريد أن يتنفس الهواء الجديد ما تبقى له من العمر ، ولكن كان يجمعهم شيء واحد هو التجمع والتكتل لمواجهة العالم الجديد ، ثم تكوين الثروات وتسلق المناصب لتكون لهم السيطرة على المجتمع البكر المفتوح بلا قيود أو أبواب .

ولا يمكن أن يحدث هذا إلا فى أمريكا فقط .

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية وانتصار الحلفاء ، خرجت الولايات المتحدة منها كقوة عظمى ترث القوى الكبرى فى أوربا التى لعبت أدوارًا أساسية وهامة فى تاريخ العالم ، وفى ذلك الوقت توطدت أقدام اليهود فى الولايات المتحدة ورسخت ، وتغيرت أحوالهم ، فالأغنياء تضخمت ثرواتهم ، والفقراء عرفوا الطريق إلى البنوك ، وانتقل ساكنو الأكواخ والعشش إلى منازل نظيفة ، وتحول سكان البرارى إلى سكنى المدن والحضر وركبوا السيارات ودخل أبناؤهم الجامعات ، وتقلدوا المناصب ، ثم تعلموا اللعبة السياسية وانخرطوا فيها ، وصل عدد لا بأس به منهم إلى الكونجرس ، ولكن الأخطر من ذلك أنهم أدركوا تأثير أصواتهم على انتخاب الرجل الذى سيدخل البيت الأبيض .

ولكن لا يعنى ذلك أن الكاتبة متعاطفة مع القضية العربية، ولكن هذا الكتاب هو نوع من انتقاد الذات ، فهى لا تقف مع العرب ضد إسرائيل ، وإنما هو نتاج مشاعر الأسى التى شعرت بها لما أصبح اليهود الآن فى إسرائيل من شراسة وعدوانية، ولذلك

نجدها تتساءل : ماذا حدث لليهود .. وماذا سيحدث؟ أين ذهبت الوصايا العشر .. والتوراة.. والتلمود.. والأسفار.. وتعاليم العهد القديم ؟

هل ما يحدث فى إسرائيل الآن هو الذى أوصى به النبى موسى حين أمر أتباعه بعبادة الله وبنشر الحق والعدل والخير ؟ وهل علاقة إسرائيل بيهود العالم وأمريكا تستند إلى تعاليم الدين أم إلى المصالح الدنيوية الزائلة .

وما تمارسه إسرائيل من سياسات إزاء العرب الذين آثروا البقاء داخلها أو إزاء عرب الضفة الغربية ، هل يتفق مع المعايير الأخلاقية التى ينادى بها حاخامات اليهود وأحبارهم؟!!

أخطر ما تقوله الكاتبة أن فلسطين ليست "أرض الميعاد" بالنسبة لليهود ، ذلك لأن المملكة اليهودية القديمة التى أقيمت هناك لم تستمر كدولة موحدة سوى ثلاثة وسبعين عامًا فقط ، وأن أورشليم ( القدس حاليًا) لم تكن مدينة يهودية فى الأصل .

**فلنلق نظرة على هذا الكتاب ..**

اليهودية معطف متعدد الألوان ، ثناياه غامضة ، وحواشيه غير واضحة المعالم ، وهى كديانة قد انفصمت عراها إلى أجزاء متعددة بشكل بات معه الالتحام متعذرًا، وحتى مشاهير اليهود كان بعضهم علمانيًا مثل فرويد وإينشتاين ،وبعضهم تحول إلى المسيحية مثل ماركس ودزرائيلى ، مما يعنى أن اليهود يفتقرون إلى التماسك والالتفاف حول اليهودية باعتبارها ديانة عرقية ، فاليهود السفارديم فى أسبانيا كانوا يتحدثون العبرية ثم اتخذوا "اللادينو" لغة لهم ، وهم يختلفون بشدة فى اللغة والعادات والأصل والثقافة عن اليهود الاشكناز فى أوربا الشرقية الذين يتحدثون باللغة "اليديشية" .

ويقودنا هذا إلى السؤال **"من هو اليهودى؟"** ومن الإجابات الطريفة قول الفيلسوف الفرنسى الشهير جان بول سارتر : "إن كلمة يهودى من اختراع المعادين للسامية ، وهو لو لم يكن موجودًا لاخترعوه" ، ويقصد سارتر بذلك إنكار الهوية اليهودية المستقلة ، وهناك تعريف آخر يقول أن اليهودى هو الشخص الذى لا يأكل

لحم الختزير ، مما يعني أنه الشخص الذى يلتزم بأحكام الدين مع مراعاة المعايير الأخلاقية ، بل أن العديد من الحاخامات يرون أن الجانب الأخلاقى هو لب الديانة اليهودية ، ولعل سبب غضبة دول العالم على إسرائيل لغزوها لبنان فى صيف ١٩٨٢ يرجع إلى أن هذه الدول قد صدمت فى الأخلاق اليهودية التى تنادى بفعل كل ما هو حق وصواب ، ولكن مما يثير العجب أن الكثير من الإسرائيليين قد دافعوا عن هذه الحرب، وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك إذ قالوا أنها "من تدبير الله" .

**ولكن هؤلاء الذين يدينون إسرائيل لغزوها لبنان يتناسون ماضيها القريب فلماذا لا يذكرون استيلائها على الضفة الغربية ، وإقامتها المستوطنات على الأراضى العربية، وانتهاجها سياسة معادية للعرب، وقبل ذلك ارتكاب المذابح ضد النساء والأطفال العرب ، أن حقيقة التاريخ اليهودى قد شوهتها الأساطير والخرافات ، وقد التزم حاخامات وزعماء اليهود الصمت فى مواجهة الشر ، وبالتالى يكون من الضرورى تقديم استعراض جديد تاريخى وسياسى وأخلاقى أيضا للشعب اليهودى حتى يدركوا أنهم لا يعبدون الإله الحقيقى .**

فتراث اليهودية ليس القوة والسلطة وإنما المعايير الأخلاقية .

## الرباط الأخلاقى

كان اليهود القدامى يعبدون إلها واحدا ، وذلك بعكس الديانات القديمة التى كانت تتعبد إلى عدة آلهة فى وقت واحد ، ولكن ليس ذلك ما كان يدعوهم إلى الترفع عن الديانات الأخرى وإنما شعورهم بأنهم شعب الله المختار ، وهذه المقولة لا تخلو من تناقض ، فإذا كان هناك رب واحد ، فهناك بالضرورة دين واحد عالمى وشامل لجميع الشعوب ، ويبدو أن فكرة شعب الله المختار استخدمها اليهود – على حد قول عالم الاجتماع البرت ميمى – لتبرير غزوهم وإخضاعهم للشعوب الأخرى، التى تصبح – كما يقولون – بعيدة عن اختيار الله، وبما أن الله قد خلق الناس كلهم من أب واحد وأم واحدة فليس هناك معنى لتفضيل جنس على آخر .

وإذا كانت قصة البشرية قد بدأت فى جنة عدن بآدم وحواء ، فإن قصة اليهودية تبدأ بالشتات فتاريخ اليهود الفعلى يبدأ بخروجهم من مصر بقيادة النبى موسى ، وفى الشهر الثالث من رحلتهم عسكر اليهود بالقرب من جبل سيناء حيث تلقى موسى الوصايا العشر ، ويلاحظ أنها موجهة إلى جميع شرائح المجتمع لا يستثنى منها غنى أو عظيم أو حاكم ، وهذا هو المعيار الأخلاقى الذى يساوى بين البشر أمام الله .

## تقول الوصايا العشر

"إن الرب إلهك ولن يكون لك إله سواى ولن تعبدنى عبثًا .

احتفظ بيوم السبت مقدسًا .

أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض .

لا تقتل .

ولا تزن .

ولا تسرق .

ولا تشهد زورًا ضد جيرانك .

ولا يملأ الحسد قلبك .

لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما عنده .

اصنع إحسانًا إلى ألوف من محبى وحافظى وصاياى" .

وبهذه الوصايا العشر ولد الضمير ، وصارت بعد ذلك مقدمة لمجموعة واسعة من الشرائع فى التوراة ، وفى مرحلة لاحقة أضيفت مجموعة من القوانين التى تتعامل مع الجرائم والأوضاع المدنية .

ولكى نفهم ما يحدث فى إسرائيل الآن، ينبغى أن نفرق بين الشرائع والناس الذين فشلوا فى فهم تأثير الديانة اليهودية ، كان هناك دائمًا نوعان من اليهودية : المثالية

والواقعية ، وقد انتهى الأمر بأن كل اتجاه للوصول إلى اليهودية المثالية يكـــون مآلــه التحطم على صخور الرغبة فى القوة والسلطة بدلاً من تفضيل الضمير .

وبالتالى فإن حملة الوصايا العشر سرعان ما شنوا حملة وحشـــية ودمويـــة لغـــزو الكنعانيين ، وبعد ذلك عاشوا فى فوضى دينية وروحية واجتماعية ليس كشعب واحد وإنما كمجموعة من القبائل المنفصلة والمتحاربة .

ولكن ظهر عامل جديد دفعهم إلى التوحد المؤقت ، وهـــو ظـــهور "الفلســـتيين" القدماء كقوة بارزة ، وأدرك اليهود أنهم لا يستطيعون البقاء كقبائل متناحرة ، وتوجه شيوخ القبائل إلى النبى صمويل مطالبين إياه أن يختار لهم ملكًا ، وهنا يظهر الصـــراع القديم بين الزعامة الروحية والدنيوية ، فاليهود يريدون تحويل النبى إلى ملك، والرغبـــة فى القوة كامنة فى النفوس ، وتشير التوراة إلى أن الله حذر اليهود من تنصيب ملـــك عليهم قائلاً لهم أن مثل هذا الملك سيستعبدهم وأولادهم ، ولكن اليهود صموا آذانهـــم فقد كانوا يريدون دولة كالشعوب الأخرى ، وكان أن وقع اختيار النبى صمويل على شاءول ليكون أول ملك علمانى لليهود .

وكانت النتيجة مرعبة ، فقد شعر داود زوج ابنة شاءول بظمأ لا يقاوم للســـلطة ، ورأى أنه لو انضم برجاله إلى الفلستيين للعمل كمرتزقة فى الحرب الوشيكة بينهم وبين اليهود فربما وصل إلى العرش كمكافأة له على جهوده، ولكن الفلستيين تشـــككوا فى نواياه وأعادوه مرة أخرى إلى بلده ، بعد ذلك انتصر الفلستيون فى الحـــرب ، وقتـــل شاءول وأصبح داود ملكًا على مملكة يهودا ، بينما أصبح ابن شاءول ملكًا على مملكة يسرائيل وهى مجموعة من القبائل الشمالية ، وبالتالى بات اليهود ممزقين فى مملكتـــين دارت بينهما رحى حروب لا تنتهى .

وعندما قتل ابن شاءول أصبح داود ملكًا على يهود يسرائيل ، ولكى لا يغضـــب أيهما رأى أن تكون أورشليم عاصمة للمملكتين حيث تقع فى منتصف المسافة بينهما، ولم تكن أورشليم مدينة يهودية فى الأصل ولكن داود استولى عليها من اليبوسيين وهم أحد الشعوب الكنعانية .

وبعد وفاة الملك داود لم يستطع أبناؤه المحافظة على قوة المملكة اليهودية ولذا انقسمت على نفسها عام ٩٢٠ قبل الميلاد بعد أن استمرت موحدة ثلاثة وسبعين عامًا فقط ، ومن هنا يمكن القول أن انهيار الأمة اليهودية بدأه اليهود أنفسهم .

وخلال المائتى عام التالية شهد اليهود فترات من الاضمحلال والضعف والفوضى والصراع لدرجة أن أحد الملوك لم يستمر حكمه سوى بضعة أيام فقط ، ولم يستطع أى حاكم أن يكفل استمرار الملك لذريته ، وكان الوصول للحكم يتم عن طريق الاغتيال وليس عن طريق ولاية العهد .

ونتيجة لضعف اليهود بدأ الأشوريون فى التوسع ، وفى عام ٨٤١ قبل الميلاد هاجموا شمالى مملكة يسرائيل ، ونهبوا المدن وأشاعوا الرعب ، ثم انسحبوا تاركين اليهود يستأنفون حروبهم الداخلية ، وعاودوا الهجوم مرة أخرى بعد ذلك بقرن ، وفى ذلك الوقت لم يتحد اليهود فى مواجهة العدو الخارجى ، بل أقدم أهاز ملك يهودا على نهب المعبد من كنوزه وأرسلها إلى الملك الأشورى مع رسالة يقول فيها ، "إننى خادمك وابنك .. هيا أنقذنى من أيدى ملك يسرائيل" .

وقد هاجم الأشوريون مملكة يسرائيل وأزالوها من الوجود ، وقتلوا آلاف اليهود وهرب آلاف آخرون إلى دول مجاورة ، ولم يبق سوى الفلاحين الفقراء الذين استمروا فى زراعة الأرض .

وفى عام ٥٩٨ قبل الميلاد ظهرت قوة جديدة ، البابليون ، وقد هاجموا مملكة يهودا، ونهبوا المعبد ، ونفوا الملك وأسرته مع العديد من اليهود ، وبلغ عدد الأسرى الذين أبعدهم قرابة عشرة آلاف ، كما أخذوا معهم الحرفيين والأيدى العاملة الماهرة ، ولم يبق إلا الفقراء ، وعندما تمرد هؤلاء بعد عام عاود البابليون الهجوم وحاصروهم لمدة ثمانية عشر شهرًا ، مما أدى إلى موت المئات جوعًا دون أن يجدوا من يواريهم التراب، وانتشرت الأوبئة ، عندئذ اقتحم البابليون المدينة وأحرقوا كل ما يصادفهم ، وسقطت يهودا عام ٥٨٦ قبل الميلاد ولم يعد لليهود أية مملكة .

وحتى هاتين المملكتين لم يكن لهما شأن يذكر فى النواحى الحضارية ، وكان زعماؤها همجًا أفظاظًا، كما أنهما كانتا تلتقطان أنفاسهما فقط عندما تضعف القوى المجاورة ، ولم تكن هناك أية قوة يمكن أن تحفظ لليهودية استمرارها سوى الالتزام بالمعايير الأخلاقية وهى مسألة لم يلتزم بها اليهود دائمًا .

وعندما انتقل الأسرى اليهود إلى بابل ، اندمج بعضهم فى الحضارة الجديدة التى استقبلتهم ، واتخذ آخرون الأسماء البابلية ، وتحدث البعض بالأرامية ومع ذلك ظلوا جميعًا يهودًا ، فقد كانت الهوية اليهودية هى الرباط الوحيد الذى يجمعهم ، وهناك ظهرت فكرة المعابد اليهودية كمكان للتجمع والعبادة وتحصيل الدرس وجمع التبرعات.

## مزيد من الدمار

ولكن فى ذلك الزمن كانت القوى تنمو وتزدهر ثم تضعف وتضمحل ،وفى عام ٥٣٨ قبل الميلاد سقطت الإمبراطورية البابلية التى لا تقهر أمام الفرس ، وهنا طلب اليهود من الإمبراطور الفارسى قورش بأن يعودوا مرة أخرى من حيث أتوا ، ولكن الذى عاد إلى يهودا كانت مجموعات صغيرة ، بينما فضلت الأجيال الجديدة البقاء فى المجتمع الجديد فى أرض بابل ، وهذه المجموعات لم تلق ترحيبًا من السكان الأصليين فى يهودا ، وهم من نسل اليهود الفلاحين الفقراء الذين لم يأخذهم البابليون معهم ، ومن هنا نقول لهؤلاء الذين ينادون اليوم بتوحيد يهودا والسامرة، أن يهود هاتين المنطقتين لم يكونوا فى أى وقت من التاريخ على وفاق .

وفى عام ٣٣٣ قبل الميلاد سقط الفرس أمام ضربات الإسكندر الأكبر ، ليبدأ عهد جديد من السيطرة الإغريقية ، ونشبت معارك دموية بين جنرالاته بعد وفاته وأدى ذلك إلى وقوع يهودا تحت سيطرة السلوقيين نسبة إلى الإمبراطور الإغريقى سلوقى ، وفى هذه الفترة قويت شوكة الأحبار وازدادت ثرواتهم وسلطاتهم ، ومارسوا القمع ضد الطبقات الدنيا من المجتمع اليهودى ، وهنا ظهرت طبقة دينية جديدة تسمى

الكتبة نسبة للأشخاص الذين كرسوا أنفسهم لنسخ التوراة دون أجر ، وحاولوا العودة باليهودية إلى أصولها القديمة ، ولكن الغلبة كانت للتناحر والحروب الدموية بين الطوائف اليهودية المختلفة والتى كان كل منها يحاول السيطرة على كنوز المعبد ، ولعل هذه الفترة – كما يقول المؤرخون – هى أسود فترات التاريخ اليهودى ، حيث ساد التناحر والصراع والشحناء ، وكانت الجراح كلها من صنع اليهود .

وفى الوقت الذى كان اليهود يذبحون بعضهم البعض ، كانت الإمبراطورية السلوقية فى طريقها إلى الإنهيار أمام معاول الرومان ، وبالتالى خضع اليهود لنفوذ الإمبراطورية الرومانية الصاعدة ،وحدث فى ذلك الوقت أن تمرد الفريسيون – وهم أبناء الطبقة الوسطى والفقيرة من اليهود – ضد الحاكم اليهودى جانيوس الذى استدعى مرتزقة أجانب لقمع التمرد ، وأسفر ذلك عن مقتل ستة آلاف متمرد يهودى، ومع ذلك استمرت الثورة تسعة أعوام أخرى قتل خلالها خمسون ألف يهودى وعندما انتصر جانيوس على المتمردين أمر بصلب ثمانمائة يهودى على أن يذبح نساءهم وأطفالهم أمام أعينهم أثناء عملية الصلب ، وقد أشرف الملك جانيوس بنفسه على هذه المذبحة وهو يرتشف النبيذ من كأس كبيرة فى يده .

وعلى الرغم من أن الرومان اكتفوا بأخذ الضرائب تاركين اليهود فى سلام إلا أن اليهود أنفسهم لم يتركوا بعضهم البعض فى سلام، فاستمرت بينهم الحروب والمذابح والتنافس على الحكم والنفوذ ومتاع الدنيا ، وخلال الفترة التالية قتل ما يزيد على مائة ألف يهودى أو عشرة فى المائة من تعداد سكان المنطقة من اليهود .

ثم وقعت الطامة الكبرى عندما احتلت طائفة من اليهود المتطرفين قلعة "الماسادا" وقتلوا الحامية الرومانية ، وألغوا القرابين التى كانت تقدم فى المعبد للإمبراطور الرومانى، وكان هذا بالنسبة لروما لا يحمل سوى معنى واحدا : التمرد . وقد حاول كبار اليهود إقناع المتمردين بالعدول عن العصيان، ناصحين إياهم بأنهم لا يستطيعون محاربة روما دون جدوى ، ولم يكن هناك مفر من قدوم القوات الرومانية التى دخلت فى حرب طاحنة مع المتمردين استمرت أربعة أعوام قبل أن يسقط المعبد ، ثم استمرت ثلاثة

أعوام أخرى قتل خلالها عدة آلاف من اليهود على أيدى الرومان ، ولكن العجيب أن آلافًا أخرى سقطت قتلى على يد اليهود أنفسهم ، وتقدم الرومان ليحاصروا أورشليم أو يمنعوا عنها الطعام ، وتفشت المجاعة ، وتحول اليهود إلى وحوش تتخاطف الغـذاء ، واضطروا إلى تناول الأحذية والأعشاب ، وفى النهاية تحولوا إلى صغارهم يلتهمونهم فى وحشية ضارية ، وتضور مئات الآلاف جوعًا .

و لم يبق سوى تحرير قلعة الماسادا من اليهود ، وبعد حصار طويل قاس بنى الجيـش الرومانى أبراجًا عالية وجاء بالمنجنيق فى محاولة لاختراق القلعة ، وعندما أدرك اليعـلزر زعيم اليهود بالقلعة أن النهاية باتت وشيكة ، وأن الرومان باتوا على الأبواب حـث جميع اليهود المحاصرين على قتل أنفسهم ، وقد قام الرجال بقتل النساء والأطفـال ثم أخذوا يقتلون بعضهم البعض ، أما الرجل الأخير الذى ظل على قيد الحياة فقد قتـل نفسه بسيفه ، وبهذا يكون حادث الماسادا أول انتحار جماعى فى تـاريخ اليـهود ، ويشكل هذا الحادث أثرًا بالغًا فى الوعى اليهودى حتى عصرنا الحديث .

وقد أعدت إسرائيل حاليا قلعة الماسادا لتكون مزارا سياحيا تقود إليـه الأفـواج السياحية ليطلعوا على هذا الأثر الذى يحظى باهتمام بالغ لدى الإسرائيليين كما يقـاد إليه الجنود ليقسموا هناك على ألا تتكرر الماسادا مرة أخرى فى تاريخ إسرائيل .

ولكن الماسادا نفسها تخالف تعاليم الديانة اليهودية التى تحض على الحياة وتنهى عن الانتحار ، ولو أن كل اليهود امتثلوا لأوامر اليعازر قائد القلعة وانتحروا لمـا كـان لليهودية ذكر اليوم .

ومع ذلك لم يتعظ اليهود من سقوط المعبد الثانى فى عام ٧٠ قبل الميلاد ، وعـادوا ليتمردوا مرة أخرى عام ١٣٣ ميلادية ضد الرومان، وكان الرد عنيفا أيضا هذه المـرة وقتل آلاف اليهود وتم تدمير يهودا بالكامل وحظر الرومان الديانة اليهوديـة ، وقـد هاجر معظم من بقى على قيد الحياة من اليهود إلى بابل .

واليوم عندما يفخر اليهود بماضيهم فى محاولة لتبرير وجودهم الحالى يكشفون عن قيمهم عندما يمجدون ملوكهم وليس أنبياءهم فالمعايير الأخلاقية تعلن فى إسرائيل ولكن أحدًا لا يمارسها غالبًا ، إن اليهودية ليست بحاجة إلى أرض وقوة سياسية وإنما بحاجة إلى يهود!!.

## المنفى والانعتاق

لم تستمر اليهودية بسبب الممالك وإنما لتعاليمها ، فالممالك اليهودية القديمة دمرت بعضها البعض ، وبقيت اليهودية على قيد الحياة ليس فى دولة يهودية وإنما فى الشتات.

ويبدأ شتات اليهود الدائم فى عام ٥٨٦ قبل الميلاد عند سقوط أورشليم ، وإبعاد آلاف اليهود إلى بابل ، وهروب آلاف أخرى إلى مصر ، وخلال فترة الحكم الإغريقى والرومانى خرج المزيد من اليهود من مملكة يهودا وكونوا مستعمرات فى أنطاكية ودمشق والأسكندرية وقبرص وكريت واليونان وعلى طول البحر الأسود ، ووصلوا إلى رومانيا والمجر والقرم ، وروما وأجزاء أخرى من إيطاليا ، ثم اتجهوا إلى شمال أفريقيا وإسبانيا وفرنسا ، ولكن القطاع الأكبر من يهود الشتات كان يعيش فى بابل ، ويقول **المؤرخ اليونانى سترابو** "من العسير أن تجد مكانا فى المعمورة لم يستقبل هذا الشعب" .

ومن الأرقام الغريبة التى تؤكد هذه الظاهرة أن قرابة ٦٥ فى المائة من تعداد اليهود كانوا يعيشون بالفعل فى الشتات عندما هدم المعبد الثانى عام ٧٠ قبل الميلاد ، فقد فضل الكثيرون الهجرة من مملكة يهودا على البقاء وسط الحروب والصراعات الدموية المريرة ، وقد كان هذا الشتات هو الذى كفل لليهودية الاستمرار ، وأنقذها من اضطهاد الرومان أو من التشرذم الطائفى .

وكلما طرد اليهود من مكان لجئوا إلى آخر ،وتنقلوا عبر العالم من الشرق الأدنى إلى أوربا الغربية إلى أوربا الشرقية بل إلى أماكن نائية وقتذاك مثل الهند والصين ، وكان ما يربط بين اليهود ثلاثة حبال :

**أولاً** : أهم أقلية فى مجتمع غريب يدين بعقيدة مخالفة وقد أدى شعورهم بـالضعف إلى التماسك .

**ثانيا** : أهم دونوا تعاليم دينهم لتدلهم على كيفية الحياة كيهود .

**ثالثا** : أهم تعمدوا العيش بمعزل عن غير اليهود .

وأحيانا كانت الظروف التى يعيشون تحتها تجبر بعضهم على التحول إلى المسيحية – طوعا أو كرها – أو تزوج غير اليهوديات أو الانفصال عن الجماعة ، ولكن الجماعات اليهودية ككل التى كانت تعيش فى الشتات اختارت بمحض إرادها أن تعيش بمعزل عن المجتمع الذى انتقلت للحياة فيه ، و لم يكن هذا المجتمع هو الذى يجبر اليهود على الانعزال ، و لم تكن مصطلحات مثل "معاداة السامية" قد عرفت بعد ، ولكن ما حدث هو أن اليهود فضلوا هذه العزلة للمحافظة على هويتهم ودينهم ثم أهم كانوا يشعرون بالتعالى على الشعوب الأخرى لأهم شعب الله المختار .

وقد قضت التعاليم اليهودية فى الشتات بعدم الزواج بغير اليهود ، أو التصادق معهم أو إجراء معاملات طويلة ، أو تناول الطعام معهم حتى ولو كان الطعام حلالا وفقا للتعاليم اليهودية ، بل وصلت المحظورات إلى منع تناول النبيذ الذى لمسه شخص من الأغيار (غير يهودى) .

وهذه التعاليم ظلت سارية لفترة طويلة من الزمن كانت الجماعات اليهودية خلالها منغلقة على نفسها ، ومكتفية ذاتيا من الناحية الاقتصادية ولكن عندما اتسع نطاق الشتات، وانقسمت الجماعات اليهودية إلى مجموعات أصغر حجما تفرقت وساحت فى الأرض إلى أماكن ملائمة ومجتمعات تتقبل وجودها ، اضطر اليهود إلى التعامل المباشر مع الأغيار ، فهم مجبرون على شراء الطعام والثياب وتأجير المنازل ، بل والعمل لديهم ، وهنا تقدم الأحبار الواقعيون ليعدلوا وينقحوا التعاليم بشكل يتواءم مع التغييرات الجديدة بحيث تسمح لهم بالتعامل مع الأغيار ، ومع ذلك اقتصر التعامل على مجال الأعمال والتجارة فقط دون أن تتعداه إلى المجالات الاجتماعية الأخرى ، وبذلك

سمح لليهودى بأن يبيع النبيذ للمسيحى ، ولكن ظل محظورا عليه تناوله معه فى جلسة صداقة .

غير أن هذا التعالى الدينى وهذه العزلة الاجتماعية كانا كفيلين بأن يستخرجا ردود فعل معادية من جانب المجتمعات التى وفد إليها اليهود ، فالكنيسة – على سبيل المثال– أصدرت أوامرها بمنع المسيحيين من التعامل مع اليهود ، وتم فى وقت لاحق تخصيص أحياء لسكن اليهود عرفت باسم "الجيتو" ، بل ذهبوا إلى أقصى من ذلك إلى حد تعليق "بادج" على ثياب اليهود لتمييزهم عن المسيحيين ثم صدر مرسوم من الكنيسة يقول : **"يحظر على المسيحيين اللعب مع اليهود أو تناول الطعام والشراب معهم أو الإفضاء لهم بالأسرار الشخصية"** .

## ضحايا العزلة

وحيث أن التعالى يولد التعالى ، والازدراء يثير الازدراء ، فقد وجد اليهود أنفسهم أيضا ضحايا فى المجتمعات الجديدة التى لجئوا إليها كان اليهود غالبا كبش الفداء حينما يتطلب الأمر ذلك، وكان المسيحيون ينظرون إلى اليهودية بسوء فهم باعتبارها ديانة غريبة ، وكثيرا ما كانوا يتهمون اليهود بارتكاب جرائم شاذة مثل اختطاف الأطفال بغرض استخدام دمائهم فى خبز فطائر عيد الفصح ، أو بتعذيب من يحضر قداس العشاء الربانى حتى تنزف دماؤه ؛ إلى جانب أن اليهود متهمون فى المقام الأول بأنهم صلبوا المسيح .

ومع ذلك فقد أدى الاضطهاد إلى تماسك اليهود ، والتزامهم بالتعاليم الدينية بغرض المحافظة على هويتهم من الضياع ، وهذا الالتزام عرضهم لمزيد من الاضطهاد ، إلا أن اليهود فى العصور الوسطى لم يكونوا يسعون إلى الحصول على القوة السياسية ، وكانوا ينظرون إلى أوضاعهم باعتبارها فترة انتقال بين المنفى وظهور المسيح المنتظر الذى سيخلصهم من الآلام ، وكل ما كانوا يطلبونه من الحاكم الذى يتواجدون تحت إمرته هو أن يكفل لهم الحماية والأمن ، وفى المقابل كانوا يدفعون الضرائب المطلوبة

ويدعون للملك الذى يعيشون تحت حمايته أيا كان اسمه وهذا جعلهم يســـــتمرون فى الحياة بالرغم من الاضطهاد والازدراء .

ولعل الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر من أسود فترات تـــاريخ الشتات اليهودى باستثناء محرقة هتلر ، فقد جاءت هذه الفترة وقد طردت فرنسا مـــا لديها من اليهود ، وكانت ألمانيا لا تزال مقسمة إلى عدة ولايات وكان اليهود يهربون من ولاية إلى أخرى خوفا من المذابح والاضطهاد ، ومازالوا يهربون شرقا حتى وصلوا إلى بولندا ولتوانيا وأوكرانيا حيث وجدوا رفاقهم اليهود الذين استوطنوا هذه الأماكن منذ مئات السنين ، وفى عام ١٤٩٢ طردت إسبانيا اليهود من أراضيها وفى البرتغـــال اضطر اليهود إلى التحول للمسيحية كرها لإنقاذ أنفسهم من بطش السلطات .

وفى القرن السادس عشر بدأت الدول الأوربية تطبق نظام الجيتو الإجبارى ، وكان اليهود قبل ذلك يستطيعون الإقامة فى الأحياء المسيحية ولكن الجيتو أكد الفصام بـــين المسيحيين واليهود فى الأحياء اليهودية التى ظلت على نفس حجمها بينما تزايد عـــدد المواليد عاما بعد عام وتحول الجيتو إلى أحياء فقيرة متداعية المساكن .

ومع ذلك لم يقاوم اليهود الجيتو ، بل ربما وجدوا فيه عاملا يساعد على الحفـــاظ على الهوية اليهودية ويحول دون إندماجها فى الأجناس والأديان الأخـــرى ، ولعلـــهم وجدوا فيه مكانا يقيمون من خلاله حضارة منفصلة، ولكن الأمر السلبى الآخر وهـــو الجيتو أدى إلى الحصار والانغلاق الفكرى، فأصبحت المعتقدات الفكرية للأحبار هـــى حقائق مقدسة لا تقبل النقاش ، وإذا كان الشتات تجربة ليبرالية بمعنى أنه عرض اليهود لأفكار جديدة ، وأطلعهم على مجتمعات أخرى فى العالم إلا أن الجيتو كـــان بمثابـــة نكسة فكرية أرجعتهم إلى عهد الانغلاق القديم .

وأصبح اليهود من كبار تجار الرقيق ، وإن كان البابا قد حظر عليهم التعامل مـــع العبيد من المسيحيين إلا أنه سمح لهم بالاتجار فى الرقيق من الوثنيين ، ومن المعـــروف أن العصر الذهبى لليهود كان فى إسبانيا حيث حققوا ثروات طائلة من تجـــارة الرقيـــق ، وحيث أن الديانة المسيحية حرمت على أتباعها التعامل بالربا ، فقد بـــدت الســـاحة

حالية أمام اليهود لإقراض الأموال بالفائدة وإن كان هذا يخالف تعاليم الديانة اليهودية الأصلية ، ولكن اليهود فى سعيهم لجمع الثروة ، وفى محاولتهم العيش فى مجتمعات غربية تشعر نحوهم بالنفور عدلوا كثيرًا من التعاليم الدينية لتتوائم مع مقتضيات حياقم الجديدة ، وقد أدى تزايد الأموال فى أيدى اليهود إلى تغييرات فى البيئة الفكرية، فقد كانوا ينظرون فى البداية إلى حاخامات الأحبار باحترام شديد باعتبارهم الزعامات التى تقودهم وترعى خطاهم ، أما بعد ذلك فقد انتقلت القيادة وبالتالى مشاعر الاحترام إلى الأرستقراطية الجديدة التى تمتلك الأموال وقد استمرت هذه النظرة سائدة حتى الآن .

## الصعود إلى السطح

وفى منتصف القرن السابع عشر دارت رحى حرب لمدة ثلاثين عامًا بين الكاثوليك والبروتستانت كانت لها آثار فادحة على وسط أوربا وأدت إلى تدمير مفهوم الكنيسة الشاملة لجميع المسيحيين ، وفى وسط هذه الفوضى كان اليهود فى مأمن نسبى، فعلى الرغم من تعرضهم للبطش أثناء هذه الحرب إلا أنه لم تكن لهم فيها ناقة ولا جمل ، وحاولوا الابتعاد عن أوزارها قدر استطاعتهم ، ولما انتهت الحرب بأزمة مالية واقتصادية خانقة كان اليهود لا يزالون يخفون قدراً لا بأس به من الثروة جمعوها فى أوقات سابقة ، وقد أفادهم هذه الثروة كثيرًا فى ذلك الوقت، فقد احتاج إليهم أمراء الولايات وحكام الدول لتجهيز الجيوش وإعادة بناء ما هدمته الحرب وتشييد المصانع ، كما زود اليهود الحكام بالحلى والنفائس الأخرى التى تقرب القلوب وتعقد الصداقات.

و لم يكن هذا كله بدون ثمن ، فبالإضافة إلى الفوائد التى جناها أثرياء اليهود من هذه القروض ، استطاعوا الاقتراب من الحكام لأول مرة فعملوا كمستشارين لهم وجواسيس ، ودبلوماسيين وجامعى ضرائب ونظار أملاك ، وكانت هذه بداية القوة فى الشتات .

وفى ألمانيا – على سبيل المثال – بدأت ثروات بعض اليهود تتضخم بينما كان الشعب الألمانى يعانى من الجوع والتضخم ونقص الأموال مما أساء نظرة المسيحيين لليهود باعتبارهم مستغلين ، وكان الضحية هو الشعب اليهودى على نطاق واسع .

أما نقطة الانطلاق الرئيسية لليهود التى حررهم من القيود فكانت الثورة الفرنسية ، فمواطنو باريس الغاضبون لم يحطموا فى طريقهم سجن الباستيل فحسب بل أزالوا عمودين كانت تستند إليهما أوربا فى العصور الوسطى : الملك والكنيسة ، وعند اندلاع الثورة كانت هناك قرابة مليونين وربع المليون يهودى فى العالم ، يعيش ستمائة ألف منهم فى دول إسلامية ، وعدد صغير فى الأمريكتين ، ومليون وثلاثة أرباع المليون فى أوربا من بينهم ٣٣ ألفًا فى فرنسا .

فقد عاد اليهود إلى فرنسا مرة أخرى بعد أن طردوا منها عام ١٣٩٤ ، وقد جاءوا هاربين من إسبانيا والبرتغال ، وهؤلاء كانوا من السفارديم ، وعندما استولت فرنسا على الألزاس واللورين من ألمانيا ضمت إليها من كان يقيم فيهما من يهود وهؤلاء كانوا من الأشكناز ، وعندما جاء عام ١٧٢٠ كان اليهود قد استوطنوا باريس ذاتها ، وكان اليهود السفارديم – بخلاف الحال الآن – أكثر ثراء من اليهود الأشكناز ، وبالتالى عندما طلب ١٥٠ يهوديا من ألمانيا وبولندا القدوم إلى بوردو بفرنسا طلب السفارديم من الملك لويس الخامس عشر أن يطردهم لأنهم "فقراء يثيرون الاحتقار" .

وما أن تحطم الباستيل فى يوليو ١٧٨٩ حتى ثارت مسألة حقوق اليهود فى إطار حقوق الإنسان التى نادت بها الثورة الفرنسية ، وقد اجتمعت الجمعية الوطنية (البرلمان) فى أغسطس من نفس العام لتعلن "حق الإنسان والمواطن" والذى جاء فيه : "**جميع الناس ولدوا أحرارًا ويتساوون فى الحقوق**" .

كان المجتمع الأمريكى يؤمن بالعمل والنجاح الفردى، ويقدم فرصًا بلا حدود لمن يدفع الثمن ، ولكن أعين اليهود كانت مسلطة عل مناطق أخرى براقة تحيط بها الشهرة والنفوذ والسلطة كانت فاكهة محرمة عليهم فى أوربا وفى سبيلها كانوا على استعداد لترك الفردوس والهبوط على أى أرض تقدم إليهم حتى ولو كانت على أطباق من الشوك والجمر .

بدت أمريكا الحلم الكبير الذى يداعب خيال المهاجرين والمغامرين والباحثين عن المال أو المأوى أو الذات ، وهى وقتذاك كانت أرضًا بكرًا واسعة تفيض بالخير والنماء تبحث عمن ينقب ليستخرج النبت والذهب ، تطلب مهرها ممن يطلب يدها عرقًا ودموعًا وبعدًا عن الأهل والديار والصحاب .

ومع ذلك لم تثر أمريكا شهية اليهود فى البداية لبعدها وعدم الاطمئنان إليها ، وظلت أوربا شرقها وغربها هى المكان المفضل لبضعة قرون ، وإن كانت جماعات من اليهود قد استقرت فى أمريكا – العالم الجديد – وأقامت مستوطنات لها هناك منذ عام ١٦٢١، وعندما قامت الثورة الأمريكية ضد الاحتلال البريطانى كان هناك قرابة ربع المليون يهودى فى الولايات المتحدة بخلاف من تحول منهم إلى المسيحية أو تزوج من الأغيار ، وهؤلاء المهاجرون كانوا ينتمون أساسًا إلى اليهود السفارديم الذين هربوا من إسبانيا والبرتغال .

وقد أيد معظم اليهود المهاجرين الثورة الأمريكية ، فقد كانت الثورة تعنى نقل النفوذ والسلطة من الطبقتين الوسطى والعليا فى بريطانيا إلى هاتين الطبقتين فى الولايات المتحدة، وهذا بالطبع فى صالح التجار اليهود الذين ستنتعش تجارتهم وتزداد أموالهم كما أن هذه الثورة من شأنها أن تغير الأوضاع القديمة السائدة التى لم تكن فى صالح اليهود ومنها حرمانهم من تولى الوظائف العامة ، وقد أصدر الكونجرس بعد ذلك "قانون الحقوق" الذى يزيل الفوارق الدينية بين المواطنين، والذى أرسى قواعد العلمانية فى الولايات المتحدة .

وهناك أمر يتسم بالغرابة فى تطور اليهودية فى أمريكا ، وهو عدم هجرة الحاخامات إلى العالم الجديد ، وبالتالى فقد ظلت الجماعات الدينية التى وصلت إلى أمريكا فى البدايات الأولى لفترة طويلة (رئاسات) دينية وصارت لها الحرية فى تفسير التعاليم الدينية كما يتراءى لها وبما يتلاءم مع حياتها الجديدة فى عالم جديد ، وإن كان ذلك لا يعنى أنهم فقدوا هويتهم اليهودية بل ساعدهم ذلك على أن يكونوا أكثر ليبرالية وعلمانية ، الأمر الذى يختلف كثيرا عن أبناء دينهم فى أوربا حيث عاشوا لفترات طويلة داخل الجيتو ، وعانوا من اضطهاد الأغيار وانغلاق الأحبار ، ومن هنا كان تعرض يهود أمريكا للتمييز الدينى أو القمع الفكرى ضئيلا ويلقى مقاومة سريعة وقوية من جانبهم .

وبعد انتهاء الثورة الأمريكية باستقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا بدأت موجات جديدة من الهجرة اليهودية إليها، وفى هذه المرة لم تكن من السفارديم ولكن من الاشكناز الذين جاءوا أساسا من ألمانيا حيث توجهوا إلى الغرب الأمريكى ، حيث مارسوا مختلف ألوان التجارة وعلى رأسها الرقيق ، وسرعان ما استقر يهود ألمانيا واستتبت لهم الأوضاع وفهموا اللعبة التجارية الجديدة فأسسوا المتاجر والمصارف وبيوت الاستثمار .

وقد اتسع نطاق موجات هجرة اليهود الألمان إلى العالم الجديد خلال الفترة من ١٨١٥ إلى ١٨٩٠، وقد جاءت هذه الهجرة وسط نزوح الألمان إلى أمريكا بحثا عن فرص عمل وحياة جديدة حيث بلغ عدد المهاجرين الألمان خلال هذه الفترة قرابة خمسة ملايين من بينهم ألف يهودى ، وقد أدى تسارع موجات الهجرة إلى دمار محصول البطاطس فى ألمانيا مما خلّق أزمة اقتصادية وقتذاك، و لم يكن من المستغرب أن يشكل المزارعون غالبية قوام المهاجرين، وعندما يهاجر المزارعون يضطر اليهود أيضا إلى الهجرة لأنهم يمثلون السوق التقليدية للتجارة اليهودية .

وحينما وصل اليهود الألمان إلى سواحل أمريكا اتجهوا غربا حيث أنشئوا مدنا جديدة ، مفضلين ذلك على الاستقرار داخل المجتمعات القديمة .

ويلاحظ أيضًا أنهم فضلوا الإقامة مع المسيحيين الألمان على العيش مع اليهود من جنسيات أخرى ، فقد رأوا أن ذلك قد يساعدهم على الصمود أمام التجربة الأمريكية ومواجهة الحياة الجديدة بكل مخاطرها ومخاوفها ، وكان هناك على الأقل عوامل مشتركة بين المجموعتين : اللغة والذكريات وأيضًا الآمال .

## اليهود والعبيد

ومن الناحية السياسية تضامن يهود أمريكا مع الحزب الديمقراطى الوليد (وكان يطلق عليه فى البداية اسم الحزب الجمهورى ثم ظهر حزب آخر بهذا الاسم) ، وفى ذلك الوقت كان الحزب الديمقراطى يدافع عن الرق ، وبالتالى كانت مبادئه تتلاءم مع مصالح اليهود التجارية حيث أن معظمهم كان يعمل بتجارة العبيد ، ومن الطبيعى أن يؤيد معظم اليهود هذا الحزب أثناء الحرب الأهلية الطاحنة التى دارت رحاها بعد ذلك بين الشمال والجنوب .

وكانت تجارة الرقيق رائجة فى الجنوب ، ودارت مناقشات واسعة قبل اندلاع الحرب الأهلية حول مسألة الرق، وهل يحق للإنسان أن يمتلك إنسانًا آخر يسخره فى خدمته ، وظهرت أصوات معارضة ، وأصوات أخرى تطالب بإلغاء الرق ، وانتقلت هذه الأصوات إلى داخل الطائفة اليهودية وهنا تقدم أحد مشاهير الحاخامات فى الولايات المتحدة وهو موريس رافال ليدافع عن الرق، وليسكت الأصوات التى يمكن أن تؤثر على هذه التجارة التى تدر ذهبًا ، وقد أعد الحاخام موعظة بليغة استشهد فى كل فكرة فيها بالعهد القديم ، وأهم ما تؤكده هذه الموعظة أن الله يؤيد الرق، وجاء فى هذه الموعظة التى ألقاها أمام حشود هائلة من المصلين وطبعت بعد ذلك فى كتيب أنيق (كيف تجرءون على إدانة الرق باعتباره أحد الذنوب ، ألا تذكرون أن الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأيوب هؤلاء الرجال الذين أوحى إليهم الله وألقى عليهم بطابع الكمال ومخافة الله وتجنب الشر ، هل تذكرون أنهم جميعًا كانوا يمتلكون العبيد ، إن ما تفعلونه بمطالبة إلغاء الرق هو أمر يقترب من الكفر بالله) .

وقد بدا فى ذلك الوقت أن هذه الموعظة قد حسمت الأمر لصالح الرق، فالحاخام رافال كان يحظى باحترام الجميع ، وهو يؤكد أن امتلاك العبيد هو التزام دينى ، وإنكاره تجديف وهرطقة ، وقد أبرزت صحف نيويورك مقتطفات واسعة من هذه الموعظة بينما امتدحها عدد كبير من الحاخامات ، ومع ذلك وجدت هذه الموعظة من يعارضها من بين صفوف اليهود ، بل ومن يطالب بإلغاء الرق .

وظهرت أصوات تستنكر تأييد اليهود للرق ،وتعقد مقارنات بين اليهود الذين كانوا مستعبدين فى أماكن أخرى فى العالم وبين الزنوج المستعبدين حاليًا فى أمريكا ، وقال البعض أنه كان من المفروض أن يتعاطف اليهود مع الزنوج لأنهم عانوا قبل ذلك من مرارة الاستعباد ، ولكن الغريب أن اليهود تضامنوا مع أصحاب العبيد وليس مع العبيد أنفسهم ، وفى هذا الصدد كتبت صحيفة (جويش ريكورد) اليهودية التى تصدر فى نيويورك تقول (كيف يتحدثون بنفس اللهجة عن الزنوج واليهود.. فالطائفة الأولى تمثل كل ما هو حقير ومتدن فى ستة آلاف عام من الوثنية ، أما الأخرى فهى تمثل كل ما هو عظيم وخالد) .

وعندما اندلعت الحرب الأهلية كانت مسألة العبيد محورية ، وقد اتخذ اليهود مواقف متباينة فبعضهم أيد الشمال والآخر الجنوب بينما اتخذت مجموعة ثالثة موقفًا محايدًا ، وتشير الإحصائيات إلى أن عدد الجنود اليهود الذين اشتركوا فى هذه الحرب بلغ عشرة آلاف ، ومع ذلك ظهرت خلال الحرب ربما لأول مرة مشاعر العداء للسامية ، ومن أسباب ذلك المضاربات التى كان يقوم بها اليهود فى بورصة القطن فى الجنوب إلى جانب عمليات التهريب الأمر الذى كان يؤثر على اقتصاديات المنطقة، ويقلل من الأموال التى يحتاج إليها الجيش فى حربه ، وحلاً لهذه المشكلة أصدر الجنرال بوليسيس جرانت قائد قوات الجنوب أمرًا بفصل اليهود العاملين بإدارة تنيسى التى تضم ولاية تنيسى وأجزاء من كنتاكى وميسيسبى خلال أربع وعشرين ساعة ، وقد استمر اليهود فى مقاومة مشاعر معاداة السامية، وكان مستغربًا وقتها أن هذه الطائفة التى تنكر أى حق من حقوق الإنسان للزنوج لا تكل ولا تمل من المطالبة بحقوقها .

وبعد انتهاء الحرب الأهلية أصبح إبراهام لينكولن رئيسًا للولايات المتحدة ، فألغى الأمر الذى أصدره الجنرال جرانت بفصل اليهود ، وكانت هذه البادرة بداية صداقة بين الرئيس واليهود ، ولعل هذه الخطوة كانت النافذة التى دلفوا منها إلى عالم السياسة الواسع الرهيب والشائك أيضًا ، فعندما أجرى لينكولن حملته الانتخابية عام ١٨٦٤ أكد ازخار – وهو طبيب متخصص فى علاج قدم الرئيس – له أن يهود نيويورك سيصوتون لصالحه ، وعندما اغتيل لينكولن بكاه جميع اليهود الأمريكيين .

وقد أدت الصداقة بين لينكولن واليهود إلى تحول الكثير من الأصوات اليهودية من مناصرة الحزب الديمقراطى إلى الحزب الجمهورى الذى كان يمثله ، وبدأت منذ ذلك الوقت عملية تكتل أصوات اليهود لصالح الحزب الذى يؤيد المصالح اليهودية ، أو لصالح المرشح الذى يناصر اليهود، ولكن حدث بعد اغتيال لينكولن أن رشح الحزب الجمهورى الجنرال بوليسيس جرانت الذى كان قد أصدر أمرًا بفصل اليهود ، وبدأت أول عملية اختبار لقوة وتأثير اليهود فى العملية الانتخابية ، وعلى الرغم من حشد الأصوات اليهودية من أجل هزيمة جرانت إلا أنها فى ذلك الوقت لم تكن من القوة بحيث تطيح به بعيدًا عن منصب الرئاسة .

وقد توزع اليهود بين الحزبين الكبيرين الديمقراطى والجمهورى ، إلا أن الجماهير العريضة من اليهود فضلت الانضمام إلى الحزب الجمهورى الذى أصبح بعد موت لينكولن معقلاً للثروة والفساد ، وقد استمر الحزب فى الحكم لفترة طويلة من عام ١٨٦٠ إلى ١٩٣٢ ، ومن بين أسباب استمرار الحرب تدفق أموال الأثرياء اليهود على خزانته ، كما كان يحصل أيضًا على تأييد فقراء اليهود لأنهم كانوا يعتبرونه حزب السلطة ، وأنه الذى كفل لهم الحرية والمأوى .

وعندما وصل الرئيس تيودور روزفلت إلى الحكم عن "الحزب الجمهورى" عين أول وزير يهودى فى الحكومة الأمريكية وهو أوسكار شتراوس وزير التجارة والعمل، وقال له روزفلت : "إن تعيينك فى هذا المنصب رسالة موجهة إلى الروس لكى

**يعلموا كيف نعامل اليهود هنا"** ، وبذلك أصبح روزفلت صديقا لليهود ، وبالتالى رد اليهود هذا الجميل بتأييده عند إعادة ترشيح نفسه للرئاسة عام ١٩٠٤ .

وانفتح الباب الموصد أمام اليهود لتولى المناصب الهامة ، فقد عين الرئيس ويلسون أول يهودى كقاض فى المحكمة العليا .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى حدثت تحالفات جديدة فى أوربا ، فقد تحالفت ألمانيا وتركيا من ناحـ يا وإنجلترا وفرنسا من ناحية أخرى ثم انضمت إليهم الولايات المتحدة بعد ذلك . وقد أثرت هذه الحرب كثيرا على يهود أمريكا ، فاليهود الذين جاءوا من ألمانيا تساءلوا لماذا تبيع أمريكا السلاح لإنجلترا وليس لألمانيا ، ووصفوا الرئيس ويلسون بالانحياز ، بينما تساءل اليهود من أصل روسى كيف تتحالف أمريكا التى تحمل مشعل الحرية مع روسيا معقل الاضطهاد والقمع ، وعندما بدأ التجنيد الإجبارى للاشتراك فى الحرب مع الحلفاء هرب عدد من اليهود من أمريكا، فهم قد جاءوا إليها أساسا هربا من أمر التجنيد الذى أصدره القياصرة الروس، وبسبب ظروف الحرب شهد عهد ويلسون كبت الحريات والبطش والقمع والاعتقال ، وكان اليهود من الضحايا .

## اليهود .. واليسار .. وأمريكا

ويرجع نمو وازدياد الدور السياسى الذى لعبه اليهود فى أمريكا إلى تعاظم عدد المهاجرين القادمين من العالم القديم ، فقد ارتفع عدد سكان أمريكا من اليهود بنسبة هائلة تقدر بـ ١٣٠٠ فى المائة ، من ربع المليون إلى ثلاثة ملايين ونصف المليون .

وحدث تقارب بين المهاجرين اليهود من أصل ألمانى وروسى ، فالمجموعتان من اليهود الاشكناز ، وينحدر معظم اليهود الروس من أصل ألمانى ، ويتحدثون اليديشية وهى لغة أقرب إلى الألمانية وليس الروسية أو العبرية ، وإذا كان اليهود الألمان على استعداد لمساعدة اليهود الروس والدفاع عنهم ماداموا فى روسيا ، إلا أن الأمر يختلف عندما يجيئون إلى الولايات المتحدة ، فاليهود الألمان حاولوا قدر المستطاع الاندماج فى

المجتمع الجديد كما كانوا أكثر ثراء وموهبة وبالتالى تفتحت أمامهم فرص العمل والارتقاء ، بينما كان اليهود الروس أكثر فقرًا وتخلفًا وأقل مهارة وقدرة على العمل ، إلى جانب أن أعدادهم كانت كبيرة بحيث لا تنفع معها مساعدات اليهود الألمان .

وقد استقر معظم اليهود الروس فى مدن الساحل الشرقى ، فقد وصلوا متأخرين نسبيًا عن زملائهم الألمان ، ولم يعد أمامهم نفس فرص العمل أو مساحات الأراضى الشاسعة التى لم تكن تجد من يمتلكها، ومن ثم فلم يكن أمامهم سوى العمل بالمصانع والورش طوال اليوم نظير أجر ضئيل وفى ظل ظروف عمل سيئة ، وإن كان بعضهم قد استطاع العمل كباعة متجولين أو حرفيين .

وكان لليهود الألمان اليد الطولى فى الدور السياسى اليهودى فى أمريكا خلال الجزء الأعظم من القرن التاسع عشر ، فلم تصل طلائع الهجرات الروسية إلى أمريكا قبل عام ١٨٨١ ، واستغرق اندماج اليهود الروس فى المجتمع الأمريكى وقتًا طويلاً عاق دون قيامهم بدور يذكر خلال هذا القرن .

والغريب أن اليهود الألمان هم الذين تحملوا المسئولية الكبرى لتحويل اليهود الروس إلى اليسار ، فقد كانوا يمتلكون المصانع والورش السالفة الذكر التى عمل بها اليهود الروس نظير أجور ضئيلة ، وقد حولتهم هذه الأوضاع إلى اليسار ودفعتهم إلى التنظيم نقابيًا ، وعندما بدأت عمليات "الإنتاج الكبير" فى الصناعة ، نشأت مصانع عديدة خاصة خلال الحرب الأهلية ، وزادت فرص العمل ، ولكن الأعداد الكبيرة من المهاجرين الجدد كانت تبتلع دائمًا هذه الفرص وتخفض من قيمة الأجور ، وأصبح من المعتاد أن يتوجه المهاجرون إلى "سوق الخنازير" وينتظرون هناك طوال النهار أصحاب العمل عسى أن يقع الاختيار على أحدهم، بل وصل الذكاء بأصحاب العمل لدرجة أنهم كانوا يتوجهون رأسًا إلى الميناء للتعاقد مع المهاجرين الجدد فور رسو الزوارق ، لتأجير الأسرة كلها للعمل بأبخس الأجور .

وعلى الرغم من أن قانون العمل وقتذاك كان يحدد ساعات العمل ، ويقضى باستراحة لتناول الغذاء ويحظر تشغيل الأطفال ، إلا أنه من النادر أن يوجد صاحب

عمل يطبق هذه اللوائح . كما انتشر الفقر بين الأسر اليهودية ، وتفشى المرض ، وازدحمت الشقق الصغيرة بالأسر الكبيرة التى وصل عدد أبنائها إلى اثنى عشر ، وساد الجهل وتدهورت الأحوال الصحية .

وبالرغم من هذه العبودية الاقتصادية كانت هناك حرية سياسية ، فقد سمحت السلطات بتأسيس حزب العمل الاشتراكى الذى ضم العديد من اليهود وعلى رأسهم الألمان ، وكان هذا الحزب يرى أنه يمكن أن يصل إلى مقاعد الحكم عن طريق أصوات الناخبين ومساعدة النقابات العمالية وليس عن طريق الثورة ، وانبثق من هذا الحزب بعد ذلك منظمة عمالية خاصة باليهود وحدهم أطلق عليها اسم "**الفرع – ٨**".

وبعد ذلك تأسس الاتحاد اليهودى للنقابات العمالية، بهدف التعاون والتنسيق بين النقابات العمالية اليهودية ، وفى نفس الوقت نشر المبادئ الاشتراكية بين العمال .

ومن الأنشطة البارزة لهذا الاتحاد مساندة إضراب عمال ورش صناعة الملابس الذين أضربوا احتجاجًا على ضآلة الأجور وسوء أحوال العمل ، ولمنع العمال من العودة للعمل قبل تحقيق مطالبهم ، قام الاتحاد بتأجير قاعة واسعة وحشد العمال المضربين فيها لعقد جلسات متواصلة ،وتم وضع قائمة بالمطالب ، واستمر الإضراب أسبوعًا انتهى بحضور أصحاب العمل إلى القاعة والتسليم بالمطالب .

وقد استمر مد التقدم بالمطالب بين اليهود ردحًا من الزمن ، اتسم بالمظاهرات والإضرابات ، وإن كان شابه أحيانًا عدم وضوح الرؤيا والفوضى ، وتأسس حزب آخر باسم"الحزب الاشتراكى" ، وأصدر صحيفة اشتراكية باسم "**فوروارد**" أى "إلى الأمام" ، وقد زاد أعضاء الحزب الاشتراكى فى بدايات القرن العشرين بتزايد موجات هجرة اليهود الروس هربًا من الجندية وبطش القيصر ، و لم تكن الاشتراكية قضية محلية بل دولية ، فكثير من الشباب اليهود قرءوا عنها أو انجذبوا إليها عندما كانوا تلاميذ صغارًا فى روسيا وألمانيا ، وكانت الاشتراكية وقتها الحل العملى أمام اليهود لتحقيق العدالة الاجتماعية ورفع الظلم الاقتصادى عن كاهلهم ، كانت تعنى حصولهم على ما

يستحقون من أجر نظير عملهم الشاق ، وتوفير المسكن الملائم لهم، وعلاج الأمراض المتفشية بينهم .

## لغم اسمه وعد بلفور

فى ذلك الوقت صدر وعد بلفور الشهير ، وهو تعهد ورد فى خطاب وجهه أرثر جيمس بلفور وزير الخارجية البريطانى فى نوفمبر ١٩١٧ إلى والتر روتشيلد رئيس الاتحاد الصهيونى البريطانى بتسهيل إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، إلا أن الخطاب تضمن فقرة تقول : "يجب أن يفهم بوضوح أنه ينبغى ألا يتم شيء من شأنه أن يمس الحقوق المدنية للطوائف غير اليهودية الموجودة على أرض فلسطين" .

و لم تكن الأرض التى منحها البريطانيون بسخاء لليهود ملكا لهم ، بل كانت وقتذاك جزءا من الإمبراطورية العثمانية ، بل قايضوا شيئا لا يمتلكونه مقابل تأييد اليهود لهم فى الحرب العالمية الأولى ، وفى نفس الوقت شجعوا العرب على الثورة ضد تركيا – خصمهم فى الحرب مقابل وعد بإقامة مملكة عربية فى الشام تضم فلسطين بعد التخلص من الحكم التركى ، وفى نفس الوقت أيضا أجروا اتصالات سرية مع فرنسا لإبرام إتفاقية سايكس – بيكو لتقسيم هذه المنطقة بين بريطانيا وفرنسا .

ولكن وعد بلفور كانت به ثغرات كثيرة وليس فى صالح الصهيونية تماما كما تدعى ، فقد أشار إلى وطن لليهود و لم يقل دولة و لم يذكر شيئا عن الحكم اليهودى لهذا الوطن أو حتى الحكم الذاتى ، كما أكد على عدم المساس بحقوق غير اليهود فى فلسطين مما يعنى عدم إنشاء دولة يهودية ، ومن الواضح أنه تمت صياغة هذا الوعد بشكل غامض عمدا لأن الحكومة البريطانية لم تكن جادة فى تقديم التزام لليهود بقدر ما كانت تريد أن تبدو كذلك لأغراض الدعاية ، حيث كانت ترغب فى الحصول على تأييد اليهود فى حربها ضد تركيا وألمانيا .

وأثناء الحرب العالمية الأولى وجد يهود أمريكا أنفسهم أمام معادلة غريبة ، فقد تحالفت روسيا – التى طالما أذاقت اليهود مرارة الاضطهاد – مع بريطانيا وفرنسا ضد

ألمانيا ، وفى البداية تعاطف اليهود مع ألمانيا باعتبار أن انتصارها على روسيا سيحرر اليهود فيها وفى أوربا الشرقية ، ولكن المسألة تعقدت بعد ذلك إذ دخلت الولايات المتحدة فى تحالف مع بريطانيا وفرنسا وبالتالى مع روسيا ، ووجد اليهود أنفسهم فى مأزق .

وعندما أدرك الألمان قيمة مساعدات اليهود تدخلوا لدى الحليف التركى لتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين ، وبدا أن عدة قوى دولية تساعد اليهود حينذاك على النزوح إلى فلسطين ، كما درست الحكومة الألمانية فكرة تأييد مواقف الحركة الصهيونية ولكنها تراجعت بعد ذلك خوفًا من إغضاب الأتراك ، غير أن بريطانيا كانت أسبق من ألمانيا فى "خطف" التأييد اليهودى بإصدار وعد بلفور، وكانت هذه الخطوة تستهدف أيضًا كسب يهود أمريكا وتهدئة مشاعر الغضب التى تنتابهم إزاء الحليف الروسى فى الحرب .

وقد تدخل كبار حاخامات اليهود الأمريكيين لدى الرئيس الأمريكى ويلسون لإقناعه بتأييد وعد بلفور ، بعد أن رد على الحكومة البريطانية قائلاً أن توقيته غير مناسب ، وأنه ينتهك المبادئ التى أعلنها ومن بينها حق تقرير المصير ، وتساءل وقتذاك كيف يتسنى لليهود الحصول على فلسطين وهم أقلية سكانية هناك؟.. ولكن تدخل الحاخامات جعله يغير وجهة نظره ويبدى استعداده لتأييد وعد بلفور لتشجيع المساندة اليهودية له فى الحرب .

ولكن ما هى العوامل الأخرى التى دفعت بريطانيا إلى إصدار وعد بلفور ؟. لقد كان هذا الوعد وثيقة سياسية غير أنه فى المقام الأول كان بادرة من اختصاص العلاقات العامة، فقد كانت بريطانيا تحتاج إلى تأييد اليهود فى الحرب رغم كونه غير أساسى ، فهناك مبدأ يقول : "**إن أى شىء قد يساعد فى الحرب**" ، وفى هذا العام بالذات "١٩١٧" لم يكن موقف الحلفاء طيبًا ، وانسحب الروس فى أواخره بعد قيام الثورة البلشفية ، كما كانت هناك ضغوط أخرى على الحكومة البريطانية لإصدار هذا الوعد من جانب الحركة الصهيونية والحركة المعادية للسامية فى بريطانيا ، وعلى الرغم

من التناقض الصارخ بينهما إلا أنهما اتخذا موقفًا واحدًا ، وهو المطالبة بوطن لليهود ، ودافع الحركة المعادية للسامية على ذلك إبعاد اليهود من بريطانيا والتخلص منهم .

## قطف المناصب

وحين ازدادت قوة اليهود – عددًا وثراء وتنظيمًا – أخذوا يتطلعون إلى أعلى ، إلى مناصب القوة الحقيقية فى العاصمة الفيدرالية واشنطن، وتمكنوا من إدخال أول عضو يهودى فى الكونجرس وهو **مائير لندن** ، وأعقبه بعد ذلك **هنرى جولدفوجيل**، واستطاع بعضهم تولى المناصب الحكومية الهامة ، ثم زاد عدد أعضاء الكونجرس من اليهود ، وكانت أمريكا وحدها هى المكان الوحيد فى العالم الذى استطاع فيه اليهود الاندماج فى الحياة العامة والسياسية دون مشاكل تذكر .

وكان اليهود ماهرين فى التعرف على المكان الذى تكمن فيه مصالحهم ، فعلى الرغم من أن معظمهم كان يؤيد الحزب الجمهورى ، وأن كثيرين منهم انضموا إلى الحزب الاشتراكى ، إلا أن ذلك لا يمنع أبدًا من مناصرة مرشح ديمقراطى لإنجاحه بسبب سياسته التى تؤيد الهجرة .

وفى عام ١٩٢٠ نجح ستة يهود من الحزب الجمهورى فى دخول الكونجرس بينما نجح يهودى واحد من الحزب الاشتراكى، غير أن الدراسات والإحصاءات تشير بعد ذلك إلى أن اليهود أخذوا يتحولون صوب الحزب الديمقراطى ، ولكن لم يكن ذلك على حساب الحزب الجمهورى إنما على حساب الحزب الاشتراكى الذى انقسم على نفسه بعد ذلك وخرج من معطفة الحزب الشيوعى ، وتشير هذه الاتجاهات إلى أن اليهود بدءوا ينصرفون عن الاشتراكية فى أمريكا ويتحولون صوب اليمين ، وهذا يعنى تزايد ثرواتهم وتحسن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية السيئة السابقة .

ومن أسباب هذا التحول أن السلطات الأمريكية كانت تنظر بعين الشك نحو الراديكاليين واعتقلت آلافًا منهم عام ١٩٢٠ ، كما تعرضت الولايات المتحدة بعد ذلك لموجة من المكارثية التى تعادى تمامًا كل ما يمت للشيوعية بصلة مما جعل الانتماء

لليسار خطرًا يعرض صاحبه للاضطهاد والبطش وهو ما فر أمامه اليهود من روسيا وأوربا ، فإلى أين يذهبون الآن؟.

وإذا أضفنا عامل الأجيال إلى ذلك لبدت صورة واضحة لهذا التحول ، فالجيل السابق من المهاجرين كان أكثر استعدادًا لتقبل اليسار إما لأنه اعتنقه عندما كان شابًا فى روسيا وألمانيا ، أو تحول إليه بسبب الأوضاع الاقتصادية السيئة فى الورش والمصانع الصغيرة فى أمريكا ، ولكن هذا الجيل أصبح مسنًا أو فارق الحياة ، وجاءت أجيال جديدة اندمجت فى الحياة الأمريكية ، و لم تعرف شيئًا عن القضايا التى ضحى الآباء من أجلها ، ولكنها ولدت فى ظروف أفضل حيث رغد العيش والحياة المريحة التى يصبح فيها النضال ضربًا من العبث الذى يولد السخرية ، ومن هنا فإن هذه الأجيال لم تعرف شيئًا عن اليديشية أو الاشتراكية وإنما كانت تعرف ما تراه ماثلاً أمام أنظارها: الحياة الأمريكية .. والرأسمالية .

ومع ذلك لم يكن الحزب الديمقراطى متناقضًا تمامًا مع الحزب الاشتراكى ، بل كان ينادى ببعض أفكاره التقدمية وآرائه فى العدالة الاجتماعية ، ولذلك عندما تقدم آل سميث ليرشح نفسه للرئاسة عن هذا الحزب تبنى قضايا العدالة الاجتماعية وأيده اليهود حيث حصل على ٧٢ فى المائة من أصواتهم ، وعلى الرغم من عدم فوزه استمر اليهود فى تأييد كل من يمثل مصالحهم ، وكان المرشح التالى عن الحزب الديمقراطى هو فرانكلين روزفلت "عام ١٩٣١" ، وكان ينادى بالتغلب على آثار الكساد الكبير الذى عانت منه الولايات المتحدة وقد فاز بالرئاسة ، وحصل على ٨٢ فى المائة من أصوات اليهود .

وعندما جاء عام ١٩٤٤ أصبح اليهود أفضل الأقليات الأمريكية التى تحقق تقدمًا اقتصاديًا ، وكانوا من بين من يحصلون على أعلى الأجور ، كما قطعوا شوطًا واسعًا فى التعليم ، وفى تقلد المناصب العامة ، ويلاحظ أيضًا أن اليهود هم المجموعة الدينية والعرقية الوحيدة التى لا يتباين أعضاؤها كثيرًا عند التصويت على مرشح ، فعلى سبيل المثال كان البروتستانت الفقراء أو غير المتعلمين يصوتون لصالح الحزب الديمقراطى

والأغنياء منهم لصالح الحزب الجمهورى ، بينما يكاد يجمع اليهود بكل شرائحهم تقريبًا على مرشح واحد يرون أنه يعمل لمصلحتهم .

وقد ساعدت الحرب العالمية الثانية على انفتاح اليهود على مجتمعهم الأمريكى الجديد والاندماج فيه ، بل والاشتراك فى الحرب كجنود فى قواته ، وبدأت اللغة اليديشية تنذوى وتحل الإنجليزية بدلاً منها ، كما ترك اليهود المستوطنات المنعزلة المتغلقة عليهم ، وبدءوا فى العيش فى المدن بعد تحسن أحوالهم الاقتصادية ، بينما كونت الأجيال الجديدة أصدقاء ومعارف جددًا من مختلف الجنسيات والأفكار والآراء.

وبلغ معدل الموظفين اليهود من الذكور ضعف معدل زملائهم من الأمريكيين ، وبلغ عدد الطلبة اليهود الذين التحقوا بالكليات والمعاهد العليا بعد انتهاء الحرب مائتى ألف ، وارتفع هذا الرقم عام ١٩٦٠ إلى ثلاثة أرباع المليون ، وتشير الإحصائيات إلى أن ٧٥ فى المائة من اليهود الذين بلغوا سن التعليم الجامعى يدرسون بالجامعات بالفعل.

ومع ذلك لم تكن حياة اليهود خلال هذه الفترة شهر عسل خالص ، بل كانت تعترضها المتاعب والمشكلات من آن لآخر ، فالثروة لم تصب جميع اليهود ، وظل بعضهم يعانى من الفقر المدقع ، وتحول بعضهم إلى لصوص ومجرمين وعاهرات، ومن ناحية أخرى كانت تسود أحيانًا مشاعر معاداة السامية التى تتهم اليهود بالإثراء على حساب الاقتصاد الأمريكى ، وعلى سبيل المثال اتهم رجال أعمال كبار مثل هنرى فورد اليهود بالمضاربة والاحتكار مما أدى إلى حدوث الكساد الكبير فى الثلاثينيات ، وبأنهم يدفعون البلاد إلى شفا حرب لا ضرورة لها من أجل إنقاذ اليهود الآخرين .

وقد بلغ خوف المسيحيين الأمريكيين من تعاظم القوة الاقتصادية لليهود درجة أن مجلة "فورتشن" الاقتصادية الشهيرة كتبت مقالاً فى فبراير عام ١٩٣٦ تحاول فيه بث مشاعر الاطمئنان فى النفوس ، وأشارت فيه إلى أن معظم اليهود الذين بلغ تعدادهم فى ذلك الوقت ٤,٥ مليون هم من العمال وليسوا من طبقة الملاك أو المديرين .

وفى مرحلة التطور اليهودى فى أمريكا ، بدأ الحاخامات يظهرون فعندما وصلت طلائع الهجرة اليهودية إلى العالم الجديد لم يكن معها حاخامات ، وبالتالى كان لليهود حرية تفسير العهد القديم ليتماشى مع المجتمع الجديد الذى يعيشون فيه ، وظهرت الموجة العلمانية ، كما انتشرت الحركات اليسارية بين اليهود ، ولكن بعد استقرار اليهود وتسلقهم سطح المجتمع الأمريكى ، عادت من جديد التيارات المحافظة ، فإذا كان اليهود قد سمحوا لأنفسهم بالتنازل عن جزء من معتقداهم وهويتهم اليهودية ممالأة للمجتمع الجديد حتى يستطيعون البقاء والاستمرار : "فما الحاجة الآن لمثل هذا التنازل وقد بلغت بهم القوة مداها؟" .

كان الهدف فى هذه المرحلة بناء العديد من المعابد اليهودية ، ونشرها فى كل مكان، والتمويل جاهز ويسير .

أصبح هناك جيل تال من اليهود ، بدأ التحول فيه واضحًا صوب اليمين المحافظ ، لم يعد هناك وقت أو حماس لتبادل الأفكار ، وقضاء الليل فى النقاش ، بل بات هذا الجيل أكثر استعدادًا لتلقى الأفكار الجاهزة التى يلقيها إليهم الأحبار ، فلم يعد هناك عالم جديد ، و لم يعد هناك قيصر يسومهم سوء العذاب ، بل صار هناك العمل والنجاح والثروة ، ثم تشكلت منظمات يهودية عديدة لتسيطر على عالم اليهود فى أمريكا ، وتملى عليهم الآراء والمعتقدات وخطط العمل .

اليهود إذن قوة جديدة صاعدة فى الولايات المتحدة ، تحتكر الثروة والنفوذ وتضم بضع عائلات ، وتنشر الصحف ما تقول هذه العائلات ويصغى البيت الأبيض لما همس به ، و لم يتوقف أحد ليسأل : من تمثل هذه العائلات حقيقة ؟.

## محرقة هتلر

مما لا شك فيه أن عملية الإبادة التى شنها أدولف هتلر – الزعيم النازى الألمانى – أثناء الحرب العالمية الثانية ضد اليهود ، قد تركت آثارًا لا تمحى فى الوجدان اليهودى، فقد قضى هتلر على ستة ملايين يهودى أو ثلث تعداد اليهود فى العالم .

والسؤال الذى يطرح نفسه وقتذاك وبعد ذلك : أين كان اليهود الأمريكيون فى تلك الحين؟ . وما الذى فعلوه لإنقاذ بنى جلدتهم ؟.

انقسم اليهود على أنفسهم إزاء محرقة هتلر ، ولم يعرفوا ماذا يفعلون ، بعضهم فضل توجيه النداءات العلنية ، والآخر ممارسة الضغوط من وراء الكواليس ، بينما رأى البعض أن الحل الوحيد هو إقامة وطن لليهود فى فلسطين ، يقيم فيه اليهود الذين تعرضوا للاضطهاد فى أوربا ، ولم يفكر أحد على الإطلاق وقتذاك فى إنقاذ اليهود الذين يتعرضون للإبادة فى أفران الغاز النازية بنقلهم إلى الولايات المتحدة ، فقد كانت هناك مخاوف من أن يؤدى تدفق هجرة هؤلاء اليهود إلى إثارة مشاعر معاداة السامية فى أمريكا ، ويوضح ذلك أن زعماء الجماعات اليهودية فى الولايات المتحدة لم يؤيدوا مشروع قانون يسمح بتهجير ٢٠ ألف طفل يهودى ألمانى على الرغم من تأييد عدد من الأمريكيين أنفسهم .

ويبدو أن أحدًا فى ذلك الوقت لم يكن يرغب فى مزيد من اليهود ، سواء الولايات المتحدة أو أية دولة غربية أخرى ، وإن كانت جمهورية الدومينيكان قد أبدت استعدادها لقبول جماعات صغيرة من اليهود البيض ، وكان الهدف من ذلك معادلة تزايد عدد السود فى هذه الدولة ، بل إن الخارجية الأمريكية ظلت فترة طويلة تلتزم الصمت إزاء أحداث المحرقة .

ورغم انقسام اليهود الأمريكيين على أنفسهم وعدم اتخاذهم موقفًا موحدًا إزاء إعدام ملايين اليهود على يد هتلر ، إلا أن بعض الهيئات واللجان تشكلت بغرض إنقاذ اليهود وجمع الأموال اللازمة لذلك ، ومنها "لجنة الطوارئ" التى نظمت مظاهرات عديدة ، ونشرت إعلانات بالصحف تدين عمليات الإبادة ، ومارست الضغط هنا وهناك .

ولكن مثل هذه اللجان كانت تقابل بالهجوم والصد من جانب الحركة الصهيونية ، التى كانت ترى أن هذه الأعمال التى تؤدى فى النهاية إلى إنقاذ اليهود من شأنها أن تخدر الرأى العام اليهودى والعالمى، وكانت وجهة نظر الحركة الصهيونية تتمثل فى أنه

ينبغى ترك هتلر يقتل اليهود حتى يدرك العالم كله أن الحل الوحيد لإنقاذ اليهود هو إقامة وطن لهم فى فلسطين .

وأعلنت الحركة أن إنقاذ اليهود ليس مهمتنا ، وإنما هدفنا هو فلسطين، ومع ذلك كانت الحركة الصهيونية توخى بإنقاذ الشباب وصغار السن من اليهود ، لأنها كانت تريد هذه الشريحة من العمر للاستيطان فى فلسطين وتكوين نواة الدولة هناك ، حيث أن الشيوخ والكهول لن يفيدوا الدولة الجديدة بشىء لأنهم أحوج إلى الرعاية والعناية، ولم يكن الهدف إذن إنقاذ روح إنسان بقدر إنقاذ أداة تحقق الأهداف والمخططات .

ويقول يورى أفنيرى - وهو نائب سابق بالكنيست - إن اهتمام الحركة الصهيونية وقت وقوع المحرقة لم يكن موجهًا إلى اليهود بالمرة بل إلى إقامة دولة فلسطينية، كما أن اليهود الصهاينة الذين استوطنوا فلسطين لم يتعاطفوا إطلاقًا مع بنى جلدتهم الذين يلقون حتفهم كل يوم بالآلاف ، بل كانوا يذهبون إلى دور السينما للترفيه عن أنفسهم فى الوقت الذى كان اليهود فى أوربا يساقون إلى أفران الموت .

## الصهيونية تتحرك

وبدأت الحركة الصهيونية تنظم صفوفها ، وقد رأت أن الإبادة التى يشنها هتلر ضد اليهود فرصة ملائمة للمطالبة بأرض فلسطين لتكون ملاذًا يضم يهود العالم المضطهدين ، واجتمع الزعيم الصهيونى الشهير حاييم وايزمان مع الرئيس الأمريكى وقتذاك روزفلت ، الذى وعده بمحاولة التوفيق بين اليهود والعرب بعد انتهاء الحرب العالمية .

وحاول روزفلت أن يرتب لقاء بين وايزمان وبين الملك عبد العزيز آل سعود الذى أعلن أنه لن يستطيع التحدث نيابة عن الفلسطينيين ، كما أنه لا يملك سلطة التنازل عن أراضيهم ، واقترح بدلاً من ذلك توزيع اللاجئين اليهود - على شكل حصص - على الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة .

وكانت هذه مشكلة كبيرة ، أين يذهب اليهود الفارون من بطش هتلر ؟.

وإذا كانت الولايات المتحدة ترفض قبولهم فهى لا تستطيع أن تضغط على الدول الأخرى لقبول ما ترفضه هى ، وإن كان روزفلت قد أصدر أمرًا بقبول ألف لاجئ يهودى فقط بنيويورك على أن يكون ذلك بشكل مؤقت، وحتى هذه البادرة الضئيلة الأثر من جانب روزفلت أغضبت الصهاينة ، فهم – كما قلنا – لا يريدون أى حل يضعف من تأثير المحرقة ، لأن الحل الوحيد فى نظرهم هو الحصول على فلسطين .

وعلى الرغم من العداء العلنى الذى كانت الحركة الصهيونية لا تفتأ تظهره حيال النازية، إلا أن الوثائق تكشف العروض السرية التى تقدم بها الصهاينة للتعاون مع ألمانيا النازية ، فتشير الوثائق إلى أن منظمة "أرجون" الصهيونية الإرهابية والتى كان إسحق شامير رئيس الوزراء الإسرائيلى الحالى أحد زعمائها – قد أجرت اتصالات سرية مع النظام النازى عن طريق الملحق البحرى الألمانى بسفارة ألمانيا لدى تركيا ، الذى قام بدوره بتحويل العرض الذى تقدمت به منظمة "أرجون" إلى الحكومة الألمانية .



توحد اليهود بالنازية " فبرك " الغول الصهيونى

ويتلخص هذا العرض فى أن أهداف المنظمة الإرهابية تتماثل مع أهداف حكومة الرايخ الألمانية فيما يتعلق بضرورة إجلاء اليهود عن أوربا كخطوة على طريق إقامة نظام جديد هناك ، وأن هذا الإجلاء لا يمكن أن يتحقق إلا بتهجير يهود أوربا إلى فلسطين .. وبالتالى فيمكن تحقيق تعاون بين اليهود وألمانيا فى هذا الصدد ، وهو التعاون الذى سيستمر بعد إقامة الدولة اليهودية ، ويمكن إقامة معاهدة بين إسرائيل والدولة الألمانية بشكل يدعم مصالح ألمانيا فى الشرق الأوسط ، وتبدى منظمة "أرجون" استعدادها لمساعدة ألمانيا فى العمليات الحربية أثناء الحرب العالمية الثانية شريطة أن توافق على هذا العرض .

وكان الرد الألمانى على هذا العرض الإهمال التام ، فقد كان هتلر يدرك أن القوة العسكرية للأرجون لا تذكر ولا نفع منها .

فى البداية لم تجد الصهيونية نصيرًا قويًا بين اليهود الأمريكيين ، فكما أشرنا من قبل كانت حركات اليسار تستهويهم ، وهى تقوم أساسًا على الأممية وعدم التمييز بين اليهود والأغيار ، فالمحك هنا هو الصراع الطبقى ، وكان الخط الذى ينتظمهم هو الوضع الطبقى وليس الدين ، ولكن بتحول اليهود إلى اليمين مع الرواج الاقتصادى ، وضعف حركات اليسار فى أمريكا ، أصبح الدين هو الخيط الجديد ، وهنا وجدت الصهيونية لها مزيدًا من الأتباع والمؤيدين .

وبعد الحرب العالمية الثانية انضم اليهود إلى الحركة الصهيونية بالآلاف وتبرعوا لها بالملايين ، وقد جعلت المحرقة من الصهيونية الحركة الوحيدة القادرة على توحيد اليهود تحت لوائها ، وقد أشارت استطلاعات الرأى العام التى أجريت وقتذاك إلى أن ٨٠ فى المائة من اليهود الأمريكيين أصبحوا يؤيدون فكرة إقامة دولة يهودية فى فلسطين .

كان عدد اليهود الذين ظلوا على قيد الحياة فى أوربا بعد الحرب العالمية الثانية نصف مليون فقط، وإذا كانت الولايات المتحدة قد قبلتهم كلاجئين وقتذاك – وهى لا شك كانت قادرة على ذلك – أو توزعوا على عدة دول أخرى ، لما كانت هناك أزمة الشرق الأوسط الموجودة حاليًا ، ولكان ثمن قبولهم كلاجئين فى أمريكا تافهًا لا

يذكر بالمقارنة بالخسائر البشرية التى فقدت فى منطقة الشرق الأوسط ، وبالمعونات العسكرية الهائلة التى قدمت لإسرائيل ، وبأزمات البترول التى أثرت فى اقتصاديات العالم ، وبالاستتراف السياسى والاقتصادى لدول المنطقة التى تنتمى للعالم الثالث ، ولو تم حل المسألة اليهودية فى إطار الهجرة إلى أمريكا ودول أخرى تستطيع استيعابهم لما كان هناك حاجة إلى طرد مئات الآلاف من العرب لإيجاد مكان لمئات الآلاف من اليهود الذين لا يجدون المأوى .

وقد نقل المهاجرون اليهود من أراض كانوا يواجهون فيها خطر الفناء إلى أراضى أخرى واجهوا فيها هذا الخطر مرة أخرى، و لم يكن هذا بذى بال بالنسبة للصهيونية التى كانت تريد اليهود لأنه لا يمكن الاحتفاظ بأرض دون بشر يقيمون عليها ، وقد رحب الأمريكيون بذلك لأنهم وجدوا فيه حلاً لمشكلة شائكة تؤرقهم ، وهم ليسوا على استعداد لحلها على حسابهم ، لأنهم لا يريدون أن يأتى المهاجرون إليهم .

## عام الانتخابات

لحسن حظ الحركة الصهيونية كان عام ١٩٤٨ الذى كان مقررًا أن يعلنوا فيه قيام إسرائيل عام الانتخابات الأمريكية ، كان الرئيس الأمريكى هارى ترومان يعتزم ترشيح نفسه لفترة ثانية ، فى البداية لم يكن متحمسًا لفكرة إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين ، ولكن الضغط اليهودى دفع الكونجرس إلى إصدار قرارات تحث البيت الأبيض على المساعدة فى تحقيق الحلم اليهودى بإقامة دولة .

وحذر المستشارون ترومان من أنه إذا لم يؤيد هذه الفكرة فسوف يخسر ولاية نيويورك حيث تتركز الأصوات اليهودية ، وقبل يوم الانتخابات بشهر انتهز الرئيس الأمريكى مناسبة احتفال اليهود بعيد الغفران وأصدر بيانًا يؤيد فيه الهجرة إلى فلسطين مع إقامة دولة لهم هناك ، وذلك على الرغم من تحذير وزارة الخارجية من أن ذلك سيجعله يخسر أصدقاءه فى الشرق الأوسط .

غير أن هارى ترومان كان سياسيًا عمليًا يدرك جيدًا ما الذى يحقق مصالحه ، وإذ كان للمسألة اليهودية وجهان ، وإذا كان يتعين عليه أن ينصت أيضًا للجانب العربى ، فإنه كان يعلم أن الأصوات اليهودية تمثل ٦٥ فى المائة من أصوات ولايات نيويورك وبنسلفانيا والينوى ، وهى ولايات كبيرة التعداد وبالتالى فهى ممثلة بمائة وعشرة أصوات فى المجمع الانتخابى ، أى أن الطريق إلى البيت الأبيض يمر أولاً عبر هذه المحطات ، وفى نفس الوقت ليس للعرب أصوات انتخابية فى أمريكا تساعده على الفوز بمنصب الرئاسة ، كما ليس لهم نفوذ أو جماعات ضغط ، ومن هنا فلم يكن أمامه الكثير ليخسره إذا أعلن أنه فى صف الدولة اليهودية .

كان الاعتراض الوحيد يأتى من جانب وزارتى الخارجية والدفاع ، فكانتا تريان أن من مصلحة واشنطن التحالف مع العرب وليس مع اليهود وذلك بهدف تأمين إمدادات البترول الحيوية للعالم الغربى ، وإبعاد النفوذ السوفيتى عن منطقة الشرق الأوسط.

وقد كافأ اليهود ترومان بأن منحوه ٧٥ فى المائة من أصواهم ، وهنا يتوقف المرء ليتساءل ما هو الحال الذى ستكون عليه إسرائيل إذا لم يكن عام ١٩٤٨ عام الانتخابات الأمريكية؟

وقد أصبحت الصهيونية هي الدين الجديد ليهود أمريكا ،وباتت إسرائيل الإله الجديد ، ومن ثم شعر هؤلاء أن على الفلسطينيين أن يتركوا ديارهم لليهود ، على الرغم من أهم ما كانوا ليسمحوا بتاتًا لأحد بأن يطرح فكرة أن يعود الهنود الحمر ليحصلوا على أراضيهم .

و لم يشعر الأمريكيون بتأنيب الضمير وهم يسمعون أنباء المذابح التى ارتكبها الإسرائيليون ضد العرب فى دير ياسين وحيفا ، واغتيال اللورد موين وزير الدولة البريطانى واغتيال الكونت برنادوت مبعوث الأمم المتحدة للسلام فى المنطقة ، وعمليات التخريب وتدمير القرى العربية وطرد سكانها .

ولعل ديفيد بن جوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل هو أكثر الشخصيات الإسرائيلية فهمًا لما عاناه العرب . ولذلك صرح ذات مرة قائلاً "لماذا ينبغي على العرب التوصل إلى السلام؟ . وإذا قدر لى أن أكون زعيماً عربيًا ما كنت أتصالح مع إسرائيل على الإطلاق ، هذا أمر طبيعى ؛ فنحن قد استولينا على بلدهم ، حقيقة أن الله وعدنا بها ، ولكن ذلك لا يعنيهم فى شيء ، فديننا غير دينهم ، ونحن انحدرنا من إسرائيل حقيقة ، ولكن كان ذلك منذ ألفى عام ، وذلك أيضًا لا يعنى لهم شيئًا، لقد كانت هناك معاداة السامية ، ومعسكرات الاعتقال النازية ، ولكن ذلك ليس ذنبهم وهم لا يرون إلا شيئًا واحدًا هو أننا جئنا إلى هنا وسرقنا بلدهم ، فلماذا ينبغى عليهم قبول هذه الحقيقة ؟".

## الأصوات اليهودية تسيطر

خرج اليهود الأمريكيون من انتخابات عام ١٩٤٨ أكثر قوة وثقة فى تأثيرهم على اختيار الرجل الذى سيدخل البيت الأبيض ، ففى انتخابات عام ١٩٥٢ ساعدوا على فوز المرشح الجمهورى دوايت إيزنهاور ، وأيضًا على إعادة انتخابه عام ١٩٥٦ .

وعلى الرغم من أن الأصوات اليهودية كانت تذهب فى الغالب إلى الحزب الجمهورى إلا أن الأمر اختلف فى انتخابات عام ١٩٦٠ ، فقد أيد اليهود المرشح الديمقراطى جون كيندى الذى حصل على ٨٢% من الأصوات اليهودية ، ويرجع السبب فى هذا التحول إلى أن منافس كيندى كان ريتشارد نيكسون والذى أثار استياء اليهود أثناء حملة انتخابية سابقة للترشيح بمجلس الشيوخ ، فقد هاجم منافسه اليهودى على أسس دينية .

واستمر هذا النموذج فى انتخابات عام ١٩٦٤، فقد ساعدت الأصوات اليهودية على فوز المرشح الديمقراطى ليندون جونسون – الذى أكمل فترة كيندى بعد اغتياله حيث كان نائبه – وحصل جونسون على ٩٠ فى المائة من أصوات اليهود ، ويرجع السبب فى هذا التأييد اليهودى إلى أن المرشح الجمهورى المنافس كان بارى جولد

وورتر أحد غلاة المحافظين المتشددين ،وكانت سياساته لا تنسجم مع اليهود فى ذلـــك الوقت وإن كانت هذه السياسات لا تختلف كثيرًا عن سياسات رونالد ريجان الرئيــس الجمهورى الذى وصل بعد ذلك إلى البيت الأبيض والذى أيده اليهود بشدة .

وعندما جاءت انتخابات عام ١٩٦٨ كان المرشح القوى هو ريتشارد نيكســـون الذى أراد أن يجرب حظه مرة ثانية بعد هزيمته السابقة أمام كينيدى ، وقـــد حـــاول نيكسون أن يتودد إلى اليهود وأن يبدد مشاعر الاستياء إزاءه ، واستطاع الحصول على بعض الأصوات اليهودية لأنه كان يؤيد فى البداية حرب فيتنام ، وكان يهود أمريكـــا يؤيدون هذه الحرب لأنهم كانوا يخشون من أن تخلّى واشنطن عن فيتنام يمكن أن يعـــنى تخليها عن إسرائيل، ومع ذلك فاز نيكسون على منافسه الديمقراطى هيوبرت همفـــرى بفارق ضئيل نسبته ٠,٧ فى المائة .

وفى انتخابات عام ١٩٧٢ فاز نيكسون ولكن هذه المرة بفارق كبير من الأصوات، لأن منافسه الديمقراطى جورج ماكجفرن كان يمثل تيارًا أفل نجمه من زمـــن وهـــو اليسار الجديد ، فاليهود قد رأوا أن اليمين هو الجواد الرابح فى العالم الجديد ، كمـا أن الخلاف بين رؤية ومصالح اليهود وبين رؤية اليسار أخذت رقعته فى الاتساع والتباين ، ووصل الخلاف إلى ذروته بقيام دولة إسرائيل ، فقد اتخذ اليســـار موقـــف الانتقـــاد والهجوم من الدول اليهودية ، ولكن الانفصال بينهما تأخر كثيرًا ، فقد حدث بعـــد حرب أكتوبر ١٩٧٣ حيث فض اليهود أياديهم من اليسار تمامًـــا واتجـــهوا صـــوب اليمين، فقد كان اليسار معاديا للصهيونية ولإسرائيل ، وتشير نتائج انتخابـــات عـــام ١٩٧٢ إلى أن الأصوات اليهودية التى ذهبت لصالح مـــاكجفرن كـــانت تمثـــل أدنى الأصوات على الإطلاق التى تذهب لمرشح ديمقراطى .

ولعل أحد العوامل الهامة التى ساعدت على نجاح نيكسون بفارق كبير هو تـــأييد الحكومة الإسرائيلية له ، فعلى الرغم من أن إسرائيل دائما ما تحتج علـــى محـــاولات واشنطن التدخل فى شئونها الداخلية، إلا أنها لا تخجل من التدخل فى الشئون الداخليـــة الأمريكية ، فقد أعلنت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل وقتذاك أنها تفضل المرشـــح

الجمهورى نيكسون ، كما أن إسحق رابين – سفير إسرائيل فى واشنطن – كان يتجول فى حفلات الكوكتيل المقامة فى واشنطن لإجراء الدعاية الانتخابية لصالح نيكسون.

وكان الوضع فى انتخابات عام ١٩٧٢ غريبًا ، فقد كان جيمى كارتر سياسيًا مغموراً لا يلفت الأنظار ، ولم يراهن اليهود عليه، وفضلوا أن يرشح الحزب بدلاً منه هنرى جاكسون ، وكان كارتر يدرك ذلك ، وصرح ذات مرة قائلاً : "إننى لن أحصل سوى على أربعة فى المائة من أصوات اليهود ، وهذا لا يهمنى ، فسوف أحصل على أصوات المسيحيين" .

وبدأ نجم كارتر فى الصعود بسبب عوامل فى السياسة الداخلية الأمريكية فقد بدأ كرجل نظيف بعد فضيحة ووترجيت التى هزت المجتمع الأمريكى بأسره ، وكلما صعد كارتر درجة زادت شهيته لمزيد من الأصوات ، وأدرك أنه بحاجة إلى الأصوات اليهودية ليصل إلى قمة السباق، ففى هذه المنافسات الحادة قد يصبح الصوت الواحد بالغ الأهمية ، وتحول كارتر ليؤيد إسرائيل علنًا وليعد بتقديم المساعدات اللازمة لها، وفاز كارتر بترشيح الحزب، ثم فاز على المرشح الجمهورى جيرالد فورد ، وقد فاز كارتر بنسبة ٦٨٪ من أصوات اليهود ، وقد كتب الصحفى اليهودى بول ابرامز بعد فوزه يقول : "إن الرئيس الجديد مدين بفوزه لليهود، ولن نسمح له بأن ينسى ذلك" وقد تحقق ذلك ، فأعلن كارتر ذات مرة: "إننى ضد إقامة دولة فلسطينية مستقلة"، وعندما قابل اندرويانج مندوب أمريكا الدائم لدى الأمم المتحدة زهدى الطرزى مراقب منظمة التحرير الفلسطينية لدى الأمم المتحدة، احتجت إسرائيل لدى واشنطن، وقالت : إن يانج انتهك التعهد الأمريكى بعدم التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وأسفر ذلك الاحتجاج عن استقالة المندوب الأمريكى .

ولكن كارتر وقع فى خطأ جسيم أغضب اليهود . إذ صوتت واشنطن لأول مرة داخل مجلس الأمن لصالح مشروع قرار يدين سياسة الاستيطان الإسرائيلية ، وكان من الطبيعى أن ينقلب عليه اليهود فى انتخابات عام ١٩٨٠ ليؤيدوا المرشح الجمهورى

رونالد ريجان ، الذى أعرب عن تأييده لإسرائيل ليس لأسباب أخلاقية ولكن لأنها تمثل رصيدًا استراتيجيًا فى حربه ضد الشيوعية ، وقد أرضى هذا اليهود ، لأن الضرورة الاستراتيجية أكثر أهمية وقوة من مجرد الوازع الأخلاقى حيث أن المسائل الأخلاقية نسبية ، فكما يمكن تأييد اليهود لأسباب أخلاقية يمكن أيضًا التحول لتأييد العرب لنفس هذه الأسباب ، أما الضرورة الاستراتيجية فأكثر أهمية وقوة لأنها نابعة عن مصلحة مشتركة ومع ذلك نسى ريجان أن العرب أيضًا يمثلون رصيدًا استراتيجيًا ، فإنهم يمتلكون البترول .

وإذا كانت الانتخابات الأمريكية تشير إلى قوة وتأثير الأصوات اليهودية على مسارها ، فإن ذلك لا يرجع إلى كثرة تعداد اليهود فى الولايات المتحدة ، لأنهم يمثلون ثلاثة فى المائة فقط من تعداد السكان، ولكن قوة اليهود الانتخابية ترجع إلى نظام الانتخابات الأمريكى ذاته ، فالرئيس الأمريكى لا ينتخب مباشرة من جانب جماهير الناخبين ، إنما ينتخب عن طريق ما يسمى **"بالمجمع الانتخابى"** الذى يتكون من ممثلين عن الولايات حسب حجمها السكانى، وكلما فاز الرئيس بأصوات الولايات الكبيرة زاد رصيده فى المجمع الانتخابى ، وتشير الإحصائيات إلى أن ٨٥ فى المائة من اليهود الأمريكيين يعيشون فى تسع ولايات معظمها تتمتع بأكبر عدد من الممثلين فى المجمع الانتخابى ، ولذلك يعارض اليهود بشدة إلغاء نظام الانتخابات الحالى ، لأن الانتخاب المباشر للرئيس سيفقد الأصوات اليهودية قيمتها .

## بين اليهود والزنوج

"ليس هنا .. وليس حاليًا .. يتعرض اليهود للذبح .. ولم ير اليهود وجه الاحتقار هنا قط مثلما الحال مع الزنجى .. والسبب فى ذلك أن اليهودى يعامل كمواطن أمريكى ، والاضطهاد اليهودى حدث عبر المحيط، وأنقذته أمريكا من بيت العبودية ، ولكن أمريكا هى بيت العبودية بالنسبة للزنجى وليس فى مقدور أية دولة أن تنقذه منه".

هذه هى كلمات الأديب الزنجى الأمريكى الشهير جيمس بولدوين ، وعلى إيجازها مما تعبر بوضوح ، وبمرارة أيضا عن العلاقة بين اليهود والزنوج فى أمريكا ، وعلى الرغم من أن اليهود الأمريكيين هم الطائفة العرقية الوحيدة من البيض فى الولايات المتحدة التى تعرضت لآلام ومعاناة واضطهاد مثلما تعرض الزنوج ، إلا أنهم ليسوا متعاطفين مع التجربة الزنجية ، بل لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا أن اليهود كانوا دائما يتعاطفون مع ملاك العبيد قبل أن يلغى نظام الرق .

والزنوج هم المجموعة المهاجرة الوحيدة فى الولايات المتحدة التى لم تصل إلى العالم الجديد طواعية أو فرارا من بطش أو طمعا فى مغنم ، بل جاءوا مقيدين بالسلاسل مكبلين بالأغلال ، والزنوج هم أيضا المجموعة المهاجرة الوحيدة التى لم تستطع الاندماج فى المجتمع الأمريكى على الرغم من أنهم يتحدثون الإنجليزية ، ويعتنقون المسيحية ، ويتخذون الأسماء الأمريكية ، ويرتدون الملابس والأزياء الغربية ، فهم جاءوا أساسا لخدمة السادة البيض ، ولا أحد ينسى ذلك بعكس اليهود الذين استطاعوا إقامة علاقات متوازنة مع الأمريكيين ، وتمكنوا من الاندماج رغم اختلاف الدين ، فاليهودى يمكن أن يصبح أمريكيا فى الشارع ويهوديا فى المترل ، أما الزنجى فهو كذلك فى كل مكان .

ومن الناحية التاريخية لم تتسم أبدا العلاقات بين اليهود والزنوج بالمساواة ، فاليهود كانوا التجار والسادة ، بينما كان الزنوج العبيد والخدم ، كما عمل اليهود لفترات طويلة فى تجارة الرق وكونوا منها ثروات هائلة ، كما أن اليهود الذين وصلوا إلى أمريكا كانوا من البيض ، وهذا فى حد ذاته جعلهم يتمتعون بوضع اجتماعى أفضل بكثير من الزنوج الذين قوبلوا باحتقار لسواد بشرهم .

وتشير سجلات التاريخ الأمريكى إلى البشاعة التى عومل بها الزنوج، فقد تعرضوا للجلد والقتل والاغتصاب والعمل الشاق دون أجر ، وخلال الفترة بين ١٨٨٩ — ١٩١٨ تم محاكمة ربع مليون زنجى محاكمات صورية عاجلة فى المزارع ونفذت

الأحكام دون الرجوع إلى المحاكم الرسمية ، وخلال نفس الفترة تعرض يهودى واحد فقط لمثل هذه النوعية من المحاكمات .

ونتيجة لذلك ظهر فارق واسع بين الطائفتين فى الولايات المتحدة ، وحتى بعد تحرير العبيد لم يستطع الزنوج التقدم بخطى واسعة . ولم يكن هناك وظائف خالية أمامهم سوى الخدمة والأعمال اليدوية القاسية ، وبالتالى كانت أجورهم ضئيلة ومعدلات وفياتهم كبيرة ، ولم يكن لديهم قيادات تمد لهم يد المساعدة ، وتفسح لهم الطريق مثلما هو الحال مع اليهود ، كما لم يكن معهم رأسمال يبدءون به مشروعات صغيرة ، ولم يكن هناك زنوج فى أوربا يمدونهم بالأموال أو المساعدة كما حدث مع اليهود ، بل كان عليهم أن يبدءوا الطريق الطويل والشاق من نقطة الصفر .

ومن الطبيعى أن يحدث الاحتكاك والتوتر بين هاتين الطائفتين - الأولى وهى اليهود استطاعت التكيف مع مجتمعها الجديد وتبنت قيمه وتقاليده ، والأخرى الزنوج تعرضت للكراهية والاحتقار من هذا المجتمع الذى لفظها ورفض أن يضمها إلى صفوفه، وحدثت أول مواجهة بينهما بعد الحرب العالمية الأولى عندما كان اليهود يتركون منازلهم الحقيرة للانتقال إلى أحياء أرقى ، بينما كان الزنوج يتحركون نحو الشمال سعيا وراء أماكن أفضل ليرثوا ما تركه اليهود ، وكانت المواجهة هنا معنوية ، تبين تدنى الزنوج بالنسبة لليهود ، وسرعان ما وجد الزنوج أنفسهم يقيمون فى مساكن ملاكها من اليهود ، وإذا توجهوا لابتياع حاجياهم كان أصحاب المتاجر أيضا من اليهود .

وعندما جاء الكساد الكبير فى الثلاثينيات ساءت أحوال الزنوج ، واضطرت النساء إلى التوجه فى الثامنة من صباح كل يوم إلى "سوق برونكس" والانتظار تحت الأمطار شتاء أو تحت لفحة الشمس صيفا على أمل أن يأتى أحد ليستأجرهن للعمل كخادمات نظير ٢٠ بنسا فى الساعة، وكانت معظم البيوت التى تعمل فيها الزنجيات لليهود ، وأدى تفوق وسيادة العنصر اليهودى إلى تفجير مشاعر الكراهية أو معاداة

السامية لدى الزنوج ، خاصة بعد ما تعرض له هؤلاء من استغلال على أيدى أصحاب المتاجر والمزارع والرؤساء من اليهود .

## حركة الحقوق المدنية

فى السابع من مايو ١٩٥٤ أصدرت المحكمة العليا الأمريكية حكمًا يقضى بعدم دستورية التفرقة العنصرية فى المدارس ، فقد كان البيض يحظرون على الزنوج إرسال أطفالهم إلى مدارسهم ، وأقاموا لهم مدارس خاصة فى أحيائهم الفقيرة ، ولكن هذا الحكم أيقظ فى الزنوج مشاعر الوعى بحقوقهم ، ولعل هذا التاريخ يعد بداية حركة الحقوق المدنية للزنوج بزعامة مارتن لوثر كينج .

وشهدت فترة الستينيات حركات احتجاج ساخنة ،ومظاهرات عنيفة ، من جانب الزنوج ، كما حدثت اشتباكات عديدة بينهم وبين قوات الأمن ، وبدأ الزنوج يتحدون التفرقة العنصرية ، ولا يعترفون بالمطاعم والمدارس والكنائس والمتاجر والمواصلات العامة المخصصة للبيض فقط .

وكانت إسرائيل من أقوى أسباب الشقاق بين اليهود وحركة تحرر الزنجية ، لأن الزنوج كانوا يتعاطفون بشكل عام مع غير البيض ، وهم العرب فى هذه الحالة، وبالتالى أدان الزنوج استيلاء إسرائيل على الأراضى العربية بعد حرب ١٩٦٧ وهو ما أزعج اليهود الأمريكيين الذين يرون فى إسرائيل أحد مصادر القوة لهم ومن هنا فإن الخلاف اليهودى الزنجى امتد من شن الصراع على قضايا داخلية إلى النزاع على مسائل خارجية .

وتزايدت مشاعر الشك والخوف بين الطائفتين ، واشتد الصراع على الوظائف ، فاليهود كانوا يخشون على وظائفهم من الزنوج الذين بدءوا يتعلمون ويرتقون درج المجتمع ببطء ولكن بصلابة ، وكان الصراع على أشده بين الطبقات الوسطى والدنيا . وهى المكانة التى يمكن أن تصل إليها المنافسة الزنجية .

وتفجر الخلاف بينهما مرة أخرى فى أعقاب حرب ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل ، حيث ناصر الزنوج العرب ، بينما ناصر اليهود إسرائيل ، ثم عاد وتفجر ثانية فى أعقاب أزمة اندرويانج مندوب الولايات المتحدة الدائم لدى الأمم المتحدة "عام ١٩٧٩" فقد حدث أن اجتمع اندرويانج – وهو زنجى – مع لبيب الطرزى مندوب منظمة التحرير الفلسطينية لدى الأمم المتحدة .

وقيل أن اليهود تجسسوا على هذا الاجتماع وسربوا الخبر إلى مجلة "نيوزويك" ، مما وضع الحكومة الأمريكية فى حرج ، فقد كانت سياستها المعلنة تتمثل فى عدم إجراء أى اتصالات مع منظمة التحرير ، وعلى الرغم من أن يانج دافع عن نفسه بأن هذا الاجتماع كان لمناقشة مسائل خاصة بالأمم المتحدة ، إلا أن ثورة المنظمات اليهودية كانت عارمة، و لم يكن هناك مفر من أن يقدم يانج استقالته ليتم التخلص من أخطر زنجى فى الإدارة الأمريكية .



ومن المعروف أن هناك اتصالات سرية تمت بين إسرائيليين وفلسطينيين ، وبين مسئولين أمريكيين وبين أعضاء فى منظمة التحرير ، فما السبب فى هذه الضجة التى دارت حول لقاء يانج والطرزى ؟ مما لا شك فيه أن اليهود كانوا يريدون التخلص من أندرويانج لأنه كزنجى كان يتعاطف مع قضايا العالم الثالث ومن بينها قضايا العرب، وكانوا يخشون من أن ينجح فى استمالة الرئيس كارتر إلى وجهة النظر العربية وبذلك اعتبر يانج عدوا لإسرائيل ينبغى تحين الفرص للقضاء عليه ، وقد كان .

ولكن انتصار اليهود فى أزمة "يانج" أثار استياء وغضب الزنوج الذين كانوا يرون فى اندرويانج الزنجى الوحيد الذى يتقلد منصبا هاما ، وقد أحيت استقالته مشاعر الكراهية التى يكنها الزنوج لليهود من زمن ..

## بين الدين والدولة

أنها لمأساة تحفر خطوطها فى القلب فلا تنسى ، لقد خرج اليهود على العالم منذ قرون طوال بالمعايير والاعتبارات الأخلاقية ، واليوم يقيمون دولة لهم ليس بينها وبين الأخلاقيات والمثاليات صلة .

ولكن يبقى العزاء أن ٧٥ فى المائة من تعداد اليهود فى العالم لا يعيشون فى إسرائيل وكان ذلك بمحض اختيارهم على الأغلب ، وأن سكان إسرائيل من اليهود يتقلصون، فقد هاجر من هناك أكثر من نصف مليون إسرائيلى، كما أن الكثير من اليهود لا ينتمون إلى الصهيونية ، وحتى اليهود الذين يعيشون فى أوربا وأمريكا وأماكن أخرى أصبحوا ينتمون إلى هذه الدول كمواطنين أكثر من انتمائهم لليهودية كهوية منفصلة .

والصهيونية نفسها تعد حركة انطلاق احتجاجا على أوضاع اليهود السيئة وتوصف أحيانا بأنها حركة تحرير وطنية ضد الاضطهاد والظلم، ولكنها تختلف كثيرا عن حركات التحرير الأخرى فى دول العالم الثالث ، فإذا كانت هذه موجهة ضد قوى احتلال ، فإن الحركة الصهيونية كانت تستهدف إقامة دولة على أرض فلسطين عن طريق إبعاد السكان الأصليين والقضاء على الحضارة القائمة هناك ، ثم جلب

اليهود إلى أرض الميعاد ، وهى فلسطين ، على الرغم من أنهم لم يقيموا هناك بأعداد تذكر منذ ألفى عام، وعلى الرغم من أن اليهود أعضاء هذه الحركة لا يشتركون معا فى أية روابط مشتركة من حضارة ولغة سوى الهوية اليهودية ، وحتى هذه الهوية كانت محل جدل ومازالت حتى اليوم حول من هو اليهودى ومن هو غير اليهودى ؟.

ولكن كيف يمكن إطلاق وصف **"حركة تحرير"** على الصهيونية وهى التى فرضت على السكان الأصليين شعوبا لم تكن مقيمة بالمنطقة ؟ إننا لا يمكن أن نطلق على هذه الحركة سوى وصف (**الاستعمار**). ومن هنا فإن الحركة الصهيونية لا تعبر عن غالبية اليهود ، بل هى حركة "أقلية" ، وهذا يفسر لماذا لا يرغب معظم اليهود فى الهجرة إلى إسرائيل ، ويقول دفيد بن جوريون – أول رئيس وزراء لإسرائيل – أن اليهود الذين يعتزمون الإقامة فى إسرائيل هم وحدهم الذين ينبغى أن يطلقوا على أنفسهم لقب "صهاينة" .

وتعارض الطوائف اليهودية السلفية الحركة الصهيونية لأنها أقامت دولة علمانية وليس دولة دينية تكرس نفسها لاستقبال المسيح المنتظر ، كما أن معظم مؤسسى الحركة الصهيونية كانوا مناهضين لليهودية السلفية ، وهؤلاء الصهاينة استبدلوا الدين بالأرض ، والأخلاق بالدولة .

## الصهيونية وفلسطين

قال الزعيم الصهيونى الشهير تيودور هرتزل ذات مرة **"إن المعادين للسامية أصدقاؤنا"** ، وهذا صحيح تماما ، بمعنى أن الدول المعادية لليهود كانت ترغب فى التخلص منهم بإيجاد وطن لهم حتى ولو على حساب شعب آخر ، وهو صحيح من نلحية أخرى فمشاعر العداء للسامية دفعت اليهود إلى التكتل ومناصرة الحركة الصهيونية بحثا عن مأوى يهربون إليه من الاضطهاد ، وكان الصهاينة يذيعون دائما أن اليهود لا يستطيعون العيش إلا داخل دولة تكون السيادة لهم فيها .

وعلى الرغم أن فلسطين لم تكن فى خيال هرتزل حينما كان يطالب بدولة يهودية، فقد كان يعتقد أنه بإمكان اليهود أن يقيموا دولتهم على أية منطقة يتيسر وضع اليد عليها إلا أن زعماء الصهيونية الآخرين أرادوا استغلال السحر الديني لفلسطين واستخدام العهد القديم كذريعة لتبرير عودة اليهود إلى وطن أسلافهم .

وحين أذعن هرتزل لهذا الرأى ، كان يخشى تصادم القوميتين العربية واليهودية ، ومن ثم دعا إلى إقامة دولة علمانية وديمقراطية لا يكون لليهود فيها ميزات خاصة ، ولكن أحدًا لم يصغ إليه ، وجاء اليهود إلى فلسطين كمستعمرين ، وكان هذا السلوك يمثل كارثة بالنسبة للدولة اليهودية ، فلم يقابل اليهود فى أى مكان فى العالم مثل مشاعر العداء والشك والخوف التى قابلها اليهود فى فلسطين من جانب جيرانهم كما لم يشعر اليهود بأنهم معرضون للخطر مثلما شعروا فى فلسطين ، لقد تحقق ما قاله هرتزل ، وساعد هتلر – بشكل غير مباشر – على إقامة دولة إسرائيل .



السيادة على القدس هدف إسرائيلى لإرضاء الغرور

وإذا كان رواد الصهيونية الأوائل أمثال هرتزل وحاييم وايزمان قد حاولوا تبنى فكرة الدولة اليهودية التى تقيم علاقات ودية مع جيرانها وتنتهج الاعتدال طريقًا إلا أن الجيل الثانى من زعماء الحركة وعلى رأسهم فلادميير جابوتنسكى (روسى الأصل) كانوا على استعداد لاستخدام القوة والقمع ، ولم يكن يمثل لهم طرد العرب أو القضاء

عليهم أى تأنيب للضمير ، مثلما لم يهتز ضمير المهاجرين الجدد إلى أمريكا عندما طردوا الهنود الحمر أو قضوا عليهم .

وقد أقيمت الدولة الإسرائيلية بطريق القوة ، وبالتالى فقد أصبحت مثل دولة بروسيا أو أسبرطة الإغريقية ترى أن القيمة الوحيدة هى العسكرية والفتوحات ، وحيث أن الشر والاضطهاد كانا من سمات المملكة اليهودية القديمة ، فقد اتسمت الدولة الحديثة أيضا بهاتين الصفتين ، فاليهود الذين كانوا يخدمون كالعبيد فى الشتات أصبحوا مستبدين فى فلسطين وصاروا يعاملون العرب بعداء وقسوة ، ويحرموهم من حقوقهم ويوجهون إليهم الإهانات بدون سبب ، وجعلوا أمام العرب خيارين لا ثالث لهما ، إما الهجرة من أراضيهم أو أن يصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية .

ويقول ناحوم جولدمان – وهو زعيم صهيونى بارز : إن هناك حقيقة مأساوية مفادها أن إسرائيل بدأت تسطر وجودها فى دفاتر التاريخ بشن حرب ضد العرب ، الأمر الذى جعل العرب بدورهم يسعون للانتقام ، وأعطى هذا إسرائيل إحساسا زائفًا بالثقة فى استخدام السلاح ، وهذه مشكلة محورية للسياسة الإسرائيلية المعاصرة .

وهذه الدولة الحديثة التى أقامها اليهود ليست أفضل من أية دولة أخرى فى العالم بل تعانى من نفس المشاكل التى تعانيها الدول الأخرى : الفساد ، الجريمة المنظمة وغير المنظمة ، القتل ، الانحلال الأخلاقى ، الإجهاض ، الدعارة ، الاختطاف ، المخدرات، الأدب الإباحى الذى أصبح يكتب بالعبرية .

## الصراع الداخلى

ولم تستطع الدولة الجديدة أن تصهر فى بوتقتها الجماعات اليهودية المتنافرة التى جاءت من كل صوب وحدب تنشد أرض الميعاد ، وأبرز الصراعات التى دارت رحاها على أرض إسرائيل تلك التى تحتدم بين اليهود السفارديم (من أصل شرقى) والاشكناز (من أصل غربى) ، فالسفارديم ينتمون أساسًا لدول العالم الثالث النامية مثل المغرب واليمن والعراق والهند ، وبالتالى فهم أقل تعليما وثراءً ، وانعكس ذلك على

حظهم فى شغل المناصب العامة ، فقد أغلقت دونهم أبواب الترقى والصعود ، ولم يكن أمامهم سوى الوظائف اليدوية الدنيا ، والتكدس فى الأحياء المزدحمة الفقيرة ، أما الاشكناز الذين جاءوا من أوربا وأمريكا ، فقد كانوا أكثر حظًا فى التعليم والثراء وبالتالى انفتحت أمامهم أبواب الصعود إلى أعلى وتكوين طبقة راقية ، ثم تشكيل النخبة الحاكمة .

ويلاحظ هنا أن العنصرية تلعب دورًا كبيرًا فى هذه التفرقة فالسفارديم يهود سمر أو ملونون أو سود ، بينما الاشكناز من البيض وقد وصل حد التفرقة بين الطائفتين إلى حد منع التزاوج بينهما ، وليس من الغريب أن تختار منظمة سرية تشكلت للدفاع عن حقوق السفارديم اسم (الفهود السوداء) .

وعلى الرغم من أن السفارديم يشكلون ٦٠ فى المائة من تعداد يهود إسرائيل ، إلا أن الاشكناز يتمتعون بمميزات تبلغ ضعف ما يتمتع به السفارديم سواء من حيث مستوى المعيشة ، أو الدخل السنوى ، أو معدلات الحصول على الوظائف الإدارية العليا ، وتبلغ نسبة الذين يحصلون على شهادات جامعية من الاشكناز ثلاثة أمثال السفارديم ، بينما معدل الأمية للسفارديم ثمانية أمثال نسبتها لدى الاشكناز وهذه الفجوة بين الطائفتين تتسع بمرور الزمن .

وعندما يتوجه أطفال السفارديم إلى المدارس يتعلمون تمجيد حضارة الاشكناز الغربية ، ويدرسون قصصًا عن أبطال وزعماء الغرب ، بينما لا يكادون يعلمون شيئًا عن حضارات الدول التى انحدروا منها ، ومن ناحية أخرى تنتشر معدلات الرذيلة والجريمة بين أبناء السفارديم .

ولكن لماذا هاجر اليهود الشرقيون إلى إسرائيل على الرغم من أن الحقائق التاريخية تشير إلى أن اليهود الذين كانوا يعيشون فى الدول الإسلامية كانوا أحسن حالاً من اليهود الذين كانوا يعيشون فى الدول المسيحية؟ هناك آراء تتردد تشير إلى أن الصهيونية كانت وراء هذه الهجرة بهدف الحصول على أيد عاملة رخيصة من اليهود فى بداية إقامة دولة إسرائيل ، وكانت وسيلة الصهيونية إلى ذلك دق إسفين بين العرب

وبين اليهود الذين يعيشون فى الدول العربية ، ذلك عن طريق قيام عمــــلاء إســـرائيل بنسف المعابد اليهودية فى الدول العربية حتى يشعر اليهود بالخوف والرعـــب وعـــدم الأمان ، ويعتقدون أن هناك حملة لإبادقم وبالتالى يهاجرون إلى إسرائيل .

ويقول ويلبر أيفلاند – وهو مسئول بارز سابق بالمخابرات المركزية – فى كتاب له حول الشرق الأوسط أن قنبلة انفجرت قبل وصوله إلى العراق عام ١٩٥٠ أمام حشد يهودى كان يحتفل بعيد الفصح ، وقد أدى انفجار القنبلة إلى هجـــرة عشـــرة آلاف يهودى عراقى إلى إسرائيل ، وقد وضع عملاء إسرائيل عدة قنابل فى المعابد اليهوديـــة إلى جانب مكتبة مركز الاستعلامات الأمريكى لإظهار أن العراق معــــاد للولايـــات المتحدة ، وكان هؤلاء العملاء يوزعون منشورات تدعو اليهود للهجرة إلى إسرائيل .

و لم يكن اليهود السفارديم متهيئين للحياة داخل إسرائيل ، وفى المقـــابل لم تكـــن إسرائيل أيضًا على استعداد لاستيعابهم ، فقد حاولت تدمير هويتــــهم وحضـــارقم ، وتحويلهم إلى "إسرائيليين حقيقيين" وفقًا لمفهومها الخاص .

ثم أن استجلاب اليهود الشرقيين مسرحية تكاد تشبه فصولها عمليــــة اســـتجلاب الزنوج فى أمريكا ، فعلى سبيل المثال كان اليهود اليمنيون حلاً نموذجياً لخدمة مـــزارع النبلاء من الاشكناز الذين لم يعتادوا على الزرع والحصاد ، وكان المبرر وقتــــذاك أن اليهود اليمنيين معتادون أصلاً على الفقر والكدح ، وأن آمالهم فى الحياة متواضعــــة ، ومن ثم فإن الحركة الصهيونية بدأت منذ عام ١٩١٠ بتنظيم عمليات الهجرة من اليمن حتى تضمن بعد ذلك وجود مواطنين من الدرجة الثانية لخدمة يهود أوربا .

يقول ديفيد بن جوريون عن اليهود الشرقيين : "إنــــهم يفتقرون إلى التعليم ، وهم معتادون على العادات والتقاليد العربية ، وأنا لا أرغب فى هذا النوع من الحضـــارة ، فنحن لا نريد أن يصبح الإسرائيليون عربًا " .



**هجرة اليهود السوفييت ديمغرافيا صهيونية لـ "إسرائيل " الكبرى**

أما جولدا مائير فتقول عنهم : "لدينا مهاجرون من المغرب وليبيا وإيران ومصر ودول أخرى ما زالوا يعيشون فى مستوى القرن السادس عشر ، فهل سيكون بمقدورنا أن نرفع من مستوى هؤلاء المهاجرين إلى معدل مناسب من الحضارة ، وإذا سارت الأمور على ما هى عليه الآن فسيحدث صدام خطير بين الاشكناز – وهم النخبة – وبين السفارديم ، وهذه أكبر كارثة يمكن أن تحل بنا" .

ويضيف أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل الأسبق مزيدًا من الرتوش حول هذه الصورة القاتمة فيقول : "من المخاوف الهائلة التى تحدق بنا أن يؤدى تزايد عدد اليهود الشرقيين إلى تماثل حضارتنا مع حضارة الدول المجاورة لنا ، وإنى أرفض اعتبار اليهود الشرقيين جسرًا نعبر عليه نحو التكامل مع جيراننا العرب " .

ولعل هذا هو السبب الذى دفع إسرائيل إلى إثارة مشاعر العداء بين السفارديم وبين العرب ، ومن أمثلة ذلك أن الحكومة الإسرائيلية قامت فور إعلان إسرائيل بنشر قوات من السفارديم حول المستوطنات اليهودية حتى يكونوا أول من يتلقى هجمات ورصاص العرب ، غير أن هناك سببًا آخر فى هذا العداء وهو أن اليهود السفارديم يشعرون أنهم محل كراهية الاشكناز بسبب أصولهم الشرقية ، وبالتالى فإن التنصل من

هذه الأصول والتنكر لها يمكن أن يقربهم إلى المكانة الرفيعة التى يحتلها اليهود الأوربيون، وأحد وسائل هذا التنكر هو إظهار العداء للعرب .

وبسبب انخفاض المستوى التعليمى للسفارديم فقد سادت بينهم الغوغائية ، وهم الذين أطلقوا على مناحم بيجين وصف "الملك" ، بعد أن استطاع استغلال هذه الغوغائية والظهور بمظهر كبطل أسطورى ، ولأنهم يكرهون حزب العمل الذى يتكون أساسًا من الاشكناز ، فقد ناصروا تكتل الليكود فى الانتخابات ، كما اتجهوا صوب اليمين ابتعاداً عن الاشتراكية التى يرفع شعارها حزب العمل ، ونتيجة لمعتقداتهم الدينية وعدم مرونة مواقفهم أصبحوا عرضة للتطرف ، ويدل على ذلك أن جماعة "السلام الآن" لا تجد تأييدًا منهم .



بيجين : الأردن أرض الدولة الفلسطينية

وقد وصل مستوى الصراع بين السفارديم والاشكناز إلى الذروة فى ديسمبر عام ١٩٨٢ عندما أضاف يهودى يمنى حجرة ثالثة إلى شقته التى كانت تتكون من حجرتين ، حدث ذلك فى أحد أحياء القدس الفقيرة ، والمشكلة هنا أن هذا اليهودى لم يحصل على تصريح مسبق من الحكومة ، ولذلك جاءت الشرطة وأزالت التعديات

بالبلدوزر على الرغم من أن أحد أفراد الأسرة طلب من الشرطة الانتظار حتى يحضر إذنًا من المحكمة بحقه فى بناء الحجرة .

وتصاعدت الأحداث بعد ذلك ، فقد قاوم أفراد الأسرة الشرطة بإلقاء الحجارة عليهم ، وردت الشرطة بإطلاق الرصاص ، وسقط أحد أبناء الأسرة صريعًا ، واندلعت أعمال الشغب فى الحىّ الذى يقطنه السفارديم الذين قاموا برسم الصليب المعقوف "شعار النازى" على منازل وسيارات الاشكناز ، وعلقوا لافتات معادية للاشكناز وكتبوا هذه الكلمة بحيث تقرأ "**أشك – نازى**" فى مقارنة بنظام النازى ، وكتب على إحدى اللافتات "لقد بدأت ثورة السفارديم" .

ويتساءل الاشكناز أحيانًا : لماذا يغضب منا السفارديم هكذا؟. ألم تكن هذه نفس أحوالهم فى البلاد التى جاءوا منها؟. ولكن أليست إسرائيل هى أرض الميعاد التى هاجر إليها الهنود هربًا من الاضطهاد ليعيشوا حياة أفضل؟. وإذا كان السفارديم لا يجدون الحياة الكريمة داخل إسرائيل فإلى أين يذهبون إذن ؟.

إن الذين على علم بالتاريخ اليهودى يدركون أن المعبد الثانى سقط بسبب الحروب الأهلية بين اليهود ، فالذى دمر المملكة اليهودية القديمة ليس الرومان وإنما اليهود ، وإذا حدث وسقطت الدولة اليهودية الحديثة فسيكون ذلك على يد اليهود وليس العرب.

## إسرائيل والأقلية العربية

وإذا كان اليهود دائمًا أقلية فى الشتات ، ويشكون باستمرار من تعرضهم للاضطهاد والقمع والظلم من الأغلبية التى كانوا يعيشون فى ظلها ، إلا أنهم عندما أصبحوا الأغلبية فى دولة إسرائيل لم يتعلموا الدرس وإنما مارسوا نفس السياسة الظالمة مع العرب الذين أصبحوا أقلية فى هذه الدولة .

وعلى الرغم من أن البيان الذى أعلنته إسرائيل فور قيامها ينادى بأن الدولة الجديدة "ستمارس المساواة التامة بين جميع المواطنين من الناحيتين الاجتماعية والسياسية دون

تمييز على أساس العقيدة أو الجنس" ، إلا أن هذا البيان كان مجرد كلمات لم تر النور ، وقد وصف الحاخام مائير كاهان مؤسس حركة "كاخ" المتطرفة فى إسرائيل وصف هذا البيان بأنه "يعبر عن انفصام الشخصية ، إذ أنه يعلن عن قيام دولة يهودية وفى نفس الوقت يعلن أن جميع المواطنين متساوون" ، وينادى كاهان بطرد العرب من إسرائيل .

والسلوك الصهيونى إزاء الفلسطينيين يشبه سلوك المستوطنين الأمريكيين إزاء الهنود الحمر ، ومن الأقوال المأثورة فى هذا الصدد ما ذكره جوزيف فايتس مدير الصندوق الوطنى لليهود من أنه "ليس هناك مكان للشعبين فى هذا البلد ، ولا يمكن التوصل إلى حل وسط حول هذه النقطة ولا ينبغى أن نترك قرية واحدة فى فلسطين أو حتى قبيلة واحدة" .



الأراضى الفلسطينية المحتلة : انتهاكات " الطفل الدولى " المدلل

وعند قيام دولة إسرائيل كان هناك قرابة تسعمائة ألف عربي يقيمون فى فلسطين ، وقد هرب أو طرد من هذا العدد حوالى ثلاثة أرباع المليون ، وعندما تم ذلك أعلن ديفيد بن جوريون – أول رئيس وزراء لإسرائيل -: "ينبغى علينا أن نفعل كل ما فى وسعنا حتى لا يعودوا مرة أخرى" ، وقد مات العديد من المسنين والأطفال العرب بتأثير الحر أثناء رحلتهم الطويلة سيرًا على الأقدام هربًا إلى الدول العربية المجاورة .

وتخللت المذابح والأعمال الإرهابية عملية استيطان أرض فلسطين ، فعلى سبيل المثال هاجمت منظمة الأرجون الإرهابية قرية دير ياسين العربية غربى القدس، وعندما قاومها الأهالى نسف الإسرائيليون القرية بكل ما فيها من منازل ، وأطلقوا الرصاص على كل من حاول الفرار ، وعندما حان العصر كان مشهد القرية كالتالى : أنقاض ودمار وجثث ملقاة هنا وهناك، وكان مجموع القتلى ٢٥٠ فلسطينيًا من بينهم أطفال ونساء .

ويعلق الصحفى الإسرائيلى يورى أفنيرى على هذه المذبحة بقوله : إن تأثيرها كان رهيبًا على سكان فلسطين ، فقد دفعت سكان القرى الأخرى إلى الفرار خوفًا من تكرارها ، وكان الإسرائيليون يدخلون القرى التى أخلاها الفلسطينيون ليدمروها ويبنوها من جديد .

ومن الحقائق المعروفة أن إسرائيل لم تبن على أرض خالية ، بل أقيمت على أنقاض القرى العربية التى كانت تضم المنازل والمساجد والمدارس والمقابر ، فعلى سبيل المثال أقيم فندق هيلتون بتل أبيب فوق مقابر المسلمين ، وقد دمر الإسرائيليون حوالى أربعمائة قرية فلسطينية وأزالوها من الوجود تمامًا ، بينما كان يقال للزوار الأجانب إن هذه القرى كانت صحارى خالية .

ويؤكد على صحة هذا القول ما ذكره موشى ديان وزير الدفاع والخارجية الإسرائيلى الأسبق الذى قال ذات مرة : "لقد جئنا إلى فلسطين ووجدنا العرب يقيمون فيها بالفعل ، وأقمنا عليها دولة عبرية ، وبنينا القرى اليهودية مكان القرى العربية ، وليس هناك أى مكان فى هذا البلد لم يكن يقيم فيه سكان عرب فى الماضى".

وتم الاستيلاء على الأراضى ، ليست أراضى العرب الذين غادروها فقط ولكن حتى أراضى هؤلاء الذين آثروا البقاء ، بل لم يحصل هؤلاء على أى تعويض ، وتشير التقديرات إلى أنه تم مصادرة أربعين فى المائة من الأراضى العربية ، وكان القانون السائد فى فلسطين تحت الاحتلال العثمانى أو الانتداب البريطانى يقضى بأن يمتلك سكان القرى الأراضى الزراعية المحيطة بقراهم ، ولكن القانون الإسرائيلى الجديد ، اعتبر هذه الأراضى "منفعة عامة" وهى كلمة أصبحت تعنى بعد ذلك منفعة اليهود فقط.

وقد أدت سياسة مصادرة الأراضى إلى نزع ملكية الأرض من الأهالى الذين كانوا يتعيشون عليها مما جعلهم أعداء للدولة الإسرائيلية ، وكان هدف هذه السياسة ليس فقط الحصول على الأراضى اللازمة لإقامة المستوطنين الإسرائيليين وإنما أيضا تدمير البنية الأساسية للثروة العربية لجعل الفلسطينيين يعتمدون تماما على اليهود ، وفى الوقت نفسه حرمانهم من الأطر السياسية والاجتماعية والاقتصادية الأمر الذى يصل إلى مستوى "الاستعمار من الداخل" .

ونتيجة لذلك لم يعد هناك اندماج بين الأقلية العربية التى بقيت تعيش داخل إسرائيل وبين اليهود ، وأصبح العرب منعزلين ولا يشعرون بالمساواة ، وقد استثمرت إسرائيل هذه المشاعر لتزيد من انعزال العرب والتفرقة بينهم وبين اليهود ، وهى سياسة تماثل التمييز العنصرى فى الولايات المتحدة، وتنتهج إسرائيل عدة أساليب لتقوية هذه العزلة ، منها محاولة تفرقة وتشتيت الفلسطينيين وعزلهم عن بعضهم البعض حتى لا يتحدوا ويتضامنوا ضدها ، ولتنفيذ ذلك تحاول بث الفتن وإشعال الضغائن وعزل القرى والتدخل فى السياسات المحلية وفى انتخابات المجالس المحلية ، ثم فرض قيود على الانتقال من قرية لأخرى للتقليل من إمكانية الاتصال بين القرى ، ومنع التنظيمات السياسية .

وتهدف إسرائيل إلى استمرار تخلف الشريحة العربية من السكان، وتزايد اعتمادهم الاقتصادى على السكان اليهود ، وغنى عن الذكر أن عدم الاستقلال الاقتصادى يجعل

النشاط السياسى متعذراً ، وقد حرم معظم العرب من الأراضى التى تعد الوسيلة الأساسية للبقاء على قيد الحياة ، ليس هذا فقط – ولكن حرمت الصناعة العربية أيضًا من فرص الانتعاش ، فالصناعة اليهودية منافس قوى ، وهى تحصل على مساندة ودعم وقروض الحكومة ، ولم يبق أمام العرب إلا الأعمال اليدوية التى لا تحتاج إلى مهارة فنية مثل الحمالين ، وحتى هذه الأعمال غير مضمونة دائمًا ، فكثيرًا ما يفصل العمال العرب لإتاحة الفرصة لعمل اليهود .

ويسكن العرب فى أكواخ حقيرة ، أو منازل قديمة متداعية ، وأحيانًا ما ينامون داخل المتاجر التى يعملون بها حيث يغلق أصحابها الأبواب عليهم من الخارج حتى الصباح ، وأحيانًا أخرى يضطرون لقطع مسافات طويلة بين قراهم وأماكن العمل فى المدن ، وحتى الفلسطينيون الذين لا يزالون يمتلكون بعض الأراضى يضطرون لبيع محاصيلهم للشركات الاحتكارية الإسرائيلية بما قيمته ثلث سعر السوق ، حيث أنهم لا يستطيعون التنافس مع المزارع الإسرائيلية التى تحصل على الدعم من الحكومة وتستخدم الآلات الحديثة .

وحتى الدول العربية الغنية لا تقدم المعونة لعرب إسرائيل ، لأن هؤلاء العرب يقيمون داخل إسرائيل ، وإذا حصلوا على معونات مالية فستصب فى نهاية المطاف داخل الخزانة الإسرائيلية ، هذا فى الوقت الذى يحصل فيه يهود إسرائيل على مليارات الدولارات كمعونة من الخارج خاصة من الولايات المتحدة .

أما مستوى المعيشة بين اليهود والعرب فى إسرائيل فهو متباين للغاية ، فمعظم اليهود يمتلكون الثلاجات والتليفونات وأجهزة التليفزيون ، وهى رفاهية لا يعرفها معظم العرب ، كما أن معدل وفيات الأطفال بين العرب ضعف معدله لدى اليهود ، ولا تمتلك الأحياء العربية المدارس والمكتبات الكافية .

ويمتلك الإسرائيليون أسلحة عديدة للضغط على العرب وإجبارهم على السكوت وعدم المقاومة ومن بين هذه الأسلحة "القوائم السوداء" ، التى يدرج فيها كل من يقوم بنشاط معاد للحكومة ، أو الذين لا يقومون بدور "المرشد" لأجهزة الأمن ضد

زملائهم ، وتستخدم هذه القوائم أساسًا ضد الطلاب ، ويعنى إدراج اسم الطالب بالقائمة السوداء عدم حصوله على وظيفة حكومية أو فى الشركات الإسرائيلية ، وتغلق الأبواب أمام المدرجين فى هذه القائمة حتى يضطروا إلى الهجرة من إسرائيل بحثًا عن العمل وهذا ما تريده الحكومة ، فهى لا ترغب فى بقاء الفلسطينيين المتعلمين داخل إسرائيل لما يمكن أن يجلبوه من متاعب لها ، والجديد فى هذه القوائم أنها يمكن أن تشمل قرى بأكملها ، ويعنى ذلك عدم منحها القروض أو تزويدها بالكهرباء أو الصرف الصحى وغير ذلك من الاحتياجات .

وهناك سلاح قوى آخر اسمه "تصاريح البناء" ، فعدد السكان العرب يتزايد بينما حجم القرى والمنازل لا يزال كما هو ، فيضطر السكان إلى إضافة حجرات إلى مساكنهم الأصلية لتزويج أولادهم ، أو بناء منازل جديدة دون الحصول على تصريح بذلك لأن السلطات نادراً ما تعطى هذه التصاريح بهدف عدم توسيع حركة البناء العربية ، وبالتالى يصبح هؤلاء السكان العرب مهددين فى أية لحظة لخطر قدوم البلدوزرات لإزالة ما بنوه من مساكن وتوسعات .

## اليهود بين العبودية والسيادة

عاش اليهود لعدة قرون على هامش المجتمع ، وكانت حكومات الدول التى يعيشون فيها تحرمهم من عدة حقوق وامتيازات ، وتفرض عليهم وظائف بعينها ، وتنكر عليهم حق المواطنة وتعتبرهم دائمًا من الغرباء ، وحتى بعد التحرر من الاضطهاد حصل اليهود على حقوقهم كمواطنين وليسوا كطائفة أو شعب ، واليوم وقد أصبح لليهود السيادة فى إسرائيل يعاملون السكان العرب نفس المعاملة و يحرمونهم من حقوقهم .

ويشير تقرير "كوينج" الذى قدم إلى حكومة حزب العمل عام ١٩٧٦ ، وهو تقرير سرى وضعه خبراء فى الشئون العربية – يشير إلى سوء المعاملة التى يلقاها العرب فى إسرائيل فيوصى التقرير ببناء المزيد من المستوطنات اليهودية فى المناطق التى تسكنها غالبية عربية ، وعزل الزعماء العرب المشاغبين من القرى العربية وإحلال زعماء

مسالمين بدلا منهم ، وتقليص عدد المتعلمين بين العرب لأن مشاعر الإحباط بين المتعلمين غالبا ما تكون خطيرة ، وتسهيل سفر الطلاب للدراسة فى الخارج مع وضع العراقيل أمام عودهم مرة أخرى ، وإجبار الخريجين على التعاون مع السلطات ومساومتهم على توظيفهم مقابل ذلك .

ويلاحظ أن إسرائيل استخدمت نفس الأساليب التى تمارسها لقهر العرب الذين يعيشون داخلها مع عرب الضفة الغربية التى احتلتها بعد حرب ١٩٦٧ لإخضاعهم لإرادها ، وكثفت إسرائيل من المستوطنات فى الضفة بشكل يصبح معه من المتعذر إعادة الأراضى للفلسطينيين نظرا لتزايد الوجود الإسرائيلى فى هذه المناطق ، وقامت ببناء المستوطنات بشكل متعمد بين القرى العربية لعزلها عن بعضها البعض ، وجعل إقامة دولة فلسطينية فى الضفة أمرا مستحيلا ، ويتم شراء بعض الأراضى الخاصة من العرب ولكن معظمها يصادر ، وإذا رفض أى عربى بيع أرضه ترش أراضيه ومحاصيله بالمواد السامة



جندى إسرائيلى مدجج بالسلاح يسير خلف طفل فلسطينى أعزل

ومن ناحية أخرى يحرم المزارعون فى الضفة الغربية من المياه اللازمة لرى محاصيلهم حيث استولى المزارعون اليهود على معظم مصادر المياه بل على المزارع داخل إسرائيل ذاتها ، ومنع المزارعون العرب من حفر آبار جديدة ، بينما فرضت القيود على استخدام الآبار القديمة ، أو تم الاستيلاء عليها

وفى الوقت نفسه تقوم إسرائيل بالتخلص من الزعامات الفلسطينية غير الموالية لها فى الضفة الغربية ، فقامت بإبعاد العمد العرب غير الموالين ، وشكلت ما يسمى بروابط القرى ، بل أن اثنين من هؤلاء العمد تعرضا لمحاولة اغتيال أسفرت عن بتر ساقيهما .

وانتهجت إسرائيل سياسة القمع فى الضفة ويتعرض المسجونون العرب فى إسرائيل ومعظمهم من الشباب "١٦ – ٢٣ عامًا" ، للضرب والتعذيب وسوء المعاملة ، مما دفع منظمة العفو الدولية إلى التدخل لإجراء تحقيق ، كما تقوم السلطات الإسرائيلية من آن لآخر بنسف منازل المشتبه فيهم من العرب ، ومعاقبة الأسرة بكاملها إذا اقترف أحد أفرادها أى خطأ ، وأحيانًا ما يتم نسف مترل ما قبل التأكد من أنه هو العنوان المطلوب .

ويسير المستوطنون اليهود فى الضفة الغربية وهم مدججون بالسلاح ، ويعترضون طريق المارة العرب ليطلبوا منهم بطاقات الهوية ، وكثيرًا ما يحلو لهم اقتحام بيوت العرب لتهديدهم ، وأحيانًا ما يدمرون المحاصيل ، أو ينسفون المنازل لإجبار العرب على ترك الديار ، ولكن السلطات الإسرائيلية تقول إن هذه الممارسات يقوم بها قلة من المتطرفين .

وينتقى الإسرائيليون غالبًا صغار السن والصبية لإذلالهم ، وأحيانًا ما يعترض الجنود طريق التلاميذ الخارجين من المدارس ويعتدون عليهم بالضرب ، أو يأمرون مجموعة منهم بكنس الشارع بقمصانهم ، أو يصحبوهم إلى معسكراقم لتنظيف المراحيض ، وأحيانًا أخرى يتعمدون احتجازهم أيام الامتحانات حتى يرسبوا ، فهم يكرهون العرب المتعلمين، وينسون أن كل تلميذ عربى أهين يصبح ثمرة ناضجة تجندها منظمة التحرير الفلسطينية .



**احتجاز الرهائن وقتلهم .. من أساليب عصابة " الأرجون " بقيادة بيجين**

وفى فبراير عام ١٩٨١ أصدرت الجمعية الإسرائيلية لحقوق الإنسان تقريرًا حول معاملة العرب فى الضفة الغربية ذكرت فيه أن جنود الاحتلال الإسرائيلى الذين وصلوا إلى مدينة الخليل تلقوا دورة تدريبية حول كيفية معاملة العرب ، وقال لهم المحاضر : "إن العرب ليسوا بشرًا ويجب معاملتهم كالحيوانات ، وأنهم يحبون الضرب والإذلال ، وأنه فى حالة دخول أحد المنازل العربية للتفتيش يجب ضرب الأب أمام أفراد أسرته وخاصة الأطفال حتى يشعر بالذل هذا إذا حاول المقاومة ولكن إذا استعطفنا الأب أمام أطفاله فيكتفى بصفعه على وجهه لطمة أو لطمتين ، ولا بأس من بعض الضربات الخفيفة على جسده ، وفى حالة ظهور رب الأسرة بمظهر التغطرس أو الاعتداء فيتم تحطيم بعض أثاث المترل مثل فراش الزوجة أو جهاز التليفزيون مع سكب الزيت على الأرض ، وإلقاء المواد الغذائية فى صندوق القمامة" ، وأشار هذا التقرير إلى أن بعض الضباط فضل الهجرة إلى خارج إسرائيل بعد أن أكمل خدمته بعد التجربة التى شهدها فى الضفة الغربية .

لأن إسرائيل أصبحت دولة ، فقد صار لها حِساباها الخاصة التى تتواءم مع مصالحها فهى لا تقف مع أية قيمة مطلقة ، ولكنها تقف مع ما ترى أنه يعود بالنفع عليها ، مثل ذلك تأثيرها على يهود الولايات المتحدة أثناء حرب فيتنام ، وكيف أيدوا هذه الحرب متضامين مع الحكومة الأمريكية لأن ذلك يعنى ضمنًا تأييد إسرائيل وكيف أيد حاخامات اليهود الأمريكيون مبدأ الخدمة العسكرية الإجبارية فى الولايات المتحدة لأن ذلك مسألة عسكرية لها انعكاساها غير المباشرة على إسرائيل .

ثم هناك المصالح المتبادلة بين إسرائيل وبين اليهود الأمريكيين الذين يزودها بالمال والتأييد ، ثم المصالح المتبادلة أيضًا بين إسرائيل والحكومة الأمريكية ، فإسرائيل تجرب الأسلحة الأمريكية فى المنطقة ، وتمد واشنطن بمعلومات عن الأسلحة السوفيتية لدى العرب .

**ولكن إلى أين ستسير إسرائيل من الداخل ؟**

الشواهد تقول إنها أبعد ما تكون عن اليسار ، وأغلب الظن أنها تتجه كل يوم صوب اليمين ، وفى استطلاع للرأى العام أجرى مؤخرًا أشار أكثر من الثلث إلى رغبتهم فى إقامة حكومة غير ديمقراطية ، ويعتقد كثير من الإسرائيليين أن رجلاً قويًا سيصل يومًا ما إلى دفة الحكم سواء عن الطريق الديمقراطى أو بانقلاب ثم يحكم البلاد كديكتاتور ، ويتنبأ آخرون بتزايد المد الفاشى الذى ظهرت بداياته فى انتخابات عام ١٩٨١ بأعمال العنف التى تفجرت ضد حزب العمل ، وفى إطلاق وصف "الملك" على بيجين ، وفى توزيع صوره على شكل أيقونات يضعها الناخبون على صدورهم بل يقبلونها من حين لآخر .

وفى حالة حدوث انقلاب عسكرى ستستطيع إسرائيل أن تبدو بشكل أو بآخر كأنها لا تزال بلدًا ديمقراطيًا ، وتبيع هذه الفكرة لليهود الأمريكيين الذين لن يستطيعوا مهاجمتها بسبب عقدة الذنب من أيام محرقة هتلر ، وبالتالى ستستمر الأموال فى التدفق، ولكن ستكون هنا إسرائيل أخرى موقعة تحالفًا مع الموت .

## نظرة على المفردات اليهودية التى وردت بالكتاب (*)

**العبريـــــة :** إحدى اللغات السامية ، كان يتحدث بهـــا الكنعـــانيون ثم اتخذها العبرانيون لغة لهم بعد استقرارهم فى أرض كنعـــان . وعمر العبرية قصير إذ لم يظهر استقرارها اللغوى إلى حـــوالى عام ١٤ ق . م .

**اللادينـــــو :** تحريف لكلمة "لاتينو" وهى لهجة إسبانية يتحدث بها اليـــهود السفارديم، وتتكون مفرداتها من إسبانية العصور الوسطى بعد أن دخلت عليها بضع كلمات من العبرية والتركية وبعـــض المفردات البرتغالية ، وتكتب حاليًا بالأبجدية اللاتينية .

**اليـــديشـــيـــة :** لهجة ألمانية (جنوبية) يستخدمها يهود شرق أوربـــا ، وقـــد اشتق اسمها من كلمة (يهودى) ، وهى عبارة عن خليط مـــن المفردات الألمانية (٨٥ فى المائة) دخلت عليها بعض الكلمات السلافية والعبرية ، وتستخدم الحروف العبريـــة فى كتابتـــها وكانت لغة الجيتو ، ويطالب الصهاينة باستخدام اللغة العبرية بدلاً منها باعتبار أن العبرية هى لغة اليهود "الحقيقيـــة" ، ولا تزال اليديشية تستخدم بين قطاعات من الإسرائيليين حـــتى اليوم .

**الحـــاخـــام :** تعنى بالعبرية "الرجل الحكيم" ، وأصبحت تطلق على الفقهاء اليهود الذين أقاموا أنفسهم محافظين على التعاليم اليهودية .

---

(*) المرجع : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية – الدكتور عبد الوهاب المســـيرى – مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام .

**الشعب المختار :** الإيمان بأن "الشعب اليهودى" قد اختير دون الشعوب الأخرى مقولة أساسية فى الدين اليهودى ، وفكرة الاختيار تؤكد فكرة الانفصال عن الآخرين، ويرى بعض المفسرين اليهود أن هذا الاختيار لا علاقة له بالطاعة أو المعصية ، وأن الله لن يرفض شعبه كلية فى أى وقت من الأوقات مهما بلغت شرور هذا الشعب .

**الخروج :** يروى المؤرخون أن دخول اليهود مصر يرجع تاريخه إلى أيام الهكسوس والذين كانوا ينتمون برابطة عرقية إلى العبرانيين ، ولذا تمتع العبرانيون بامتيازات خلال حكمهم ، وكان من الطبيعى بعد طرد الهكسوس من مصر أن تلغى امتيازات اليهود .

ويذكر المؤرخون أن اليهود خرجوا من مصر فى القرن الثالث عشر ق . م .

وترى الرؤية اليهودية القديمة والصهيونية الحديثة ، أنه بعد الخروج من مصر أصبح اليهود أمة مقدسة ، ويرمز "الخروج" فى الوجدان اليهودى إلى التدخل الإلهى فى التاريخ لصالح الشعب المختار ، وتعد هذه الواقعة تقليديا هى النقطة التى يبدأ فيها تاريخ اليهود .

**الوصايا العشر :** أساس الشريعة اليهودية ، وقد سميت "بالوصايا العشر" لأنه جاء فى "سفر الخروج" أن موسى كتب على اللوحين كلمات العهد ، الكلمات "العشر" واللوحان هنا هما لوحا العهد اللذان كتبت عليهما الوصايا .

**الكنعانيون :** كنعان هو ابن حام بن نوح ، وهم أول الشعوب التى سكنت أرض فلسطين ، وهناك رأى قائل بأن الكنعانيين كانوا فى بادئ الأمر قبائل سامية نزحت من الجزيرة العربية وأرض كنعان هى

الأرض التى غزاها اليهود الأول حينما كانوا يبحثون لهم عن وطن. وكان على اليهود أن يخوضوا معارك ضارية ضد الكنعانيين ليستوطنوا بلدهم .

**الفلستيون :** يطلق هذا اللفظ على سكان الشاطئ الجنوبى لفلسطين ، الذين استقروا فيه فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، وجاء فى "العهد القديم" أن هذا الشعب قد وفد من جزيرة كريت ،وهناك فارق بين الفلستيين والفلسطينيين الذين ينتمون للأمة العربية .

**صموئيل :** وبالعبريه شموئيل ، من أنبياء اليهود

**داود :** ملك يهودى من سبط يهودا تولى العرش عام (١٠١٠ – ٩٧٠ ق.م)، ولداود معجزات عديدة حسب التصور اليهودى فقد قتل الوحوش وهو طفل كما قتل العملاق الفلستينى جالوت ، ويحب كثير من الإسرائيليين أن يشخصوا إسرائيل على أنها داود الصغير الذكى سريع الحركة الذى يهزم العملاق جالوت [العربى] .

**يهودا :** أحد أسلاف داود وكانت قبيلته أكبر القبائل فى الأسباط الإسرائيلية الأثنى عشر ، وكان شعار يهودا هو الأسد ولذلك يشار دائمًا إلى "أسد يهودا" ، وقد سمى كل العبرانيين "باليهود" نسبة إلى هذه القبيلة وإن كانوا يسمون أيضًا باليسرائيليين نسبة إلى يسرائيل .

**يسرائيل :** كلمة عبرية قديمة تعنى حرفيًا "المجاهد مع الله" ، وهو الاسم الذى أطلق على النبى يعقوب ، وكان هذا الاسم يطلق فى البداية على المملكة الشمالية التى أقامها اليهود بعد موت النبى سليمان والتى كانت تقع على بحيرة طبرية ، ثم اتسعت دلالته وأصبح يطلق على أفراد "الشعب اليهودى" . ككل باعتبارهم من أبناء يسرائيل ، ولكن الاسم أصبح يطلق حاليًا على سكان إسرائيل تفريقًا عن اليهود الذين يعيشون فى خارجها .

**أورشـــليـــم :** تستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى مدينة القدس حتى عـام ٧٠ ق. م، وقد فتحها العرب عام ٦٣٧ ميلادية وسميت باسمـها الحـالى "القدس" ، وتعد من أقدم المدن فى التاريخ، وتوجد بها آثار أكادية وفرعونية وهى تسبق الوجود اليهودى، وكانت مركزًا للحضـارة الكنعانية قبل زمن إبراهيم .

**الآشـــوريون :** إمبراطورية قديمة حكمت أجزاء من غرب آسيا فى بـلاد دجلـة الوسطى شمال بلاد ما بين النهرين ، وازدادت قوتها حوالى عـام ١٣٠٠ ق . م .

**البابليـــون :** يطلق اسم بابل على منطقة ما بين النهرين بصفة عامة ، ويشـير بصفة خاصة إلى المنطقة التى تشمل وسط وجنوب العراق الحالى .

**الآراميــــة :** إحدى اللغات السامية وأقربها إلى اللغة العبرية (وتسـمى أيضًـا الكلدانية).

**الســـامـرة :** هى عاصمة مملكة يسرائيل القديمة ، وقد بنى على أنقاض السـامرة مدينة نابلس العربية . ويسمى الإسرائيليون الضفة الغربية لنـهر الأردن يهودا والسامرة .

**الفريســيون :** هم أتباع حزب دينى وسياسى كان موجودًا أيام المسيح ، عليـه السلام – وكان مقصوراً على مجموعة من المثقفين أو المتعلمـين المتفقهين فى الدين ومن هنا أطلق عليهم "المنعزلون" التى جـاءت منها هذه التسمية العبرية .

**المـاســادا :** كلمة آرامية تعنى "القلعة" ، وهى آخر قلعة يهودية سقطت بـين أيدى الرومان أثناء التمرد اليهودى ضد الإمبراطورية الرومانيـة ، وتقع الماسادا على قمة صخرة مرتفعة عند البحر الميت .

**الأغيـــار :** تستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى الأمم غير اليهودية ، وسـاهم

حاخامات اليهود فى تعميق الاتجاه الانفصالى بين اليهود وغيرهم ، وقد أدى ذلك إلى صعوبة اندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها .

**الجيتو :** استخدمت هذه الكلمة للإشارة إلى الأحياء الخاصة باليهود فى أوربا ، وقد أقيم أول حى يهودى يطلق عليه "جيتو" فى مدينة البندقية الإيطالية عام ١٥١٦ ، وقد ترك التدنى الاقتصادى والمعمارى للجيتو أثرًا عميقًا على وجدان اليهود القاطنين فيه وعمق من انفصالهم عن العالم الخارجى .

**الماشيح :** مشتقة من الكلمة العبرية "مشح" أى مسح بالزيت المقدس ، وكان اليهود يمسحون رأس الكاهن والملك بالزيت قبل تنصيبهما باعتبار أن الروح الإلهية تسرى فيهما ، ولكن معنى الكلمة تطور فيما بعد ، فأصبحت تشير إلى ملك من نسل داود سيأتى ليجمع شتات المنفيين ويعود بهم إلى "صهيون" ويحطم أعداء "يسرائيل" ، ثم يبدأ الفردوس كما يعم السلام وقتها العالم .



# الفصل الثالث

# السلام العبرى

فى الثمانينيات بدت إسرائيل كقوة إقليمية كبرى فى منطقة الشرق الأوسط .

قصفت المفاعل النووى العراقى بطائراتها القاذفة وبررت هذه العملية بأن المفاعل كان نواة لإقامة محطة لإنتاج الأسلحة النووية ، ورروجت وقتذاك أنها تشن هجمات وقائية لحماية أمنها القومى إذا تعرض للخطر دون أن توضح ما هى الحدود التى يتوقف عندها هذا الأمن ، و لم تلبث إسرائيل أن قامت بهجوم على مركز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس وقصفته بالقنابل ، واستشهد الزعيم الفلسطينى أبو جهاد فى هذه العملية ، ووقتها أعلنت إسرائيل أن ذراعها العسكرية طويلة تصل إلى من يعرض أمنها للخطر مهما كان بعيدًا .

وعملية غزو لبنان التى تمت عام ١٩٨٢ كانت نموذجًا واضحًا لهذه السياسة ، كانت الذريعة التى اتخذتها إسرائيل لتبرير عملية الغزو واهية ، أعلنت وقتها أنها تغزو لبنان لمعاقبة قوات المقاومة الفلسطينية التى تتخذ مواقع لها بالجنوب اللبنانى ، وذلك انتقامًا منها بسبب محاولة الاغتيال التى تعرض لها السفير الإسرائيلى فى لندن .

وتحركت الدبابات والآليات وبطاريات المدفعية ووحدات المشاة والصواريخ المضادة للطائرات فى عملية غزو منظمة اكتسحت الجنوب اللبنانى ووصلت إلى العاصمة بيروت ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تصل إسرائيل فيها إلى عاصمة عربية منذ إنشائها عام ١٩٤٨ .

كانت إسرائيل تريد أن تبلغ رسالة للعرب مفادها أن حقبة "السلام العبرى" قد جاءت ، وهذا التعبير يستخدم ليشير إلى السلام الذى تفرضه الدولة الأقوى وفقًا لشروطها ومصالحها على الدول الأضعف .

فى العصور القديمة كان هناك "السلام الرومانى" الذى يعبر عن القوة العسكرية الهائلة لروما ، وفى عصر نمو وصعود الإمبراطورية البريطانية ظهر تعبير "السلام البريطانى" الذى كان يعبر عن قوة الإمبراطورية التى لا يغرب عنها الشمس وكيف تحقق السلام وفقًا لتصوراتها ، كما ظهر فى العصر الحديث أيضًا تعبير "السلام الأمريكى" ليشير إلى ظهور الولايات المتحدة كقوة عظمى فى العالم تمتلك الوسائل والضغوط التى تمكنها من تحقيق السلام العالمى ولكن وفقًا لمصالحها الدولية .

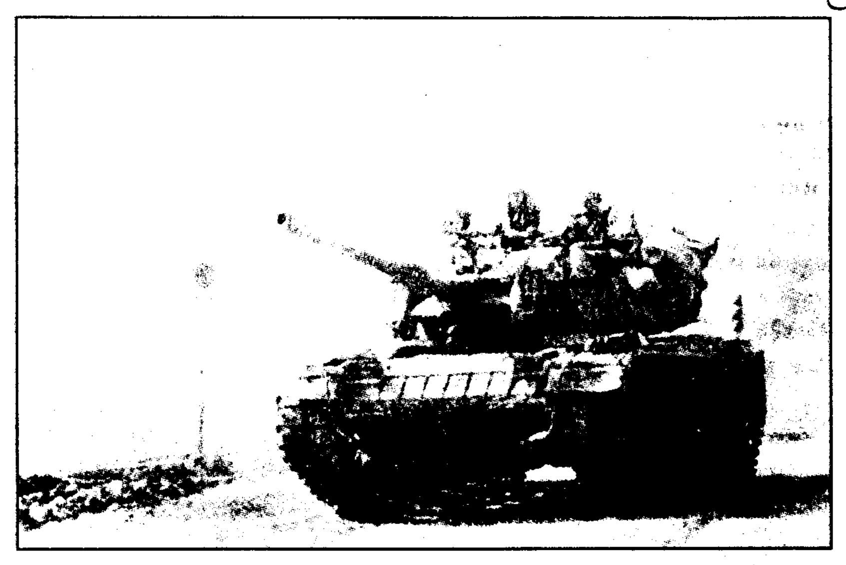
وعملية غزو لبنان التى أطلقت عليها إسرائيل اسم "**السلام فى الجليل**" كانت تهدف أيضًا إلى القضاء على المقاومة الفلسطينية التى تنطلق عملياتها من الجنوب اللبنانى، وكانت من نتائج هذه العملية وقوع مذابح بشعة للاجئين الفلسطينيين فى مخيمى "**صبرا**" و"**شاتيلا**" على مشارف بيروت ، وهى المذابح التى أفزعت الضمير العالمى حينذاك ، والتى بدت ككابوس لعين جثم على الأنفاس فجأة .. وعلى الرغم من المظاهرات ، وحركات الاحتجاج ، والحداد وصلوات الغائب واللعنات ودعوات الثأر والانتقام والاستنفار إلا أن هذه المذابح ظلت تؤرق الضمير العالمى طويلاً وتثير اشمئزازه .

واتضح بعد ذلك أن كبار الضباط الإسرائيليين خططوا لإدخال ميليشيات القوات اللبنانية إلى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين حين تستكمل القوات الإسرائيلية تطويق بيروت الغربية ، وكانت هذه الخطة تهدف إلى تحقيق هدف إسرائيل فى القضاء على فلول المقاومة الفلسطينية دون تحقيق خسائر فى الأرواح من جانبها ، وفى نفس الوقت تبقى بنفسها بعيدًا عن تهمة قتل الفلسطينيين .

واعترف الجنرال إريل شارون – وزير الدفاع الإسرائيلى وقتذاك – بأن الإسرائيليين وضعوا خطة قبل أسبوعين من وقوع المذبحة تقضى بإدخال ميليشيات من حزب الكتائب تلقت تدريبها ودعمها من إسرائيل إلى داخل المخيمات الفلسطينية وكانت إسرائيل تعلم بما بين هذه الميليشيات والمقاومة الفلسطينية من ثأر من مخلفات

الحرب الأهلية اللبنانية ، وجاء ذلك أيضًا بعد اغتيال بشير الجميل الذى كان يسيطر بقبضة من حديد على هذه الميليشيات .

وتشير كافة التقارير إلى أن المخيمات الفلسطينية لم تكن تضم سوى لاجئين مدنيين، ولم يكن بها أى نشاط عسكرى على الإطلاق مما يسقط دعاوى إسرائيل فى أنها كانت تبحث داخل المخيمات عن الفدائيين ، ومما لا شك فيه أن هذه المخيمات كانت المنبع الذى تستقى منه القوات الفلسطينية الرجال ، فالفلسطينيون الصغار ينخرطون فى سلك المقاومة بمجرد أن يكون فى مقدورهم حمل البندقية ، وسكان المخيمات – أكثر من أى تجمع فلسطينى آخر – هم الأكثر كرهًا لإسرائيل ورغبة فى العودة إلى ديارهم ، فهم لا يزالون يتلقون المعونات من وكالة غوث اللاجئين ، وليست لديهم وظيفة مستقرة تدر عليهم دخلاً ثابتًا ، وبالتالى فهم الشوكة التى تؤرق مضجع إسرائيل ، وهى من زمن تحلم بتوجيه ضربة إلى هذا المنبع فى اعتقاد منها بأن ذلك سيؤدى إلى انحسار المقاومة وحرمانها من الموجات المتدفقة من الرجال حملة السلاح .



الاجتياح الصهيونى للبنان نموذج للعربدة المعادية للعرب

فى ظل الأنظمة الدولية القديمة والجديدة

وقد أدت عملية غزو لبنان والمذابح البشعة التى تعرض لها اللاجئون الفلسطينيون فى المخيمات اللبنانية إلى حدوث انقسامات جديدة داخل المجتمع الإسرائيلى الذى أصيب بهزة من جراء الدمار الذى لحق بالمدن اللبنانية وبأعمال القتل والعنف والتعذيب التى لحقت بالمدنيين الفلسطينيين ، ومن النتائج التى أسفرت عنها عملية الغزو ظهور حركة "السلام الآن" التى تدعو لإجراء حوار مع العرب من أجل التوصل إلى سلام ينهى العداوة بينهم وبين إسرائيل ، لكى تجد دول المنطقة فرصة لبناء اقتصادياتها واللحاق بالدول المتقدمة بدلاً من الحروب المتواصلة .

غير أن حركة "السلام الآن" رغم أنها تضم فى عضويتها الصفوة الفكرية والاجتماعية داخل المجتمع الإسرائيلى إلا أنها لم يكن لها تأثير يذكر على عملية صنع القرار السياسى فى إسرائيل ، وإن كان من المعتقد أن استمرار أعضائها فى الترويج لأفكارهم عن طريق وسائل الإعلام المختلفة يمكن على المدى الطويل أن يقنع شرائح جديدة من المجتمع الإسرائيلى بالانضمام إليهم ، وذلك فى مواجهة قوى التطرف والعنف التى لا زالت لها الغلبة فى إسرائيل .

ومن أبرز رموز تيار التطرف والتشدد والعنف فى إسرائيل "إريل شارون" الذى يعد من أقوى الصقور نفوذاً داخل المجتمع الإسرائيلى بعد تقاعد مناحم بيجين زعيم التطرف والإرهاب الإسرائيلى .



ترحيل الفلسطينيين عبر جسر الأردن بعد عدوان ١٩٦٧

ومن سمات شارون حب المخاطرة والمغامرة وتصلب الرأى وتجاوز أوامر رؤسائه ، وقد اشترك فى نشاط الهاجاناه وحرب ١٩٤٨ ، ثم أصبح قائدًا للوحدة رقم "١٠١" وكانت تقوم بغارات الحدود ويطلق على أفرادها اسم الشياطين ، وهى التى نفذت عملية قبية يوم ١٤ أكتوبر ١٩٥٣ ، ودكت هذه القرية على من فيها ونسفت ٤١ مسكنًا وقتلت ٦٩ شخصًا نصفهم من الأطفال والنساء .

ثم اشترك شارون فى حرب ١٩٥٦ ثم حرب ١٩٦٧ حيث قام بالاستيلاء على ممر "متلا" دون أوامر من قادته ، وعين بعد الحرب قائدًا للمنطقة الجنوبية حيث طرد ٦٠٠ بدوى من ديارهم فى رفح ، وأثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ قاد عملية "الثغرة" متجاوزًا أيضًا أوامر رؤسائه ، وحين أمره موشى ديان وزير الدفاع فى ذلك الوقت بعدم تنفيذ العملية أغلق جهاز الهاتف فى وجهه وانطلق بقواته ليقود الهجوم .

وبعد انتهاء الحرب قرر شارون الانتقال إلى معترك السياسة ، وانضم إلى كتلة الليكود اليمينية التى كانت تمثل موقف التشدد إزاء العرب ، بعد ذلك قام بإنشاء حزب خاص به لم يستطع الفوز إلا بمقعدين فقط فى انتخابات ١٩٧٧ ، واضطر إلى العودة إلى قواعده فى كتلة الليكود ، وتولى عدة مناصب وزارية منها الدفاع والزراعة.

ومن آراء شارون السياسية المتشددة أن انسحاب إسرائيل من أى شبر من الضفة الغربية هو أمر غير وارد على الإطلاق ، وبالنسبة للمسألة الفلسطينية يرى شارون أن هناك دولة فلسطينية قائمة بالفعل وهى الأردن ، وأعلن أكثر من مرة أنه يستطيع القضاء على الأردن خلال ٢٤ ساعة وتسليم أراضيه رسميًا للفلسطينيين ، وهذا الرأى الوجه الآخر الأكثر عنفًا "للخيار الأردنى" الذى طرحه من قبل ساسة إسرائيل الذين يرون أنه يمكن تهجير الفلسطينيين من الضفة والقطاع بالتدريج ونقلهم إلى الأردن وبذلك تحل القضية الفلسطينية نهائيًا .

كذلك فإن شارون هو الذى تحمل بمفرده مسئولية نسف مستوطنةياميت شمال سيناء قبل رحيل القوات الإسرائيلية عنها بعدة ساعات ، وهو الذى شجع الإسرائيليين على البقاء فى ياميت حتى اللحظات الأخيرة .

ورجل بهذه المواصفات لا بد وأن يلعب أدوارًا محورية فى مستقبل الحياة السياسية لإسرائيل، ومن الكتب الهامة التى صدرت وتلقى الأضواء على هذه الشخصية الزعامية كتاب بعنوان **"أطول الحروب"** ، كتبه صحفى إسرائيلى مهاجر من الأرجنتين اسمه يعقوب تيمرمان ، والكتاب فى الأصل يشرح ثم يدين عملية الغزو الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ ، ولكنه يقول إن الجنرال شارون هو المدبر الأول والوحيد لهذا الغزو ويصفه بأنه "صقر" إسرائيل المقبل .

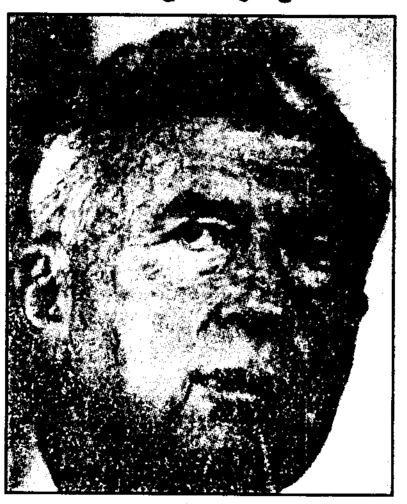
ولأن مؤلف هذا الكتاب أيضًا إسرائيلى الجنسية ، فمن الصعب اتهامه بأنه معاد للسامية ، حقيقة أن المؤلف لا يقصد مناصرة العرب ضد الإسرائيليين ، ولكنه من الأصوات القليلة التى تنادى بالتصالح والسلام وإعطاء الفلسطينيين حقوقهم المشروعة ، ليس لأنه يؤيدهم ولكن لأن ذلك – من وجهة نظره – هو الوسيلة الوحيدة لكى تبقى إسرائيل وسط جيرانها العرب على قيد الحياة .

ولأن هذا الكتاب هام فى فهم ما يحدث على الجبهة العسكرية الإسرائيلية ، وما أصاب المجتمع الإسرائيلى من انقسامات فى أعقاب الحرب اللبنانية ومذابح "صبرا" و"شاتيلا" ، فإننى أقدم عرضًا له بالعربية للقراء ، وفى ذهنى أن الكتاب سيزيدنا فهمًا للمجتمع الإسرائيلى فى الثمانينات ويساعدنا على فهم مساره فى التسعينيات .

## نذر الحرب

كنت أعلم جيدًا أن هناك حربًا قادمة وإن كنت لا أستطيع تحديد ساحتها أو ساعتها بالضبط ، ولعل هذه النبوءة بالحرب تولدت لدىَّ بعد لقائى بأريل شارون وزير الدفاع الإسرائيلى عام ١٩٦٩ فى بير سبع ، وكان شارون وقتها قائدًا للجبهة الجنوبية ، كان يقف فى مكتبه أمام خريطة كبيرة الحجم تصور شبه جزيرة سيناء شارحًا لعدد من الصحفيين العمليات العسكرية لحرب يونيو ١٩٦٧ ، ولاحظت أن الرجل يرد على جميع الأسئلة السياسية بإجابات عسكرية ، وبدا لى على الفور أنه يؤمن بحل التناقضات السياسية عن طريق القتال .

كان شارون يتحدث بحماس متقد عن الاستراتيجية العسكرية ، وأخذ يفسر الظواهر الجغرافية استنادًا إلى المفاهيم العسكرية ، وقلت لنفسى حينئذ إنه لو كان نابلون بونابرت قد التقى بهذا القائد الإسرائيلى لكان قد شعر بالود تجاهه قبل المعركة وساعده أثناءها ، غير أنه من المؤكد أنه كان سيقطع رأسه بعدها بسبب أسلوبه العنيف فى إدارتها ، وتجاوزه الأوامر الصادرة إليه ، وتساءلت بعد ذلك كيف يتسنى لهذا القائد أن يكون له مكان فى جيش دولة تعلن أنها ديمقراطية .



إسحق رابين : القمع بالتكليف

منذ ذلك الحين تولد لدىَّ انطباع بأن الحرب القادمة ستكون على يد شارون ، ويمكن للمرء الذى يتمتع ببصيرة نافذة أن يدرك أن الحرب سمة واضحة فى حياة شارون ، وأنه يدخر حربًا أخرى لإسرائيل ينتظر الوقت المناسب لشنها .

وفى الأشهر الأولى لعام ١٩٨٢ اتضح لنا جميعا أن "حرب شارون" ستكون فى لبنان ، وبدأ المعلقون السياسيون فى وسائل الإعلام – إلى جانب السياسيين – يناقشون علنا النقاط الإيجابية والسلبية لعملية الغزو ، وأعلن ثلاثة من رؤساء أركان الجيش السابقين هم إسحاق رابين ، وحايين بارليف وموردخاى جور ، وقد أصبحوا نوابا فى البرلمان بعد تقاعدهم ، أعلنوا أن غزو لبنان لن يحل المشكلة الفلسطينية ، وأنه ليست هناك أية متاعب فى شمال إسرائيل وأن قرى منطقة الجليل تعيش فى هدوء وسلام .

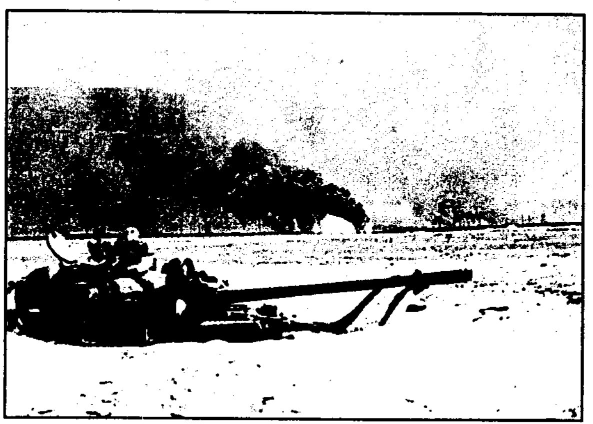
وبدا أن الحرب أصبحت لا يمكن تجنبها ، لماذا ؟ لقد سمعت ردودًا عديدة ولكنى لم أقتنع بأى منها ، ولكنى وصلت بعد تفكير إلى نتيجة تقول إنه عندما يقتنع الجيش بإمكان تحقيق النصر ، فإن قدرته تصبح هائلة فى نقل هذا الاقتناع إلى جميع فئات الشعب، حتى أكثر المواطنين حبًا للسلام تغريهم دائمًا إمكانية النصر .

كما بات واضحًا أنه ليس فى وسع أحد أن يفعل شيئًا لوقفها ، وأذكر أننى كنت أتناول طعام الغداء مع البروفسور مايكل والترز بجامعة برينستون الأمريكية قبل عملية الغزو بثلاثة أشهر ، واقترحت بأن نقوم معًا بالانتحار ونقول فى وصيتنا إننا انتحرنا من أجل إيقاف "حرب شارون" ، ولكننا فكرنا وقلنا لأنفسنا أنه حتى لو تجمع جميع المفكرين فى الولايات المتحدة وأصدروا بيانًا يطالب بالتعقل والتوصل إلى حل سلمى لأزمة الشرق الأوسط ، فهل سيقوم الجنرال شارون بقراءة هذا البيان وتحليله؟ وهل سيهتم بهذا البيان مساعدو شارون وخبراء صواريخه ورجال السلاح الجوى والبحرية ورجال مخابراته وخبراء الحرب النفسية الذين يقودهم؟ وهل سيعتبرون أن لهذا البيان قيمة؟ وحتى إذا نفذنا عملية الانتحار فهل ستؤدى إلى إثارة أية مشاعر فى قلب هذا الجنرال الإسرائيلى؟!

ولم يقف أحد فى طريق هذه الحرب ،وبدأ شارون هجومه فى الساعة الحادية عشرة صباح الأحد من ٦ من يونية ١٩٨٢ ، وإن كانت الحرب قد بدأت بالنسبة لى قبل ذلك بست عشرة ساعة عندما تم استدعاء ابنى دانيال لأداء الخدمة العسكرية ، وقد بدأت الحرب بالفعل عندما تحرك شارون بثلاثة أرتال من المدرعات ، والإسرائيليون لا يشعرون بأن هناك حربًا إلا إذا اشتركت القوات البرية ، فعندما كانت الطائرات الإسرائيلية تشن هجماتها على لبنان وتعود إلى قواعدها مرة أخرى ، لم يكن هناك انطباع بأن هناك حربًا ، ربما لأنه لم تكن هناك خسائر فى الأرواح نتيجة الهجمات الجوية ، أما الآن فالأمر مختلف، لكى يكون هناك غزو من ناحية التكتيك العسكرى فيجب أن تكون هناك قوات مشاة لتحتفظ بالأرض .

ولم يحدث فى أى حرب من قبل أن تركزت الأنظار وتبلورت الروح المعنوية فى شخص واحد مثلما حدث فى هذه الحرب ، فقد كان شارون فى كل مكان وعلى كل لسان ، ربما لو لم يكن موجوداً لما نشبت الحرب أصلاً ، أما وقد اندلعت بالفعل فالجميع يفضلون أن يكون قائدهم شارون .

وكان أول أيام الحرب سهلاً بالنسبة للقوات الإسرائيلية ، وفى اليوم الثانى جاءتنا أنباء الانتصارات ، وفى اليوم الثالث تيقنا أن الحرب لن تستمر سوى بضع ساعات أخرى، وفى اليوم الرابع حاولنا أن نستنتج من الأنباء أية إشارة لما يحدث بالضبط ، وحتى ذلك الوقت لم نكن نعلم سوى بأنباء العمليات العسكرية ، ولم تكن هناك أية أنباء عن قتل الأطفال اللبنانيين أو تدمير المدن ، كان الأمر بالنسبة لنا مجرد عملية عسكرية ، وبالتالى لم يكن هناك ما يثقل ضمائرنا ، غير أنه فى اليوم الخامس وكان الخميس ١٠ يونيو بدأت مشاعر الذنب تجتاحنا، فقد بدأت أنباء ما يحدث فى مسرح القتال تتسرب ، وحيث إن إسرائيل دولة صغيرة ومجتمع مغلق ضئيل التعداد ، فإننا نعلم بسرعة ما يحدث للآخرين ، كما أن الأخبار تنتشر بسرعة هائلة ، وحين بدأ بعض الجنود فى العودة إلى أسرهم فى إجازات خاطفة لمدة ٢٤ ساعة ، فإنهم كانوا مصدراً ثميناً للأخبار الحقيقية بخلاف ما تذيعه وسائل الإعلام ليل نهار .



لماذا كان دخولهم ؟

وقد قابلت بعض هؤلاء الجنود العائدين فى إجازة ، وراعنى نظرات الرعب التى تطل من عيونهم ، كانت ملامحهم تنطق بالذهول ، كانت تقول إنه للمرة الأولى فى تاريخ الحروب الإسرائيلية يقوم الجنود بتدمير مدن بأكملها وقتل المدنيين بمن فيهم من أطفال ونساء وعجائز دون مبرر من الناحية العسكرية البحتة .

## حروب التتار

وكان هناك مصدر آخر لأنباء هذه الفظائع ، الصحفيون الإسرائيليون أنفسهم الذين كانوا يذهبون إلى جبهة القتال ثم يعودون لكتابة تعليق أو تحليل ، وعلى الرغم من أنهم لم يكتبوا فى تعليقاتهم شيئا عن رائحة الأموات فى شوارع المدن اللبنانية التى اجتاحتها القوات الإسرائيلية إلا أنهم كانوا يقصون كل شىء فى جلساتهم الخاصة ، كانوا يقولون إنهم لا يستطيعون التخلص من رائحة الجثث المتعفنة فى الشوارع وأغلبها لنساء وأطفال ، والتى لم تجد من يواريها التراب .

وكانوا يحكون عن الدمار الذى شهدوه بأعينهم لثلاث مدن لبنانية كبرى : صور وصيدا والدامور ، كانوا يروون كيف اشتركت الطائرات والقطع البحرية وبطاريات المدفعية فى تدمير هذه المدن تماما ، بحيث لم يبق منها سوى أنقاض ، وكيف أن ذلك هو النتيجة الطبيعية لحرب يمتلك أحد طرفيها كفة عسكرية راجحة تماما .

وبدأت هذه القصص تتناقل على كل لسان ، فى الجلسات العائلية ، فى حفلات الاستقبال ، فى طوابير البنوك ، أو بين الأمهات الجالسات فى انتظار خروج أطفالهن من دور الحضانة والمدارس ، وكان يمكن قبول فكرة تجاوز بعض الجنود الأوامر أثناء العمليات العسكرية وقيامهم بعمليات التدمير والسلب والنهب ، ولكن من غير المقبول أن يأتى ذلك من الجيش الإسرائيلى كله ويتعدى التدمير إلى قتل المدنيين العزل من السلاح فى حرب غير متكافئة على الإطلاق ، وهذه الحقيقة أخذت تلقى بثقلها على الضمير الإسرائيلى .

ومن الأمور المعتادة أن تجرى المناقشات فى إسرائيل فى أعقاب كل حرب حول تكاليفها وكفاءة القيادة العسكرية والإنجازات السياسية والعسكرية والحالة الاقتصادية بعد الحرب ، ورعاية الجرحى وخلافه ، غير أن نمط هذه المناقشات تحطم فى حرب لبنان ، فبعد أسبوعين فقط من نشوب الحرب بدأ المواطنون يتساءلون إذا ما كانت هذه الحرب عادلة أساسًا ؟

وبدأوا لأول مرة يفكرون فى الضرر الذى ألحقوه بالآخرين ، فقد كان لديهم إحساس بالذنب وهذه المشاعر لم تكن موجودة من قبل لدى رجل الشارع الإسرائيلى، فقد كان إحساس الإسرائيليين فى الماضى يتركز عند نقطة واحدة : أنهم ضحايا ومنبوذون ومرفوضون من الجميع .

وفى الحروب السابقة التى خاضتها إسرائيل كانت القيادة تقول دائمًا لمواطنيها أنها تخوض هذه الحروب دفاعًا عن النفس من اعتداء وتهديد الآخرين ، ولكن فى حرب لبنان كان الأمر مختلفًا . فلم تستطع القيادة الإسرائيلية إقناع مواطنيها بأن هناك اعتداء من جانب لبنان ، بل كان هناك تشكيك فى وجود مبرر أساسى لخوض هذه الحرب ، وقد زاد هذا الإحساس بعدم وجود سبب يدعو لغزو لبنان أثناء الاجتياح العسكرى والدمار الذى ألحقته القوات الإسرائيلية بالمدن اللبنانية ، وهذا الاجتياح يعنى فى المقام الأول أن الجيش الإسرائيلى متفوق للغاية من الناحية العسكرية وليس أمامه قوة عسكرية خطيرة تستطيع مقاومته ، فكيف إذن تستطيع هذه القوة العسكرية اللبنانية والفلسطينية الصغيرة أن تشكل تهديدًا لأمن إسرائيل ؟

## وبدأ الشعور بالعار

إن التركيب النفسى للشخصية اليهودية غير عادى، فكل يهودى يحمل داخله أثر جرح نفسى قديم أو حديث نتيجة للإذلال الذى تعرض له ، وبالتالى فإن هذه الشخصية أحوج ما تكون للبطولة للشفاء من هذه الجراح، ولكن ما حدث فى لبنان أبعد ما يكون عن البطولة التى يحتاجها الشخص اليهودى ، وبدا السؤال الذى يردده

الجميع هل البطولة العسكرية هى صورة هذا الرجل المسن الذى يبحث وسط الأنقاض عن حفيده ، أو هذا الرجل الذى يفر هاربًا من الجحيم حاملاً بين ذراعيه ابنتــه ذات السنوات العشر ، أم صورة مجموعة من الرجال والنساء والأطفال ترفع أيديها فـــوق رءوسها إشارة للاستسلام ويحيط بها حراس إسرائيليون مدججون بالسلاح ، وهـؤلاء الأسرى ترتسم على وجوههم معان وتنطق عيونهم بعبارات لا يفهمها إلا اليهود الذين عانوا من قبل من الشعور بالإذلال ، ومع ذلك بمحرم علينا أن نعقد المقارنات بين مـا يحدث اليوم لهؤلاء العرب وبين ما حدث لنا فى الماضى ، لأننا لو عقدنا هذه المقارنات لاتضح أن الجرائم التى ارتكبت فى حقنا بالأمس هى نفس الجرائم التى نرتكبها اليوم .

وكان أول مسئول إسرائيلى يدرك مخاطر هذا الشعور بالعار تجاه ما يحدث فى لبنان هو مناحم بيجين رئيس الوزراء ، ففى لقاءاته الإعلامية اليومية المتعددة ، كان يحـاول جاهدًا أن يصور الأهوال والدمار الذى قام به الجيش الإسرائيلى على أساس أنه يـأتى فى إطار العمليات العسكرية وما يمكن أن يسفر عنها من فظائع ، وحاول أن يعقـــد مقارنات بين تدمير صيدا وبين تدمير مدينة درسدن الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانيـــة، ورد على الانتقادات التى وجهت إليه بأنه يخوض حربًا غير متكافئة فقال : إن بريطانيا سبق أن فعلت هذا عندما خاضت الحرب ضد الأرجنتين حول جزر فوكلاند .

ومن ناحية أخرى أصدر بيجين تعليماته إلى أجهزة الإعلام بعدم تصوير ضحايـــا الحرب اللبنانية من المدنيين ، وإن حدث وظهر عفوا صورة طفل لبنانى قتيـــل علـــى شاشة التليفزيون الإسرائيلى ، فإن مناحم بيجين كان يرد على الفور بـــالقول بـــأن النازيين أحرقوا فى الأفران مليونا ونصف المليون طفل يهودى ثم لا يلبـــث أن يجـــتر ذكرياته العائلية فى هذا الصدد .

ولكن وجهة نظر بيجين كانت تقابل من آن لآخر بانتقادات متعـــددة ، فيتهمـــه منتقدوه بأن آراءه ضرب من العبث لا يستند على أساس ، وأنه يفتقر إلى المعلومـــات الصحيحة لأنه جاهل بالتاريخ، وأن المقارنات التى يعقدها لا تناسب هذا السياق الـــتى ذكرت فيه ، كما أنه يخرج بالحقائق من إطارها ليشكلها على هواه .

وبدأت مقارنات من نوع آخر ، ولكنها على المستوى الشعبى هذه المرة، فقد بدأ اليهود الاشكناز يعقدون مقارنات بين قصف المدن اللبنانية وتدميرها وبين ما رأوه خلال الحرب العالمية الثانية حينما قصفت مدن عديدة فى أوربا، كما أن منظر النساء اللبنانيات اللاتى يقفن فى طوابير طويلة انتظارًا لتوزيع الماء أو الطعام الذى تحمله سيارات عسكرية هو نفس منظر النساء الأوربيات أثناء الحرب العالمية الثانية .

وبالنسبة لليهود السفارديم كان كل ما يشاهدونه على شاشة التليفزيون من مبان ووجوه لبنانية مألوفًا لديهم ، فهذه الأبنية والملامح والملابس شرقية ، وبوسعهم أن يتخيلوا حياة اللبنانيين ومأساهم ، ومع ذلك فهؤلاء اليهود السفارديم لم يتعرضوا للاضطهاد فى المغرب أو فى تونس ، بل أهم يستطيعون حاليًا أن يعودوا إلى هاتين الدولتين لزيارة أسرهم التى بقيت هناك .

وهذه المقارنات أسفرت عن سؤال يردده الجميع : هل من الممكن أن يفعل اليهود هذا؟ والرد : أن ذلك سيخرب روح اليهود من الداخل .

وانتقل الإحساس بالعار إلى الجنود ، فليس ما حققوه نصرا ، فمهما كان يتردد عن ترسانات الأسلحة التى تملكها منظمة التحرير الفلسطينية "وكان هذا يقال أساسا بهدف الحصول على مزيد من المعونات الأمريكية" إلا أن المنظمة لم تكن تملك طائرات أو قطعا بحرية أو دبابات حديثة ، إذن فالغزو لم يكن حربا بالمفهوم العسكرى البحت لهذه الكلمة ، وبالتالى فليس هناك انتصار ، بل ليست هناك بطولة على الإطلاق ، فمن المؤكد أن البطولة شىء آخر غير قتل الأطفال والمدنيين العزل من السلاح وقصف المدن بالطائرات والمدفعية .

ومن المضحك أن يخرج مناحم بيجين ليعلن على الجمهور أن إسرائيل تفعل فى لبنان ما لم يجرؤ التشيك على فعله عام ١٩٣٨ أى مواجهة فرق البانزر التابعة لهتلر ، وللرد على بيجين يجب أن نعود بذاكرتنا إلى الوراء لنعقد المقارنة ، وسيتضح لنا أن الفلسطينيين فى لبنان لا يمتلكون فرق "بانزر" خاصة بهم ، وأن أرتال الدبابات التى زحفت على لبنان إسرائيلية الجنسية ، وأنه فى عام ١٩٣٨ (وكان ذلك أثناء الحرب

العالمية الثانية) رفضت إنجلترا وفرنسا إمداد تشيكوسلوفاكيا بالطائرات ، بينما نجد حاليًا أن الولايات المتحدة تزود إسرائيل بسخاء بالطائرات وأنظمة الاتصالات ووحدات المدفعية والصواريخ والبنادق والذخيرة ، حتى المدفع الذى تم تركيبه على الدبابة "ميركافا" الإسرائيلية الصنع قدمته واشنطن ، هذا بخلاف التأييد الدبلوماسى الواسع النطاق ، والسؤال الآن هو : هل كان بمقدور إسرائيل أن تحارب إذا كانت القوى الخارجية قد تخلت عنها مثلما حدث لتشيكوسلوفاكيا ؟

إنه لسؤال مؤلم حقًا وقد كان من الأفضل لبيجين ألا يطرح هذه المقارنة من أساسها ولكن يبدو أنه يقف مع الخيار العسكرى ، والإسرائيليون يدركون ذلك ، فقد كنت أتنزه فى إحدى الحدائق العامة مع حفيدى حينما قابلنى صديق، وبعد أن داعب حفيدى ابتسم بمرارة وقال : "إن دوره فى التجنيد سيأتى فى الحرب التى ستنشب عام ١٩٩٩" .



**بعد إعلان الكيان الصهيونى ١٩٤٨ ، الإرهابى بيجين :**

**" أنا أقتل إذن أنا موجود "**

وهكذا خلق بيجين فى إسرائيل مشاعر توقع الحرب ، وعلى سبيل المثال أجرى التليفزيون الإسرائيلى مقابلة مع بعض الجنود على الجبهة اللبنانية بعد أسبوعين من الحرب ، وحينما سئلوا عن المدى الذى سيتقدمون إليه داخل الأراضى اللبنانية رد أحدهم بسخرية قائلاً : "إن هناك معبدًا يهوديًا فى أنقرة تعرض لعملية تخريب، وبالتالى فإننا سنصل إلى هناك بالتأكيد" بينما صاح آخر : "نحن نعلم أن موسكو هى مصدر صواريخ الكاتيوشا التى يستخدمها الفلسطينيون ولذلك سنتجه إلى هناك لمصادرة هذه

الصواريخ من المنبع" ، وصرخ جندى ثالث فى سخط : "ما هى الحرب .. إنها دمـــار وموت فحسب" .

## لأول مرة

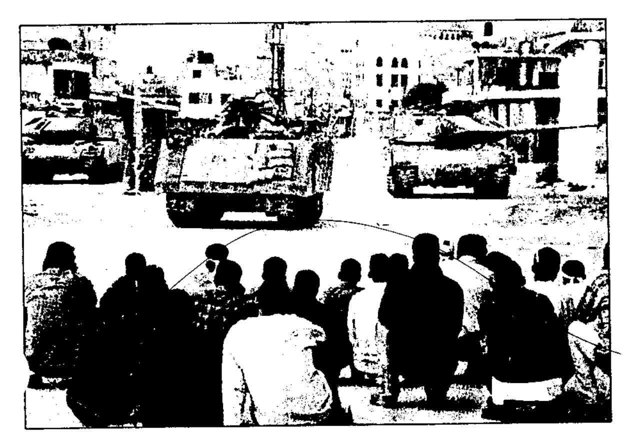
دخلت الحرب أسبوعها الثالث ، كانت حرارة الجو أعلى من معدلاتها الطبيعيـــة ، وامتلأت شواطئ تل أبيب بالمصطافين معظمهم من الإسرائيليين ، فقد اختفى الســياح إما بسبب الحرب أو نتيجة للانتقادات التى وجهت إلى إسرائيل فى الخارج وخاصــة فى أوربا الغربية والولايات المتحدة .

وبالمثل امتلأت حمامات السباحة عن آخرها مما يعنى أن الحياة تسير بصورة طبيعيــة فى إسرائيل كما لو كانت البلاد ليست فى حالة حرب ، ولكن التليفزيون الإســـرائيلى تحاشى أن يصور هؤلاء المصطافين لأنه يعتبرهم نموذجًا سلبيًا يعنى أن التضحيـــة الـــتى يبذلها الجنود على جبهة القتال لا يشاركهم فيها المدنيون ، ولكن لكى يدرك المـــرء أن الحرب فى لبنان ليست قضية محل اهتمام مشترك من جانب الإســـرائيليين يكفيـــه أن يذهب إلى الشواطئ والملاهى الليلية الصاخبة فى تل أبيب ، وعليه أن يترل إلى الشارع ليدرك الحقيقة بنفسه بدلاً من الإصغاء إلى ما تردده وسائل الإعلام الإسرائيلية .

وفى صباح يوم الاثنين الذى يوافق بداية الأسبوع الرابع للحرب تلقيت تصريحًـــــا بزيارة صور وصيدا، تصفحت جريدة "جيروسالم بوست" التى تصـــدر بالإنجليزيـــة ، لفت نظرى تقرير للمراسل العسكرى للجريدة يقول فيها : "لقد أحـــــاط الضبـــاط الإسرائيليون فى أحد المواقع بثلاثة مراسلين للصحف الإسرائيلية واتهموهـــم بإخفـــاء الحقائق والكذب على القراء ، وعدم تقديم تقارير صادقة عما يحدث فى ساحة القتال ، واتهم الضباط الصحفيين بأنهم خدم لدى وزير الدفاع شارون ، وبأنهم سمحوا لهـــذه الحرب بأن تتجاوز المدى الذى كان مخططًا له أصلاً وذلـــك عـــن طريـــق تكـــرار التفسيرات الرسمية التى يعلم الجميع أنها زائفة" .

وقد بدأ الإسرائيليون يدركون أن شيئا غير عادى يحدث ، ولكنه لم يحدث فى تاريخ إسرائيل أن تم فضح نفاق الحكومة والشر الكامن فى شخص وزير الدفاع بمثل هذا الوضوح أثناء نشوب الحرب ، فلأول مرة تهاجم إسرائيل دولة مجاورة دون سبب واضح ومقبول ، ولأول مرة تدمر إسرائيل مدنا بأكملها : صور وصيدا والدامور وبيروت، ولأول مرة يكذب المتحدثون العسكريون ، ولأول مرة تنضم الصحافة لخداع الرأى العام ، ولأول مرة يحارب الضباط دون أن يعرفوا ما هى أهداف المعركة، ولأول مرة يتم إخفاء حجم خسائر الدولة التى نحاربها وعدد قتلاها ، ولأول مرة يقوم ضباط وجنود الاحتياط الذين عادوا فى إجازات بمظاهرة فى شوارع القدس لأنهم شعروا بأنهم خدعوا ، ولأول مرة تتردد النكات علانية تنتقد الحكومة وجيش الدفاع .

ومن بين هذه النكات التى تتردد أن أحد الجنود سأل قائده عن الاتجاه الحقيقى الذى يجب أن يوجه إليه مدفعه لأنه كلما أطلق النار سمع المتحدث العسكرى الإسرائيلى يقول إن العدو فتح النيران علينا ، ونكتة أخرى تقول إنه أثناء قيام أحد الضباط بتدريب الجنود على إطلاق رصاص بنادقهم فى الهواء صوب الجنود رصاصهم فى صدور المدنيين اللبنانيين ، فصاح بهم الضابط لقد قلت لكم أطلقوا رصاصكم فى الهواء وليس فى الهواء بداخل رئة اللبنانيين .



**الاجتياح الإسرائيلى اليومى للمدن الفلسطينية ،**
**واعتقال العشرات من الفلسطينيين**

ولم تحدث هذه الظواهر فى الحروب الماضية ربما لأنها لم تحطم القيم التى يعتنقها اليهود، ربما لأن الحروب الماضية كانت قصيرة ، ولكن "حرب شارون" فى لبنان كانت طويلة يشوبها البلبلة ، ولذلك ثارت تساؤلات عديدة أثناء القتال ، وفى الأسبوع الثالث للحرب شعرنا جميعا بالضيق لأننا لم نستطع الاستمرار فى خداع أنفسنا ، وبدأنا نشعر بالعار الناتج عن إحساسنا بأننا نحن اليهود الذين كنا ضحايا للبشرية وللدول وللعالم طوال فترة طويلة من التاريخ أصبح لنا ضحايا الآن .

وهذه الحرب أثارت ضدنا انتقادات كثيرة فى العالم ، فهذا الصحفى الأمريكى ريتشارد كوهن الذى كان يؤيدنا فى الماضى قد انقلب علينا ، فقد كتب فى صحيفة "واشنطن بوست" قائلا : "إن إسرائيل ستدفع ثمن غزوها لبنان غاليا ، فالذى كسـ من أرض ستخسره فى فقدان الثقة فيها ، فلم يعد أحد يؤمن بها ، والأ اض ثمنا كافيا لهذه الخسارة" .

## من يوقف الجنون الداخلى فينا ؟

أخيرا حان وقت قيامى بزيارة المدن اللبنانية ، وصلت إلى كبيوتز "جيشير هاتسيف" الواقع على البحر المتوسط ، وهو يبعد عن الحدود اللبنانية ببضعة كيلومترات فقط ، دخلت غرفة الطعام الرئيسية وهى تخدم سكان الكبيوتز كلهم ، كانت حجرة أنيقة ونظيفة ، وجدت عددا من الصحفيين مجتمعين انتظارا للإذن لهم بدخول الأراضى اللبنانية ، وبينا أنا جالس فى انتظار الإذن أخذت أتأمل فى وضع الكبيوتزات التى بناها الرواد الإسرائيليون الأوائل ، وتذكرت إحصائية قرأتها تقول إن ٢٠ فى المائة من الجنود الإسرائيليين الذين قتلوا أثناء غزو لبنان من شباب الكبيوتزات، على الرغم من أن نسبة سكانها لا تتعدى ٢ فى المائة من مجموع تعداد إسرائيل، ومن المفارقات أن معظم هؤلاء الشباب ضد الحرب ، ولكنهم قبلوا الاشتراك فيها مرغمين.

وليس أمامنا سوى أن ننتظر إلى حين انتهاء القتال وعودة هؤلاء الشباب إلى الكبيوتزات مرة أخرى لنعرف هل ستكون هذه هى المرة الأخيرة التى يذعن فيها

هؤلاء الشباب للانضباط العسكرى وينخرطون فى سلك الجندية لمجرد الامتثال للأوامر، أو أنهم سينتهجون أسلوب حركات السلام الأمريكية فى مقاومتها للتجنيد أثناء حرب فيتنام .

مازلت أجلس فى غرفة الطعام فى انتظار وصول الإذن ، جال بخاطرى حديث والدة الماجور **"جيئورا هارنك"** الذى قتل أثناء حصار قلعة الشقيف فى المراحل الأولى للغزو ، لقد كان الماجور جيئورا من أنشط أعضاء حركة "السلام الآن" ، كان ضد الحرب والعدوان ولكنه لم يعش لكى يتسنى له تحقيق أفكاره ، بل أجبر على خوض المعركة إلى أن قتل، إن والدته تتساءل من وقت لآخر هل كانت محقة فى تربية ولدها بهذه الطريقة ليشب وطنيًا يلبى أوامر قادته ، ربما لو كانت قد زرعت فى قلبه بغض الآلة العسكرية الإسرائيلية لكان قد رفض الاستجابة العمياء لأوامر الجنرال شارون وهى الأوامر التى جعلته يلقى حتفه .

ولكنى أتذكر حديث أم أخرى أنشأت ولدها على حب السلام فكان أن رفض الخدمة فى جيش يرى أنه جيش احتلال ، وصدر ضده حكم بالسجن لمدة شهرين فى أحد السجون الحربية ، ثم طرد من الخدمة العسكرية ، ولكنه اكتشف أنه من العسير أن يجد عملاً له فى إسرائيل ، فقد كان أصحاب الأعمال فى كل مكان يطالبونه بشهادة الخدمة العسكرية ، فاضطر فى النهاية أن يترك إسرائيل بأكملها ويهاجر إلى الخارج ،وما أظن أنه سيعود إليها مرة أخرى ، وبذلك تحول مرة أخرى إلى يهودى فى الشتات يجوب العالم بحثًا عن وطن ، وهو تحول خطير لم يستطع الرواد الصهيونيون الأوائل أن يتكهنوا به .

رحت أحدق من النافذة وأمعن النظر فى الصحراء التى تحولت إلى حقول ، وأخذت أتساءل كيف لم تستطع هذه البلاد بكل ما فيها من مزارع جماعية وصحافة وأحزاب سياسية وحياة أكاديمية مؤثرة أن توقف حربًا كانت الاستعدادات لها تجرى على قدم وساق أمام الجميع منذ فترة ، وهى حرب لم توضح دوافعها ، إنما ذكر أسبابها الجنرال شارون الذى أصابت الحمى عقله ، وهى أسباب تخرج عن إطار

الواقع، وهذا يؤكد حقيقة أن الدفاعات المحكمة التى أقمناها حولنا على مدى سنوات طويلة وبجهود مضنية لم تنجح فى حمايتنا من الجنون الداخلى فينا ، فمنذ خمسة أشهر قلت فى اجتماع عقد فى نيويورك لصالح إسرائيل : "إن مؤسسى الجيش الإسرائيلى أطلقوا عليه اسم جيش الدفاع ، والآن أصبح يستخدم لاحتلال أراضى الغير أو فى شن الحرب على الدول الأخرى". وقلت أمام الاجتماع إن الجنرال شارون يعد الآن حربًا وتساءلت من الذى سيقوم بوقف الجنرالات المجانين فى الجيش الإسرائيلى .

## زيارة لمدن الأشباح

أخيرًا جاء الضابط الذى سيرافقنى مع صحفيين آخرين فى زيارتى لمدينتى "صور" و"صيدا" .. قادنا الضابط عبر المدينتين اللتين صارتا مجرد أنقاض، ومع ذلك فالحقيقة ليست كاملة ، ينقصها شهادة الإنسان الذى عاشها ، فمعظم السكان لاذوا بالفرار من الجحيم ، وإذا أردنا أن نعرف جانبًا آخر من الحقيقة ينبغى علينا أن نتوجه إلى المستشفيات والسجون لنسمع من نزلائها ما حدث ، ويتعين علينا أن نتحدث إلى الأمهات اللاتى فقدن أطفالهن حينما قام سلاح الجو الإسرائيلى بقصف المدن الخالية من أية أسلحة للدفاع الجوى ، ويجب علينا أن نبحث تحت الأنقاض وأن نلمس بأيدينا العظام المحترقة .

وقد حاولت من جانبى التحدث إلى من بقوا فى مدن الأشباح هذه التى لم يعد يرى فيها سوى بقايا منازل ، وعندما مررت أمام معسكر اعتقال طلبت التحدث مع السيدات الجالسات أمامه منذ ساعات طويلة فى انتظار مضن على أمل أن يجدن أزواجهن أو أولادهن فيه على قيد الحياة .

وفى هذه اللحظة تذكرت زوجتى وابنى الأصغر هكتور ومعهما حاخام اليهود فى المدينة التى كنت أعيش فيها بالأرجنتين ، وكيف كانوا يترددون من آن لآخر على قسم الشرطة على أمل أن يعلموا المكان الذى كنت قد سجنت فيه . غير أن الضابط

المرافق لى أفهمنى أن التحدث مع المسجونين فى المعتقل أو أسرهم يتطلب تصريحًا خاصًا ، وكان من الصعب الحصول عليه وقتذاك .

وطلبت السير وحدى فى سوق المدينة ، ولكنهم رفضوا طلبى قائلين إن ذلك يشكل خطورة على حياتى ، فلربما ينفجر لغم فىَّ ، أو أتعرض لهجوم ما ، ولم يبق أمامى سوى أن ألاحظ ما أراه بعمق وفهم مستخدمًا ما تعلمته من قراءاتى وتجاربى ، فقد يساعدنى ذلك على التحدث إلى خرائب صور وصيدا ، وأن أفهم شهادهما الصامتة حول ما حدث مادمت لا أستطيع أن أتحدث إلى سكانها من البشر ، وقد وصلتنى هذه الشهادة كالسيل الجارف ، دون رقيب ، ولكنها كانت قاسية لا ترحم .



الأنقاض فى جنوب لبنان

وقفت أنظر إلى هذه الخرائب الممتدة أمامى تحت الشمس المحترقة ، كان الدخان المنبعث من الحرائق قد تلاشى مع الرياح ، وقلت لنفسى كان ينبغى أن يكون هناك بدلاً من هذه الخرائب آلات البيانو ، وأدوات الطهو وصور العائلات ، والكتب المدرسية والستائر المطرزة والساعات وأحواض الزهور ، وكان ينبغى أن يكون بداخلها الحياة اليومية التى تسير بإيقاعها الرتيب ، ولكن ليس لذلك كله أى أثر .

ليس هناك سبب مقبول لتدمير صور ، وأيضا الذريعة التي يرددها شارون من أن الفلسطينيين لديهم ترسانة من الأسلحة ومعسكرات تدريب في لبنان بشكل يهدد أمن إسرائيل ، هذه الذريعة أيضا ليست مقبولة لتبرير هذا الدمار ، وحاولت أن أحصى بالتقريب عدد المنازل التي دمرت متذكرا أنه منذ أن عبرنا الحدود إلى داخل لبنان لم يقع بصرى على مترل واحد لا يحمل بصمات الحرب وآثارها ، وتذكرت أننى قمت قبل ثلاثة أيام من بداية الغزو بجولة فى منطقة الجولان ومنطقة الجليل الشمالية و لم أجد سببا واحدا يكفى لإعطاء أى مواطن إسرائيلى الحق فى التواجد هنا فوق الأراضى اللبنانية ، وشعرت بالتضامن مع هؤلاء الذين كانوا يعيشون هنا فى هذه المدن .



مقر المارينز بعد تدميره

وقد تفتت بعض المبانى تماما وتكومت على هيئة جبل عال ، بينما انتشرت فى الشوارع الحفر المتخلفة عن إلقاء القنابل ، ورأيت منازل أخرى قد انهارت حجراتها الداخلية و لم يعد بها سوى الجدران الخارجية السوداء تقف وحيدة فى العراء تساند بعضها بصعوبة ، وهناك منازل تعرضت لدمار جزئى مما شجع من بقوا على الإقامة فيها .

وحينما وصلنا إلى صور زادت مجموعة الصحفيين الذين يقومون بالزيارة ، فقد انضم إلينا مصور صحفى من مجلة "تايم" الأمريكية ، وصحفى ألمانى ،وزاد عدد الضباط المرافقين لنا إلى خمسة ، وكنت على يقين من أننا لن نتعرض لأى خطر ،

ولكن الضباط أصروا على تحذيرنا فى كل خطوة ، وكانوا يراقبوننا وبالتالى لم أستطع أن أتحدث بحرية إلى من كنا نقابلهم من سكان ، وأيضا لم أثق فى كلام الأشخاص الذين كان الضباط يحضروهم إلينا للتحدث معهم ، وكنت أحاول استخلاص بعض الحقائق من هؤلاء الأشخاص فكنت أتحدث معهم بالفرنسية لأننى أعلم أن الضباط المرافقين لا يفهمون من اللغات الأجنبية سوى العربية والإنجليزية ، ومع ذلك لم أستطع التحدث بحرية لأن الضباط كانوا يأمروننا بالتحدث بالإنجليزية لكى يفهموا الحوار .

## حديث العيون

لقد ذقت بنفسى تجربة السجن عندما كنت فى الأرجنتين ، وعرفت أن للمساجين لغة خاصة بهم هى لغة العيون ، فهم يستطيعون التعبير عما يجول بداخلهم بنظراتهم حتى يمكن فهم حقيقة مشاعرهم فى الوقت الذى يتحدثون فيه حديثا مخالفا بألسنتهم أمام الحراس ، واستطعت أن أدرك بسهولة أن الكلام المعسول الذى ينطق به اللبنانيون الذين جلبهم الضباط إلينا يخالف ما تتحدث به عيونهم ، كانت العبارات التى تنطق بها ألسنتهم مكررة كأنهم يحفظونها عن ظهر قلب ، إنها لحظات مهينة بالنسبة لهم لا يشعر بها إلا من كان مسجونا مثلهم ، ومع ذلك فقد كانت أنظارهم مليئة بالاعتزاز بالنفس، وخطواتهم تتسم بالثقة والاعتداد .

وعندما كنا نمر فى أحد الشوارع سمعنا صيحات من النوافذ تقول "شالوم" أى "سلام" باللغة العبرية ، كما حيانا بعض المارة بهذه العبارة ، قد يفسر الإسرائيليون ذلك على أنه علامة ترحيب بنا من جانب اللبنانيين ، ولكن هناك جانبا آخر من الحقيقة ، فكل إنسان قد يضطر بسبب الظروف أن يتكيف مع الأوضاع السائدة ، والظروف السائدة هنا هى الخوف الدائم ، ويعلمنا التاريخ أن كثيرا من الشعوب تعلمت لغة الغزاة ، وأقول كم مرة اضطر اليهود إلى مجاراة الفاتحين فى لغاتهم

وعاداهم، لذلك فإن كلمة "شالوم" هنا قد تعنى الخوف وليس الترحيب ، ومن هنا لم أرد على هذه التحيات فكيف أصادق هؤلاء الذين قهرهم بالقوة .

نظرت مرة أخرى إلى الخرائب ، وحاولت أن أتأمل حال من كانوا يعيشون هنا قبل ثلاثة أسابيع ، وتخيلت دموعهم وصرخاتهم حين بدأ القصف، ووقع بصرى على نافذة عالية مفتوحة وبدت لى كعين خاوية فى جمجمة ، وحاولت تخيل وجوه الأمهات وهن يقذفن بأطفالهن من النوافذ هربا من الجحيم ، ربما هربن عن طريق السلالم التى اختفت الآن نتيجة للدمار ، أو ألقين عن أنفسهن البطاطين والمراتب لإطفاء النار المشتعلة فى ثيابهن ، وتخيلت نفسى وكأنى من سكان هذه المنازل ، ما الذى كنت سأفعله عندما يشب الحريق فى منزلى ، واخترت منزلا ما زالت ستائره باقية على حالها بمعجزة ، وتصورت أسرتى بداخله ، ثم يندفع الحريق ، وينبغى علينا أن نفكر بسرعة أى طريق نهرب منه ؟ وهل نهرب معا أم كل على حدة؟ وإلى أين نهرب؟

كل هذه الأسئلة دارت فى رأسى وأنا أنظر بأسى إلى المدينة التى تحولت إلى حطام فى أسبوعين ، دمرت فيها الشوارع التى كانت مزدانة بالأشجار المثمرة ، والشرفات التى كانت تطل منها الزهور ، وأيضا الإنسان ، إننى هنا بحاجة إلى الإنسان لكى أفهم منه الحقيقة ، لست أريد الإنسان الذى بقى هنا فى هذه الخرائب والذى يحاول أن يكيف نفسه مع الاحتلال ، بل أريد الإنسان الذى كان يعيش هنا ؛ الإنسان الذى مات أو سجن أو الذى لا يزال هاربا .

ويبدو أن المرافقين لى شعروا ببعض ما يجول فى خاطرى فصاح أحدهم كل شىء سيعود على ما كان عليه ، ولقد بدأنا فى تركيب كابلات الكهرباء ، وافتتحنا مصرفين ، أما سوق الخضراوات فقد قام اللبنانيون بتشغيلها ورفضوا مساعدتنا فى ذلك ، لم أفكر فى الدخول فى جدال مع المرافقين ، فقد علمتنى خبرتى الصحفية الطويلة أن الدخول فى مناقشات مع مسئولين ليس لهم سلطة إصدار القرار إنما هى إضاعة للوقت ، ولكنى كنت أرد عليهم أحيانا بتعليقات ساخرة لكى يفهموا أننى لا

أقبل باستسلام كل ما يرددونه على مسامعى ، وتحاشيت الدخول معهم فى جدل سياسى لأننى كنت أعلم مسبقا أنه محظور عليهم الرد على الأسئلة السياسية .

وفكرت فى هذه العبارة **"كل شيء سيعود إلى ما كان عليه"** ، حقيقة قد يكون من السهل إعادة بناء المدن وإن كان ذلك سيستغرق سنوات عديدة والكثير من الجهد والمال – ولكن هل من السهل إعادة الإنسان إلى ما كان عليه؟ إن المدينة لا تعنى فقط مجموعة من المبانى الجامدة ، إنما هى أيضا حضارة بكل ما تمثله هذه الكلمة من معان ، وهى تعنى أيضا بناء مجتمع ، وهذا ليس منظورا فى القريب العاجل ، لأنه من المتوقع أن تصبح لبنان "محمية" لإسرائيل التى ستقوم بدور رجل الشرطة الذى يحفظ الأمن من النزاعات بين الطوائف اللبنانية المسلحة والمتنافسة ، وتضع لبنان فى النهاية تحت نير "السلام العبرى" .

انتهت أخيرا زيارة مدن الأشباح ، وعدنا إلى الحدود إلى نقطة "روش هنكرا" ، وهنا تنفس الضباط المرافقون الصعداء ، فقد انتهت الزيارة بسلام ، جلسنا نستريح ونحن فى طريق العودة ، قال لى أحد الضباط وكان من الاحتياط : "ينبغى علينا بناء طريق أوتوستراد إلى لبنان ليحمل آلاف السائحين الإسرائيليين إلى هناك ، وأيضا لإنعاش التجارة بين البلدين" .

و لم أشأ الدخول فى نقاش سياسى مع الضابط ، ولكنى قلت لنفسى إنه لو ذهب الإسرائيليون إلى لبنان بعد خروج منظمة التحرير الفلسطينية ، فسيجدون نصف مليون فلسطينى يعيشون هناك فكيف ستزدهر التجارة، إن الإسرائيليين لا يستطيعون دخول المناطق العربية بالضفة الغربية إلا فى دوريات مسلحة وذلك على الرغم من احتلالها منذ سنوات ، وكيف يتحدثون عن عودة الحياة الطبيعية وهناك ثلاثة ملايين ونصف المليون يهودى على استعداد لتحويل مليون فلسطينى إلى مواطنين من الدرجة الثانية بكل ما يحمله ذلك من الظلم الثقافى والاجتماعى والاقتصادى .

وعدت إلى منزلى فى تل أبيب ، وكان هناك سؤالان يترددان منذ بداية الأسبوع الرابع للحرب : إلى متى سيستمر القتال ؟ ألم نحصل على ما يكفى من الأرض ؟

ودخلت الحرب فى لبنان شهرها الثانى ، واشتركت فى اجتماع شعبى دعت إلى عقده حركة "السلام الآن" الإسرائيلية ، حضر الاجتماع مائة ألف مواطن إسرائيلى ، أعربنا جميعًا عن استعدادنا للانسحاب الفورى من لبنان والتفاوض فى الحال مع الفلسطينيين بغض النظر عمن يمثلهم فى المفاوضات ، وأعلنا أننا مستعدون لقبول إنشاء دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية .

ولاحظت أن معظم المشتركين فى هذا الاجتماع من اليهود الاشكناز الذين ينحدرون من أصل غربى ، وهذا يعنى أن اليهود السفارديم الذين ينحدرون من أصل شرقى يقفون فى المعسكر المعارض لحركتنا ، ومن المعروف أن السفارديم فى إسرائيل أقل نصيبًا فى التعليم والثقافة والثراء وفى تقلد المناصب من اليهود الغربيين وبالتالى فهم يشكلون القطاع الديماجوجى أو الغوغائى من السكان ، ولى تجربة عريضة مع نفس هذا القطاع عندما كنت أعيش فى الأرجنتين ، فقد كان القطاع الأكثر فقرًا والأقل تعليمًا هو الذى يقف وراء الديكتاتور الأرجنتينى بيرون حتى فى الأوقات التى كان يقودهم فيها إلى العزلة عن العالم ، وإلى الأزمة الاقتصادية أيضًا حينما كان يمارس معهم سياسة القمع مستخدمًا الديكتاتورية العسكرية، فولاء هذه الطبقة التى غالبًا ما تكون الأغلبية يكون للشخصيات ذات الطبيعة الزعامية والقوية والتى يبدو أنها لا تقهر، وهذا لا يؤدى إلى انتهاج التعقل أو إلى حياة سياسية صحية .

وعلى الرغم من أن إجماع مائة ألف مواطن إسرائيلى فى حركة "السلام الآن" على قبول المفاوضات مع الفلسطينيين قد لا يغير قرارات الحكومة الإسرائيلية أو يكون له تأثير بارز على تطورات الأحداث ، إلا أنه يدل على وجود رفض لغزو لبنان من جانب قطاع هام من المواطنين الإسرائيليين ، كما أن هذا الإجماع يؤكد أن سياسة شارون فى تحويل جيش الشعب إلى جيش للدولة ستلقى معارضة جادة .

وفى هذا الاجتماع حمل الرسام الإسرائيلى إيجال توماركين لوحة زيتية كبيرة مكتوبًا عليها "اريل شارون سفاح لبنان" وتحتها صورة تمثل وزير الدفاع وعلى رأسه

تاج عبارة عن مكنسة تقطر دما ، بينما وقف أب يتحدث عبر الميجافون عن أنه لـــن يصبح جدا على الإطلاق بعد أن قتل ابنه الوحيد فى الحرب ، وفكرت حتى يأتى الدور على حفيدي .



الجنوب المحتل : انسحاب إسرائيل هو بداية الحل الحقيقى للمشكلة

غير أن الاجتماع لم يكن الوحيد الذى يعبر عن مشاعر الاحتجاج بين المواطنـــين إزاء غزو لبنان ، فإسرائيل كلها كانت تتحدث وتناقش هذا الغزو ، وبدا واضحـــا أن هناك انقساما فى الرأى بين المواطنين ما بين مؤيد ومعارض ، ولم يعد مـــن الممكـــن إخفاء هذا الانقسام ، وفى هذا الصدد كتب الصحفى الإسرائيلى يوســـف جوئيـــل يقول: إن هناك وجهة نظر تقول إنه ينبغى إسكات الانتقادات التى يوجهها المواطنـــون إلى الغزو حتى لا تضعف الروح المعنوية للجنود، وكان من الممكن قبول وجهة النظـــر هذه لولا أنه من الواضح أن هذه الانتقادات جاءت نتيجة للأنباء التى حملها الجنـــود معهم من ميدان القتال إلى داخل إسرائيل ، ومن هنا يمكن القول إن الانتقاد والبلبلـــة التى تتسرب من ميدان القتال هى المسئولة عن تدمير الروح المعنوية للجبهة الداخليـــة وليس العكس .

وأنني أشهد أن هذه هي المرة الأولى فى تاريخ إسرائيل التى يحدث فيها هذا ، ولكن الحكومة لم تقف مكتوفة الأيدى ، بل ردت بعنف متهمة كل من يوجه إليها الانتقاد بأنه غير وطني ، ومع ذلك استمرت الانتقادات ، ولكن ما حدث على جبهة القتال كان دليلاً على حالة الخداع التى تعرضت لها إسرائيل ، فقد شعر المواطنون بأنهم قد ضللوا بما يقال عن الحدود الآمنة ، وبالنسبة للجندى العادى اكتشف أنه يخوض حربًا غير تلك التى حددها قادته قبل أن تبدأ ، وإلى جانب ذلك أدرك الجندى أنه أحدث دمارًا وقتلاً د٠٠ حاجة لذلك .

وامتزجت مشاعر الإحباط بالعار والغضب ، وهى وإن كانت لم تسفر عن حدوث انفجار إلا أنها منعت الجنود من التزام الصمت ، ومن الصعب التنبؤ بعدد الجنود الذين سيقيمون دعاوى قضائية ضد قادتهم ، وفى ذلك تكرار لما حدث عام ١٩٥٦ عندما اتهم أربعة من قادة الكتائب الشباب – "من بينهم موردخاى جور ورفائيل اتيان اللذان توليا بعد ذلك منصب رئيس الأركان" – اتهموا قائد وحدتهم بإرسال الجنود والضباط الشباب إلى الموت المحقق وذلك باستهتار وبدون مبرر ، كما اتهموه بتجاوز الأوامر الصادرة إليه والتضحية بأرواح قواته دون أن تكون هناك إمكانية تحقيق أية مكاسب عسكرية ، وكان هذا القائد المتهم هو أريل شارون ذاته الذى أصبح بعد ذلك وزيرًا للدفاع وقام بالتخطيط للحرب ضد لبنان ، ولولا جهود موشى ديان والضغوط التى بذلها لمنع محاكمته لكانت حياة شارون العسكرية قد انتهت.

كان هناك أيضًا غضب فى الخارج حتى من جانب اليهود ، ومثال ذلك البيان الذى أصدره ثلاثة من اليهود البارزين الذين يعيشون فى باريس وهم بيير منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا الأسبق ، وفيليب كولتسنيك الرئيس السابق لمؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة وكان يشغل أيضًا منصب وزير التجارة فى عهد حكومة الرئيس الأمريكى كارتر ، والثالث هو ناحوم جولدمان الرئيس السابق للمنظمة الصهيونية العالمية وللمؤتمر اليهودى ، والعجيب أن الحكومة الإسرائيلية

أخفت هذا البيان حتى لا يصل إلى الرأى العام الإسرائيلى ، وجاء بالبيان أن السلام يتم إحلاله عادة بين الأعداء وليس بين الأصدقاء ، وأن فهمنا للتاريخ اليهودى وحقائق اللحظة الحالية يدفعنا إلى القول بأن الوقت قد حان لنتوصل إلى اعتراف متبادل بين إسرائيل والشعب الفلسطينى ، ويجب إنهاء الجدل العقيم الذى يدور حول اعتراض العرب على وجود إسرائيل ، واعتراض اليهود على حق استقلال الفلسطينيين، وأن مفهوم "الحكم الذاتى" ليس كافيًا .. والضرورى الآن هو إيجاد اتفاق سياسى بين الإسرائيليين والفلسطينيين ، ويجب بدء المفاوضات لإيجاد التعايش بينهما على أساس حق تقرير المصير .

وهكذا دخلنا الشهر الثانى للحرب ، وبات من الواضح أن النجاح العسكرى لا يعنى بالضرورة النجاح السياسى ، وأصبح البعض يتكهن بأن نتيجة عملية لبنان ستكون هزيمة سياسية كبيرة لبيجين ستتمثل فى تأييد شعبى لإيجاد حل للمشكلة الفلسطينية، ويجد البعض الآخر عزاءه فى حقيقة أن الحل السياسى للمشكلة أصبح لا مفر منه، حيث صار هناك تفهم بين قطاعات واسعة من المواطنين أنه ليس هناك حل عسكرى للمشكلة ، وأن الحل السياسى لن يأتى عن طريق أهوال الحرب ، بل هو يحتاج إلى كثير من الصبر والصدق .

ويبقى أننا تعرضنا جميعًا لعملية خداع واسعة النطاق ، حينما تعلن الحكومة الإسرائيلية مرارًا أننا محاصرون وأن إسرائيل بين الدول مثل اليهودى بين بقية الشعوب: دائمًا منبوذ ، وأثارت المؤسسة العسكرية فى نفوسنا الخوف الذى تريده لتجعلنا نطيع الأوامر دون أن نوجه أى سؤال ، ولكننا أدركنا فى النهاية أنه على عكس ما يقال إننا نحن الذين نحاصر جيراننا ، وكان الجنرال شارون يعلن دائمًا إحصائيات حول ضحايا الإرهاب من الإسرائيليين محاولاً بذلك أن يحصل على تأييدنا لمخططاته ، لقد كان يملأ قلوبنا بالذعر ، وفى ذات مرة أعلن فى التليفزيون فى محاولة لتبرير عملية غزو لبنان أن ١٣٩٢ إسرائيليًا قتلوا نتيجة لعمليات إرهابية ، وحذر من أنه حتى وجود جزء صغير من منظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان سيكون سببًا فى قتل

مزيد من الإسرائيليين ، وقد قامت الصحفية البارزة حنا سيمر بجريدة "دافار" بجهود للتأكد من رقم القتلى الإسرائيليين الذى أعلنه شارون ، وعلى الرغم من أنها جمعت جميع من قتلوا فى إسرائيل نتيجة لمثل هذه العمليات خلال الخمسة عشر عاما الماضية ، إلا أنها لم تصل إلى هذا الرقم .

وبات واضحا أن شارون يريد تأييدنا ، أو على الأقل يريدنا أن نكون سلبيين إزاء خططه الجيوبوليتكية الواسعة ، لقد خدعتنا المؤسسة العسكرية لكى يتمكن شارون من وضع لبنان تحت حمايته ، ولتحويل نصف المليون فلسطينى هناك إلى مواطنين من الدرجة الثالثة، بل أكثر من ذلك يريد شارون أن نكون خائفين لكى ينجح فى تحقيق مخططاته ، وقد نجح فى إشعارنا بذلك .

أننى أقول بمرارة أنه حتى فى إسرائيل يجعلون اليهودى يعيش فى خوف .

## واختفى الشباب

فى بداية الأسبوع الخامس للحرب توجهت إلى المعبد الواقع بشارع بنى يهودا فى تل أبيب ، كنت ألبى دعوة لحضور مراسم زواج ، لاحظت أن معظم الحاضرين كانوا متقدمين فى العمر ، و لم يتساءل أحد أين ذهب الشباب لأن الإجابة المؤلمة كانت قابعة كالخنجر فى أعماق الجميع لقد ذهبوا إلى الحرب بعضهم قتل وآخر أصيب والباقى لا يعرف مصيره إلا الله .

نظرت إلى هذه الجموع المتبلدة الجامدة وقلت لنفسى إن الإسرائيليين يقبلون (القدر) كما هو ، ويذعنون لما يحدث لهم مهما كان نوعه دون أن يتساءلوا من الذى أوقع ذلك القدر بهم ، ولماذا ، ولكن ربما يتغير ذلك الإذعان للقدر مع وقوع غزو لبنان ، وتتحول السلبية إلى موقف إيجابى وحينئذ سيكون فى الإمكان محاسبة ذلك الذى وجه الضربة إلينا ، وهو واحد منا ويعيش بيننا إنه مناحم بيجين الذى يقف الآن ليقول إن أى انتقاد لغزو لبنان هو تراجع عن الروح الوطنية ، ولكنى أرى أن هذا الانتقاد بعينه هو قفزة هائلة صوب إيجاد حل سياسى لمشاكل الشرق الأوسط .

ومنذ بداية الحرب فى لبنان اعتاد بيجين أن يفخر فى كل مكان بأن عملياته العسكرية تلاقي الإجماع داخل إسرائيل وبين يهود الشتات الذين يعيشون خارج إسرائيل فى مختلف دول العالم ، وعلى الرغم من أن ذلك القول أبعد ما يكون عن الحقيقة إلا أن أحدا من معاونى بيجين لم يجرؤ على مناقشته ، أو أن يلمح إلى خلاف ذلك أمامه لأنه من المعروف أن بيجين يعتبر الخلاف فى الرأى رذيلة أكثر منه سلوكا ذهنيا وثقافيا .

ويعد بيجين عدته لوضع تقرير عن الإنجازات السياسية التى حققها من الغزو ، لأنه يعلم أنه بدون تحقيق إنجازات سياسية فإن العمليات العسكرية تكون ضربا من العبث ليس له أية قيمة ، وهو يدخل المناقشات الدائرة حول الحرب بتوجيه الاتهامات التى لا تستند إلى أى دليل ، وهو بهذا يتهرب من تقديم الأفكار الموضوعية أو التحليل العلمى السليم للعمليات العسكرية ونتائجها ، وبالتأكيد سيتهم بيجين المعادين للحرب بإحباط الهجوم الأخير والنهائى الذى كان يعتزم شنه ضد بيروت ، كما سيتهمهم بالحيلولة دون استسلام منظمة التحرير الفلسطينية له ، وبأنهم يمثلون الانهزام الذاتى ، ذلك فى الوقت الذى أخذ فيه بيجين يشعر بالقلق إزاء الأنشطة السياسية التى قامت بها وقتذاك مصر والمملكة العربية السعودية ، وهى مناورات سياسية لا يستطيع مواجهتها بقوة السلاح .

وليست هذه الاتهامات من جانب رئيس الوزراء بغريبة عن نسيج المجتمع الإسرائيلى ، فإسرائيل دولة يسودها العنف اللفظى والسباب والدارس لتاريخ المؤسسات اليهودية فى الشتات يدرك مدى انتشار عبارات النواح والاتهام ، وهى لازمة للحرب الأهلية الطويلة التى عانى منها اليهود آلاف السنين ، ويبدو أن هذه الحرب الأهلية ستنتقل إلى المجتمع الإسرائيلى ذاته بسبب الغزو ، وخاصة وأن الحرب قد طال أمدها بشكل لم نكن نتوقعه .

## تحذير إلى مهاجر جديد

استقبلت اليوم صديقا لى وصل لتوه من الأرجنتين حيث كنت أعيش ، وأخذ يطرح على عدة أسئلة تتعلق بالحياة والأوضاع فى إسرائيل ، فهمت منه أنه ينوى الهجرة من الأرجنتين والعيش فى إسرائيل ، وحاولت جاهدا عدم التأثير على اتخاذ القرار الخاص بذلك ، ولكني لم أتمالك نفسى من تحذيره بأن الحضور إلى إسرائيل فى ذلك الوقت بالذات للتعرف على هويته اليهودية سيصيبه بالبلبلة والحيرة لأن البلد ذاتها بدأت فى مناقشة هويتها ، فطبيعة غزو لبنان وتدمير المدن وقتل المدنيين قد قوض الأساس الذى يقوم عليه البنيان الأخلاقى للمجتمع اليهودى ، ويحاول كل مواطن إسرائيلى الآن أن يجد طريقه للحفاظ على التراث الأخلاقى ، بعضهم لجأ إلى الدين والآخر إلى الغوص فى الماضى .

وبالنسبة لى كنت أفضل ألا يأتى صديقى فى هذه اللحظة السيئة من تاريخ إسرائيل، كان من الخير له أن يبقى فى بيونس أيرس حتى لا يرى ما نحن فيه من حال ، وفى بداية الأسبوع السادس من القتال بدأ صديقى رحلته فى مختلف أنحاء إسرائيل ، لقد جاء إلى هنا مدفوعا بفلسفة الدولة الإسرائيلية و لم يكن مهتما بما فى المجتمع الإسرائيلى من تناقضات ، وهذا ما حدث لى بالضبط ، ولكننى اكتشفت بعد ذلك أنه من المستحيل أن أكون بمنجاة عن تناقضات الحياة اليومية فى إسرائيل ، حيث أن الحياة اليومية هنا هي بالضبط الهدف النهائى لفلسفة الدولة الإسرائيلية ، ومع ذلك تركته يجرب ويرى بنفسه وتركت نفسى لتأمل سير المعركة .

اعترف بيجين أخيرا بأنه تجاوز الأهداف الأولية المعلنة للحرب . وعلمنا أنه اتهم وزير دفاعه شارون خلال اجتماع لمجلس الوزراء بأنه يخرب خطة التواجد الأمريكى فى بيروت الذى سيسهل وضع حل لإجلاء قوات منظمة التحرير الفلسطينية ، وردا على ذلك روج شارون أن اقتحام بيروت الغربية سيكلف إسرائيل ١٥٠ قتيلا فقط .

وهنا بدأ نقاش حامي الوطيس بين المواطنين ، منهم من يقول إن حياة ١٥٠ جنديا تعد تضحية صغيرة أمام إخراج جميع القوات الفلسطينية من بيروت لمنع تهديدهم لأمن

إسرائيل ومنهم من يرد قائلا بتشكك : ومن يدرينا أن هذا التهديد موجودا أصلا .. وحتى إذا كان موجودا هل الحرب هى الحل الوحيد؟ أو هل هى أفضل الحلول ؟.

ومع ذلك استمر القتال، فمن الصعب أن تقنع شخصا يكسب على مائدة القمار بأن ينسحب من اللعب ، هذا كان حال الجيش ، ويعبر عن هذا الإحساس بالقوة العسكرية الصحفى الإسرائيلى "بوتس إيفرون" بقوله : "إن صورة هذا البلد الذى تكرس فيه جميع المواهب من أجل الحرب، هى صورة دولة ترى أن جميع الحلول تنبع من الدبابة والبلدوزر ، وهذا أسوأ شىء يمكن أن يصيب مجتمعنا؟ هل ما زالت هذه الدولة بلدنا؟" .

إن إيفرون على حق فالجيش يمتص أفضل العناصر وأكثرها موهبة ، كما يبتلع أيضا مع الصناعة العسكرية غالبية الموارد ، ومع هذا فقد خسر الجيش الإسرائيلى فى لبنان شيئا أكثر أهمية من المواهب والموارد ، لقد خسر الثقة فيه وهى أعظم مما يتمتع به ، وهذه الثقة كانت من أهم أسباب فعاليته ، فعندما يؤمن كل جندى بأن قياداته لا تخفى عنه شيئا من دوافع وأهداف الحرب يتكون لديه وضوح الرؤية وتتكرس طاقاته للقتال وحده ، ولكن الجندى الإسرائيلى فى لبنان لم يكن قادرا على القتال بحماسة لأنه كان مذبذبا يفتقر إلى رؤية الهدف .

وخسارة الجيش للثقة فيه ليست بالأمر الهين ، بل ستكون لها عواقب خطيرة بالنسبة للمجتمع الإسرائيلى لا يمكن التكهن بأكثرها ، لكن مما لا شك فيه أن هذه الخسارة ستغير من إحساس المواطنين بالأمن من حيث أنهم لن ينظروا بعد ذلك إلى الجيش باعتباره المصدر الوحيد للأمن، وليس من المستبعد أن يبدأ قطاع من المواطنين التفكير فى إمكانية التعايش السلمى مع دولة فلسطينية ، ومن الممكن أيضا أن تتزايد معدلات الهجرة إلى خارج إسرائيل ، ومن المعروف أن معظم المهاجرين إلى الخارج حاليا من الشباب فى سن التجنيد ، كما ستتأثر أيضا الحياة الأسرية، فكثير من الآباء سيتساءلون لماذا لا يسرحون أبناءنا من الخدمة العسكرية حتى الآن؟ وماذا يريدون من أولادنا؟ وهى أسئلة جديدة من نوعها لم تكن تسمع من قبل ، وليس من المستبعد بعد

ذلك ان تطرح أسئلة أخرى عند حدوث استدعاء جديد للاحتياط كأن يقول الآباء : لماذا يأخذون أولادنا منا ؟ وماذا سيفعلون بهم ؟.

ومع بداية الأسبوع السادس للحرب تولد إحساس لدينا بأننا وقعنا فى فخ اسمه "لبنان" فرئيس الوزراء يطالبنا بأن نتذرع بالصبر بينما يقول الخبراء العسكريون إننا سنقضى الشتاء القادم برمته هناك ، وإذا حدث ذلك فسوف يتعين علينا توفير الطعام ووسائل المعيشة للمواطنين هناك وأيضا سنضطر إلى القيام بدور الشرطة ، وسنصبح مسئولين عن كل حالة قتل تحدث هناك فى المستقبل ، أما بالنسبة لى فإننى أعتقد أن أفضل فرصة لنا هى إنشاء "حركة تضامن" مع المواطنين فى لبنان سواء الفلسطينيين أو غيرهم ومن المؤكد أنها ستصبح حركة مدنية عظيمة فى إسرائيل .

## الجنود يحتجون

وفى هذا الأسبوع أيضا عاد ٨٦ ضابطا وجنديا من قوات الاحتياط من الجبهة اللبنانية بعضهم فى إجازة والآخر طرد من الخدمة ، كانت أرواحهم يغشاها الرعب ، وعظامهم مثقلة بالإرهاق والقلق ، وكان أول ما فعلوه إرسال خطاب إلى بيجين وإلى وزير الدفاع يطلبون فيه عدم العودة إلى الجبهة اللبنانية مرة أخرى ، وانسحاب جميع الجنود الإسرائيليين من لبنان، ويطلبون أيضا فى حالة استدعائهم للخدمة بالجيش مرة أخرى أن يقضوا فترة خدمتهم داخل إسرائيل وليس فى أى مكان آخر والسبب فى ذلك كما جاء فى خطابهم "يكفينا ما رأيناه من قتل وما تعرضنا له من موت دون معرفة السبب" ، واتهموا بيجين وشارون بمحاولة فرض نظام جديد ، فى لبنان ، وقالوا: "إننا لم ننضم إلى جيش الدفاع لهذا السبب فهذه الحرب لم تحصل على الإجماع الشعبى ، أعيدوا الجنود الإسرائيليين إلى بيوتهم" .

وكانت هناك مجموعة أخرى من الجنود العائدين من الجبهة اللبنانية تعتصم أمام مقر مجلس الوزراء الإسرائيلى ، وكانت مطالبهم إنهاء الحرب فورا واستقالة الجنرال شارون، وقدموا التماسا إلى رئيس الوزراء بهذا المعنى بعد أن نجحوا فى الحصول على

توقيعات جديدة من الجنود الآخرين ، لم يكونوا مجموعة من الجنود العاديين، ويكفي أن نعرف أن المتحدث باسمهم يدرس للحصول على الماجستير فى التاريخ من الجامعة العبرية بينما تدرس زوجته للحصول على درجة الدكتوراه فى علم النفس .

وفى تل أبيب أيضا اجتمع ٢٠٠ من جنود الاحتياط المسرحين لينظموا حركة احتجاج ضد الحرب ، كان متوسط أعمارهم ٢٥ عاما ، لقد بذلوا جهدا هائلا لحضور هذا الاجتماع ، تركوا أسرهم بمجرد عودتهم من الجبهة ، ووصلوا إلى المدينة بصعوبة لأنه كان يوم السبت والمواصلات متوقفة تماما لأنه محرم على اليهود القيام بأى عمل فى يوم عطلتهم الدينية ، ولم يكن أمامهم فسحة من الوقت لأنه مفروض عليهم أن يقدموا أنفسهم إلى أعمالهم المدنية على الفور .

حقيقة سينخرطون بعد ذلك فى أعمالهم الروتينية وحياتهم اليومية ، ولكنهم لن ينسوا ما حدث فى لبنان ولن تعود حياتهم إلى ما كانت عليه ، فقد عادوا ليجدوا زوجاتهم فى حالة يرثى لها من القلق والوحدة وتحمل المسئولية ، والأمهات يعتصرهن الألم ، أما أطفالهن فقد كانوا يتشككون فى احتمال أنهم قتلوا فى ساحة القتال وأن أمهاتهم يخفين هذا النبأ عنهم ، وبعض هؤلاء الجنود فاتتهم امتحانات الجامعة ويتعين عليهم الانتظار من جديد للدور الثانى ، ولكن أخطر ما يثقل بالهم عن ذلك كله هو الإحساس بوطأة ما حدث فى لبنان .

تجمع هؤلاء الجنود فى تل أبيب مساء السبت ليدينوا مؤامرة الصمت من جانب الحكومة لإخفاء الدوافع الحقيقية للحرب وما حدث فى لبنان أثناءها ، وفى هذا الاجتماع شكلوا لجنة دائمة لإعطاء صيغة الاستمرارية لحركتهم ، وهم مقتنعون بأن جعل حرب لبنان آخر حروب إسرائيل يعتمد إلى حد كبير على ما سيحققونه داخل المدن الإسرائيلية وليس فى ساحة القتال ، وهم يعتزمون ضم جميع الضباط والجنود الذين يعارضون الحرب فى لبنان وتم تسريحهم من الخدمة العسكرية لهذا السبب ، وخاصة ٢٦ طيارا من القوات الجوية كانوا قد بعثوا برسالة احتجاج إلى رئيس

الوزراء، ومع ذلك فليس عملهم سهلاً ، فسيواجههم سيل من الاتهامات بأنهم غير وطنيين .

وهم يفكرون فى إطلاق اسم "جنود ضد الصمت" على حركتهم ، فهم يعتقدون أن الصمت إزاء ما يحدث من فظائع ليس له أصول فى الديانة اليهودية وهؤلاء الجنود يشعرون بأنهم انتهكوا المعايير الأخلاقية لليهودية باشتراكهم فى غزو دولة وفى حرب ليست لها أية ضرورة ، وهم يدركون أن الساكت عن الحق شيطان أخرس ، ولكى يعلنوا آراءهم ويعلنوا عن معارضتهم فينبغى عليهم الدخول فى نضال ضد "الطبقة العسكرية" التى تحكم البلاد ، وضد تدهور القيم الأخلاقية للمجتمع ، وضد الابتزاز الذى تمارسه الحكومة الإسرائيلية ليهود الشتات ، تقدم لهم معلومات زائفة عن التهديدات والمخاطر التى تتعرض لها إسرائيل بهدف الحصول على أكبر كمية من التبرعات والأموال والتأييد منهم .

ولكن هناك حقيقة هامة ينبغى عليهم وضعها فى الأذهان ، وهي لن يكون هناك حل للمشاكل الهائلة التى تعانى منها إسرائيل حاليا مثل تدهور مستوى المعيشة ، والعنف بين الأحزاب السياسية ، والاضطرابات الاقتصادية نتيجة للتضخم الذى هو بدوره نتيجة لتحويل إسرائيل إلى مجتمع استهلاكى ثم استخدام الجيش والتضحية بأرواح الجنود من أجل تحقيق مآرب سياسية ، وتشجيع المواجهة المصطنعة بين اليهود الاشكناز والسفارديم ، ليس هناك حل لهذه المشكلة إذا لم نستجب للمشكلة الفلسطينية .

وهذه المشكلة لن تحل عن طريق التفوق العسكرى الإسرائيلى ، أو عن طريق قدرتنا على ابتكار الصيغ السياسية ، فليس هناك فى العالم أجمع صيغة يمكن أن تحل محل حاجة شعب ما فى التجمع داخل دولة تقوم على الأرض التى عاش فيها هذا الشعب والتى ينتمى إليها ، أما البديل الذى تعرضه حكومتنا لهذه الصيغة فهو الاستمرار فى قمع الشعب الفلسطينى إلى أن ندمر إرادته فى الحياة، ونزيل من الوجود هويته القومية ، وليس فى الإمكان تصديق أن هذه السياسة ينتهجها شعب أعلن أنها

مستحيلة وغير أخلاقية وتتسم بالإجرام . وعلى أية حال فإلى أن ندرك مدى نجاح هذه السياسة من عدمه سوف يظل شعبنا ينزف دما من جراء الحروب وسيحكم على مجتمعنا بالدمار .

## الحرب من أجل (أرتس إسرائيل)

وفجأة خرج علينا رفائيل إيتان رئيس الأركان دون سابق إنذار ليعلن على الجميع هدفا جديدا للحرب فى لبنان فالهدف من الحرب – على حد قوله – هو كسب معركة "أرتس إسرائيل" وليس من أجل حل مشاكل لبنان أو الجليل ،وكلمة "أرتس" بالعبرية تعنى أرض وهى ذات دلالة دينية أيضا ، وتعنى الأرض التى كان يعيش فيها اليهود ، ويقصد رئيس الأركان تحقيق إسرائيل الكبرى التى تضم أيضا الضفة الغربية وقطاع غزة ، وربما كان إيتان يبغى بإعلان هذا الهدف الجديد تهدئة مشاعر التشكك التى يبديها الجنود على الجبهة ، وإشعارهم أنهم يحاربون من أجل تحقيق هدف دينى ، ولكن هذا الإعلان أدى إلى تزايد مشاعر التشكك عن ذى قبل .

ثم خرج علينا شارون ليقول لنا إذا استطعنا غزو الأردن واحتلالها حتى ولو لمدة ثلاثة أيام – برغم المعارضة الدولية ، فسيكون فى إمكاننا تنصيب "حكومة صديقة" فى عمان ، وبالتالى سيكون لنا صديقان متحالفان على حدودنا محمية لبنان ومحمية الأردن، ويضيف شارون أننا سوف نستخدم هاتين الدولتين فى استيعاب الفلسطينيين الموجودين فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، أما الأقلية التى ستبقى فسوف نستطيع السيطرة عليها ، وسنستخدم القوة العسكرية للحفاظ على هذه الأوضاع لمدة عشر سنوات يتم خلالها توطين اليهود فى الضفة الغربية ومن هنا تتضح الأهداف التوسعية للمؤسسة العسكرية ، معتقدين أن ذلك سوف يحل المشكلة الفلسطينية إلى الأبد .
ولكن حركات الاحتجاج داخل الجيش لها وجهة نظر أخرى فى هذه المسألة ، فقد بدأ الجنود يشعرون أنهم تعرضوا فى الماضى لسنوات طويلة من الخداع حول مسألة الأمن الإسرائيلى وأنهم تعلموا الخوف من الفلسطينيين لأنهم يكرهونهم ، والجديد أنهم

بدأوا يدركون أن الحرب ليست هى الحل الوحيد للمشاكل وأن القـــوة العســكرية ليست الكفيل الوحيد للأمن .

وهؤلاء الذين خدعوهم هم نفس الأشخاص الذين عارضوا إبرام معاهدة الســـلام مع مصر فهم يرون أن السلام لا يحل أية مشكلة لإسرائيل، وكانوا يقولون إن اتفاقيــة السلام مع مصر ستنتهى بمجرد موت الرئيس السادات وقــد أثبتــت الأيــام خطــأ تفكيرهم، وكانوا يقولون أيضا أن الاتفاقية ستلغى مع أول حرب تنشب بين إســرائيل ودولة عربية أخرى وأن مصر ستناصب إسرائيل العداء فور استلامها أراضيها المحتلة فى سيناء بالكامل ، وقد ثبت أيضا خطأ هذه الآراء .

وهؤلاء الأشخاص الذين مارسوا الضغط وسياســـة التخويــف علــى الشــعب الإسرائيلى وعلى يهود الشتات ، والذين أضاعوا مبادئنا باسم سياسة البراجماتية الـــتى ينتهجونها ، هؤلاء الأشخاص هم الذين يحكمون إسرائيل حاليا ، وهم يحاولون إقنــاع الجميع بأن يكونوا واقعين والاستفادة مما حدث فى لبنان وحل مشاكل الشرق الأوسط عن طريق استخدام الجيش ، وهم يلجأون فى وسائلهم لإقناع الشــعب الإســرائيلى بكافة الوسائل ومنها استخدام كلمة "الهولوكوست" أو الإبادة الجماعية التى تعرض لها اليهود على يد هتلر وقد احتج أستاذان بالجامعة العبرية – وهما خبـــيران فى شــئون الهولوكوست – احتجا لكثرة استخدام بيجين لهذه الكلمة لتحقيق أغراض سياســـية بشكل يتنافى مع معناها الأصلى ، فبيجين يبرر كل عمل من أعمال العنف والعــدوان تقوم به إسرائيل بأن اليهود أنفسهم كانوا ضحايا للإبادة وأنهم باستمرار فى حالة دفاع عن النفس ، وهذا دفع الفيلسوف الفرنسى "آلان فينكلكرو" إلى القول : بأن اليــهود الذين كانوا ضحايا أصبحوا الآن يتصرفون مثل النازيين .

وقد تلقيت مؤخرا رسالة من صحيفة "نيويورك تايمز" بداخلـــها مقـــال نشـــرته الصحيفة للصحفيين الأمريكيين ناتان جليزر وسيمور مارتان يوضحان فيه رأيهما إزاء المشكلة الفلسطينية فيقولان : "إنه ينبغى على إسرائيل أن تدرك أنها لن تحصل علـــى

السلام أو إنهاء العمليات الإرهابية ضدها إذا لم تمنح الفلسطينيين حق تقرير المصير ، ويجب عليها أن تدرك أن القومية الفلسطينية مشروعة مثل القومية اليهودية " .

وأعتقد أن النتيجة السياسية الوحيدة من غزو لبنان التى ستعطى أملا فى السلام يجب أن تتمثل فى عرض تقدمه إسرائيل للتفاوض مع الفلسطينيين حول السيادة فى المناطق المحتلة التى يعيشون فيها ، وستكون المسألة الحاسمة هى رغبة إسرائيل فى إعطاء الحكم الذاتى الحقيقى لسكان الضفة والقطاع .

## إسرائيل تسير صوب الفاشية

إلى جانب هذه المشاكل هناك شعور متزايد داخل إسرائيل بأن البلاد تخطو كل يوم خطوة جديدة صوب الفاشية ، ولعل أول خطوة على هذا الطريق بدأت عام ١٩٧٧ بتولى مناحم بيجين الحكم ، وأعقب ذلك خطوات مستمرة من انتهاك الحياة الديمقراطية فى إسرائيل وأيضا المؤسسات التقليدية وقد بلغ هذا الانتهاك ذروته خلال غزو لبنان ، فقد حاولت الحكومة أن تكيف المجتمع الإسرائيلى لحاجيات وضرورات هذا الغزو ، وخاصة فى مواجهة صيحات المعارضة .

قد نشرت صحيفة "يديعوت أحرنوت" نتائج استطلاع رأى أجرته وأشار الاستطلاع إلى أن اثنين من كل ثلاثة إسرائيليين يعارضون الاستيلاء على بيروت الغربية باستخدام القوة العسكرية .

ومن أوجه المعارضة الأخرى التى ظهرت مؤخرا حركة "بيش جفول" أو "للصبر حدود" وهى تضم أساسا جنود الاحتياط الذين يعارضون الحرب فى لبنان ، وقد عقدت الحركة مؤتمرا صحفيا أعلنت فيه عن برنامجها ثم بعثت بخطاب إلى رئيس الوزراء وإلى وزير الدفاع تطالب فيه بإنهاء الحرب وسحب القوات الإسرائيلية من لبنان ، غير أن الجنرال شارون أعرب عن سخطه إزاء تزايد عدد حركات الاحتجاج داخل الجيش مما يتنافى مع الانضباط العسكرى الذى كان يشتهر به الجيش الإسرائيلى، وأعلن شارون أنه لن يتسامح مع "لجان الجيش" ، وهو يشير بهذه العبارة إلى اللجان

التي تشكلت داخل جيش روسيا القيصرية أثناء الحرب العالمية الأولى للمطالبة بالانسحاب من الحرب .

وقد ظهر اتجاه الحكومة الفاشى فى استخدامها وسائل غير ديمقراطية لإسكات المعارضة ، ومما يوضح الإحساس بالحكم الفاشى فى إسرائيل ذلك الخطاب الذى بعث به كاتس أوتس النائب البرمانى عن حزب العمل المعارض إلى النائب العام ، يتهم فيه مساعدى الجنرال موردخاى تسيبورى وزير المواصلات بانتهاج أساليب فاشية منها قيامهم باستجواب موظفى الوزارة لمعرفة أفكارهم واتجاهاتهم السياسية ، ومنها تكليف عدد من العاملين بالوزارة بالتجسس على زملائهم وكتابة تقارير عما يتناقلونه من أحاديث وتعليقات إلى مساعدى الوزير .

ويعرف البروفيسور "تسيف شتيرنهل" بجامعة تل أبيب الأيديولوجية الفاشية بأنها : "رد فعل معاد للعقل وهى تعبير عن القوة المادية وتهدف إلى خلق عالم تسوده معايير ثابتة خال من الشك" ، وهذا التعريف ينطبق على أسلوب حكم مناحم بيجين، إننى أشعر بالخوف على الديمقراطية الإسرائيلية بسبب أسلوب بيجين فى الحكم، فسياسته ليست ديمقراطية ، وتسعى أعماله إلى إنشاء دولة أخرى غير التى نعهدها ، إنه يريد دولة شمولية وليست ديمقراطية، فمفهوم بيجين عن إسرائيل يستند إلى أنها دولة قومية وهذا يرتبط بالشمولية ، كما أن حكومته رجعية .

وأتذكر أيضًا أننى عندما كنت فى الأرجنتين شهدت كيف وصل خوان بيرون ديكتاتور الأرجنتين إلى الحكم عن طريق الانتخابات النزيهة ، وكيف كانت هناك مؤسسات ديمقراطية ، غير أن بيرون كان يستخدم المؤسسات الديمقراطية فى تحقيق أغراض غير ديمقراطية ، إذن العبرة ليست فى المؤسسات ذاتها ولكن فى طريقة استخدامها ، وهذه مشكلة حرجة حينما يحصل السياسيون على الأغلبية سواء عن طريق الانتخابات كما هو الحال فى نموذج بيرون أو عن طريق ائتلاف الأحزاب لتشكيل حكومة أغلبية كما هو الحال فى نموذج بيجين .

وفى خلال الأعوام القليلة الماضية فقدت إسرائيل العديد من مقوماتها الديمقراطية ، وخاصة منذ غزو لبنان ، فالتنازلات الجديدة التى قدمها تحالف الليكود إلى الأحزاب الدينية شريكته فى الائتلاف الحاكم بغرض استرضائها ، هذه التنازلات أعاقت تحديث الحياة الاجتماعية وخاصة فى مجال التعليم وهو مجال هام وحيوى ، أما السياسة الاقتصادية للحكومة فقد اتسمت بالغوغائية وعدم المسئولية ، فنجد المضاربات المالية تحل محل الاستثمار الإنتاجى ، ونجد إصدار العملات النقدية بدون ضابط مما أدى إلى تآكل قيمتها وإلى تعاظم معدلات التضخم وتشجيع استهلاك السلع الكمالية وهذا كله له هدف واحد وهو الحفاظ على شعبية الحكومة ، وواكب ذلك تقليص الاستثمارات المخصصة للبحث العلمى والإسكان وشق الطرق والرعاية الصحية ، وتم توجيه الاستثمارات بدلا من ذلك إلى إنشاء مشروعات فى الأراضى المحتلة وهو أمر غير قانونى ، ولكن الحكومة تفعل ذلك إرضاء للأحزاب الدينية التى ترى فى الضفة الغربية المحتلة امتدادا لإسرائيل حسب التفسير الدينى اليهودى .

وهذه السياسة من شأنها تغيير طبيعة المجتمع الإسرائيلى، الذى من المتوقع أن يزداد انغلاقه ، وأصبحنا الآن فى مواجهة حالة من عدم الديمقراطية والسير فى طريق الشمولية، ومثال على ذلك حالة ضم الحكومة للقطاع الشرقى من القدس وكذلك مرتفعات الجولان .

إن ضم هذه الأراضى يعنى وضع إسرائيل فى حالة دائمة من الصراع مع جيرانها العرب ويدعم صورتها وطبيعتها كدولة عسكرية ، ومثل هذا القرار الذى اتخذته الحكومة كان ينبغى أن يصدر عن طريق الأغلبية البرلمانية ، ففى الدول الديمقراطية نجد أن بعض القرارات الهامة لا يكفى اتخاذها موافقة المؤسسات السياسية ، بل يجب أن تصدر بعد مناقشات واسعة النطاق ، يشترك فيها جميع المواطنين ، وتحظى بالإجماع .

وهناك علامة أخرى على هذه الشمولية فى الحكم، فمنذ غزو لبنان والكنيست لا يلعب دوره فى مناقشة هذه المسألة الحيوية بالنسبة للمجتمع الإسرائيلى، بل إن رئيس الوزراء ووزير دفاعه تحاشيا لقاء لجنة الشئون الخارجية والدفاع المنبثقة عن البرلمان ،

وعندما يتنازلان للرد على أسئلة النواب فإنهما يقدمان معلومات زائفة ، وهذا يعنى عدم احترام البرلمان ، ويبرز فكرة الدولة المركزية الشمولية ، مما دفع أحد النواب البرلمانيين وهو أبا إيبان وزير الخارجية الأسبق إلى الاحتجاج فى خطاب قال فيه : "إن الموقف الذى تتعرض له لجنة الشئون الخارجية والدفاع لم يسبق له مثيل وهو غير مقبول".

ويحاول بعض نواب المعارضة مقاومة هذا التيار ، حدث هذا على سبيل المثال عندما قال النائب شولاميت الونى أن هناك مرسوما أصدره الجنرال شارون يخول لكبار الضباط إلقاء القبض على أى شخص خارج إسرائيل، وإن ذلك يعنى أن وزير الدفاع أنشأ حكومة عسكرية فى لبنان لا تخضع لقوانين إسرائيل أو لبنان أو القانون الدولى ، وعلى الرغم من جهود المعارضة إلا أنها لم تنجح فى جعل الحكومة تقبل حقوق البرلمان ، مما يعنى أن هذه المؤسسة لم تعد ضامنا للديمقراطية فى إسرائيل .

ومن أمثلة التضليل الحكومى بشأن حرب لبنان ما أثاره النائب "يوسى ساريد" فى البرلمان من أن الحكومة بالغت فى كمية ونوعية الأسلحة التى تم الاستيلاء عليها من قوات منظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان ، وقال ساريد إن هناك محاولة لخلق انطباع زائف بأن المنظمة تشكل تهديدا لحدود إسرائيل الشمالية ، وأشار إلى أن هذه الأسلحة عبارة عن ٩٠ دبابة عتيقة من طراز "تى – ٣٤" السوفيتية الصنع وهى تطلق نيرانها من ثبات لأنها لا تستطيع التحرك لقدمها ، وكانت الحكومة الإسرائيلية قد جعلت رقم الدبابات خمسمائة من أحدث طراز ، وأوضح النائب ساريد أن الحكومة اعتادت تخويف يهود الشتات بغرض جمع الأموال التى تحتاج إليها إسرائيل ، وقد قدم النائب استجوابا فى هذا الشأن ، ولكن من المستبعد أن يتم إجابة طلبه .

وفى عام ١٩٨٠ كتب المؤرخ والفيلسوف الإسرائيلى يعقوب تالمون خطابًا مفتوحًا على صفحات جريدة "ها أرتس" موجهًا إلى مناحم بيجين بعنوان "البلاد فى خطر" قال فيه : "سيدى رئيس الوزراء إن السياسات التى تنتهجها حكومتك تحول إسرائيل إلى جماعة سرية تدفع يهود الشتات إلى التخلى عن المبادئ الليبرالية التى سمحت لهم

بتحقيق أوضاعهم المؤثرة" كان هذا الخطاب ردًا على ما ينتهجه بيجين من سياسة ابتزاز ليهود الشتات وما يقدمه لهم من معلومات خاطئة عن أوضاع المنطقة بغية استنفارهم والحصول على أموالهم ، هذا سيؤدى فى النهاية إلى مشاكل فى العلاقة بين إسرائيل ويهود الشتات الذين يمنحونها التأييد والمال .

وهناك مشكلة سنواجهها فى المستقبل إذا ما ابتعدنا تمامًا عن الطريق الديمقراطى وهى علاقتنا بالولايات المتحدة ، فمنذ إنشاء إسرائيل ونحن نحاول أن نتمسك بالديمقراطية باعتبارنا الدولة الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط ، وهذا كان يجعلنا محل رضا وتأييد الدول الغربية .

وعندما تولى مناحم بيجين الحكم عانت الديمقراطية من تدهور خطير ، فسياسة الحكومة فى الجولان والضفة والقطاع أدت إلى اضطرابات فى منطقة الشرق الأوسط ، وحتى معاهدة السلام مع مصر لم تساعد على تغيير هذا الوضع لأنه تم تنفيذ جزء من اتفاقية كامب ديفيد والمفروض أن تنفذ بالكامل لتسوية النزاعات فى المنطقة بشكل سلمى، غير أن الحكومة الإسرائيلية تحاشت تنفيذ بنود المعاهدة الخاصة بالحكم الذاتى للضفة والقطاع ، وفى هذا المجال لم تلتزم حكومة بيجين بالأسلوب الديمقراطى ، كما أن غزو لبنان وهو أحد النتائج المباشرة لسياسة حكومة بيجين أدى إلى تلطيخ صورة إسرائيل فى الغرب .

ومن ناحية أخرى نجد أن التنازلات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التى قدمتها الحكومة للأحزاب الدينية المتعصبة وذات الاتجاه الشمولى من أجل الائتلاف معها للحصول على الأغلبية البرلمانية التى تمكنها من البقاء فى الحكم بشكل يبدو أنه ديمقراطى ، هذه التنازلات دفعت المواطن الإسرائيلى لأن يستنكر الافتقار إلى الديمقراطية وهو الأمر الذى يؤثر على حياته .

ولعل النقطة الإيجابية الوحيدة لما حدث فى لبنان أن الإسرائيليين بدأوا يشعرون بأنه ليس هناك حل عسكرى لمشاكلهم الأمنية ، فالدول الأوربية كل ما لديها من قوة عسكرية وإجراءات أمن بالغة التعقيد لم تستطع أن تحول دون وقوع الحرب العالمية الثانية ، وبات هناك إدراك بأن التعبير الكامل لإرادتنا القومية وهو القوة العسكرية لن تحل أكبر مشكلة قومية تواجهنا وهى : المسألة الفلسطينية .

وقد أصبح متاحًا أمام الصحفيين الدخول إلى المخيمات الفلسطينية فى لبنان التى تقع على مشارف صيدا وصور وذلك اعتباراً من الأسبوع السابع للقتال ، وبالرغم من أن الحكومة ظلت كل يوم تردد على مسامعنا الأخطاء التى ارتكبتها منظمة التحرير الفلسطينية والأعمال الإرهابية التى قامت بها ضد الإسرائيليين إلا أن كل ذلك لا يبرر تدمير مخيمات الفلسطينيين .



القمع " الإسرائيلى " يمنع المياه عن السكان العرب فى فلسطين المحتلة

ويستخدمها سلاحًا فى تفريق تظاهراتهم

والجديد أن الجنود العائدين من الجبهة فى بداية الأسبوع السابع للحرب بدأوا يتحدثون بلهجة مختلفة ، إنهم يتكلمون عن الإنسان الآخر ، الإنسان الفلسطينى ، وسواء أردنا ذلك أم رفضنا – فليس أمامنا سوى قبول ما يقوله الجنود لنا ، لقد كان هؤلاء الجنود يظهرون فى سردهم لما حدث مشاعر غير متوقعة .

إنها مشاعر الدهشة وأيضًا الغيرة .

فقد جلب الجنود معهم روايات عن الأسر التى يتكون بعضها من عشرة أفراد يساعد بعضهم بعضا على البقاء وسط الأنقاض والدمار والذعر المجنون ، وروايات عن أطفال الفلسطينيين مختلفة تمامًا عما تعرضه وسائل الدعاية الإسرائيلية عن الأطفال حملة الصواريخ الذين يهددون أمننا مما يجعلنا نشعر بالكراهية تجاههم ، فهذه قصص جديدة عن أطفال فى العاشرة من عمرهم فقدوا آباءهم وهم يجلسون حالياً برباطة جأش يعتنون بأشقائهم الصغار ، وهذه قصص أخرى عن الكهول الطاعنين فى السن وهم يجوبون المنطقة ليتسولوا بعض الطعام ، وعن أطفال لا يبكون وقد نضجوا قبل الأوان، وقابل الجنود عددًا من الشباب الفلسطينى تطوعوا للعمل بالمستشفيات ، وهم بشر مثلنا وليسوا إرهابيين كما تصورهم الدعاية الرسمية ، فهم يريدون الزواج وأن يكون لهم أطفال فى يوم من الأيام ، وهم – مثلنا – يحلمون بشراء دراجة بخارية ، ثم أنهم شباب لا يهاب الموت ، ويحزنون لموت الآخرين .

ويحكى الجنود العائدون أيضًا روايات عن الممرضات اللاتى بقين بجوار المرضى ليل نهار ، وعن الأطباء الذين لم يفكروا فى الهرب عندما اشتد القصف الوحشى، وقابلوا أيضًا شبابًا فلسطينيًا وقع فى الأسر ولكنهم لم يطلبوا الرحمة و لم يعرضوا أنفسهم للإذلال ، ورأى الجنود الشباب الفلسطينى معتزًا بهويته ، وهى الهوية التى قالت لهم الدعاية الرسمية الإسرائيلية عنها أنها ليس لها وجود بل أن من يحملها يعتبر مجرمًا ، وكانوا عندما يستمعون إلى الفلسطينيين وهم يتحدثون عن الدولة التى ستكون لهم ذات يوم فإنهم يتذكرون أحاديث آبائهم عندما كانوا يتحدثون عن دولتهم الخاصة بهم، وعندما يستمعون إلى كل هذا يشعرون بلسعة الغيرة .

فقد تولدت مشاعر الغيرة لديهم من التضحيات والبطولات التى أظهرها الفلسطينيون أثناء القتال ، إن هناك اعتقادا الآن فى إسرائيل بأن الفلسطينيين غيروا أشياء فى حياتنا ، وقد أتاحت حرب لبنان الفرصة لنا لأول مرة لأن نتحدث معهم مباشرة ، ومن المدهش حقا أن فكرة التحدث مع الفلسطينيين لم تخفنا كما كان من المفروض أن يحدث نتيجة مشاعر الكراهية التى نكنها لهم منذ زمن طويل نتيجة ما تصوره لنا أجهزة الدعاية الرسمية .

فالاعتراف بالإنسان الآخر ، الإنسان الفلسطينى ، ثم الاعتراف بوجوده دون الشعور بكراهية تجاهه هو إحساس جديد فى إسرائيل ، على الرغم من أن بعض القطاعات الديمقراطية من الإسرائيليين كانت تشعر بذلك من قبل ، ويمكن القول أن هناك حقيقة جديدة تتشكل الآن بشكل لم يكن متوقعًا وفى أماكن غير متوقعة ، ويبدو أن ضمائر شعبى المنطقة اللذين عاشا فى صراع طويل قد استيقظت .

## جيتو كبير اسمه إسرائيل

إننا أصبحنا نشعر الآن بأن بيجين حول إسرائيل إلى "جيتو" كبير ، كنا نعتقد أننا نسينا الجيتو حيث كان اليهود يعيشون فى أحياء مغلقة عليهم فى مختلف دول العالم ، يشعرون بأنهم معذبون من بقية أعضاء المجتمع ، ويحسون بالخوف من الجميع ، وقد جاء اليهود إلى إسرائيل هربًا من ذلك الجيتو الصغير ليجدوا هنا جيتو أكبر ، فقد أصبحت إسرائيل معزولة ليس فقط عن جيرانها بل عن العالم الخارجى ، ومازلنا نشعر حتى الآن بالخوف ، والفضل فى ذلك يرجع إلى رئيس الوزراء بيجين ، فهو يستثمر مشاعر الخوف والعزلة هذه بل ويغذيها ليجعلنا نكره جيراننا ، وبذلك يحقق القوة العسكرية ، وهو يقول دائما إن الفرصة الوحيدة للبقاء هى هزيمة الآخرين ، وهذا دفع الكاتب الإسرائيلى "أموس عوز" للقول بأن إسرائيل بيجن تعمل على الانتقام من العالم لما أصاب اليهود من أذى ، وأن بيجين يصفى حساباته السابقة مع العالم .

إن نظرية الجيتو تفسر إلى حد كبير شخصية بيجين ، لأن الجيتو يمثل تحديا للعالم الخارجى ، ونحن نعرف أن بيجين يعارض بحدة بل بمرارة عملية التطور السياسى والاجتماعى للمجتمع الإسرائيلى كما يعارض بشدة الطريقة التى كانت تحكم بها إسرائيل خلال الثلاثين عاما التى قضاها فى مقاعد المعارضة ، فهو ينادى بالتوسع على أسس دينية ، وإذا كان الآن يتمتع بالأغلبية فلأنه يمثل تجسيد مشاعر الكراهية والإحباط لدى يهود إسرائيل .

ولكن ينبغى أن يكون أمامنا منفذ للخروج من هذا الجيتو الذى بناه بيجين حولنا ، وأعتقد أننا بحاجة إلى الفلسطينيين للخروج منه ، فالعمليات العسكرية ضدهم لن تكون الحل ، فنحن نسمع كل يوم بأنباء العمليات الفدائية والكمائن التى ينصبها الفلسطينيون لقواتنا على الرغم من اكتساحنا الأراضى اللبنانية وهذه العمليات يعتقد البعض أنها نتيجة لفشل قواتنا فى القضاء على فلول المقاومة ، والبعض الآخر يفسرها بأنها نتيجة لفشلنا فى فهم التاريخ ، وإدراك أن العمليات الإرهابية التى يشنها الفلسطينيون ضدنا ستستمر إلى أن يستطيعوا إقامة دولة لهم على الضفة الغربية وقطاع غزة ، وعلى الرغم من الضربات التى نوجهها إليهم سيستمرون فى العمل ، وحتى لو قضينا على الجيل الحالى فسيخرج من صلب أربعة ملايين فلسطينى جيل جديد من المقاومة ، ويقول لنا التاريخ أن الجيل القادم سيكون أكثر تطرفا ويأسا وسيكون أفضل تدريبا من الناحية العسكرية .

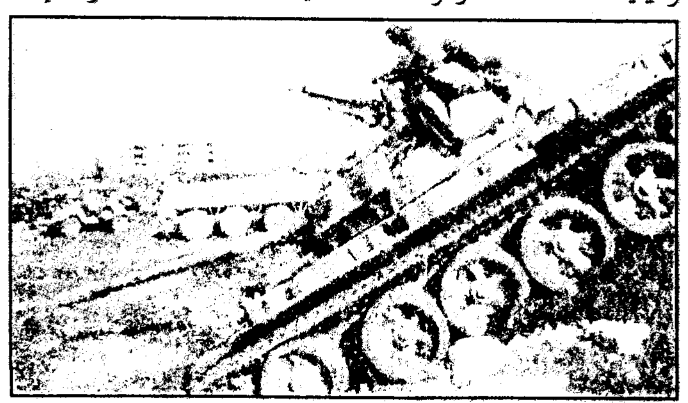
يجب علينا أن نتذكر دائما أنه مهما بلغنا من مقدرة عسكرية فلن نستطيع حماية أنفسنا من الهجمات الإرهابية ، وهذا ما أرى أنه عجز القوة ، ويجب أن ندرك أننا لن نستطيع القضاء على الفلسطينيين على الرغم من أن الكثيرين منا يتمنون التخلص منهم إلى الأبد بمعجزة تحدث أو بضرب من ضروب السحر ، نعم ينبغى على الإسرائيليين أن يتقبلوا "اليهود الجدد" فى الشرق الأوسط أقصد الفلسطينيين هؤلاء المواطنين الذين يرفضون مغادرة أراضيهم ، يجب أن نقبل هويتهم الإنسانية لتقبل بعد ذلك هويتهم القومية .

إن البعض منا يحاول طرح حلول سياسية .. فها هو شيمون بيريز زعيم حزب العمل يحاول جاهدًا إثناء بيجين عن اقتحام بيروت الغربية ومحاولة إيجاد حل سياسى لخروج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان ، ويعتقد أن بيريز أن الحرب فى لبنان لن تحل المشكلة الفلسطينية ويرى أننا يجب أن نعتمد على أوربا الغربية فى التوصل إلى حل سياسى ، وهو يطمع بذلك فى الفوز فى الانتخابات القادمة .

كنا نستعد يوم الجمعة – وهو نهاية الأسبوع السابع للقتال – لإعداد وليمة للعائلة بمناسبة السبت وهو العطلة الدينية لليهود ، سمعنا خبرًا أزعجنا ، فسوف تستقطع الحكومة من مرتباتنا نسبة مئوية لتجمع بذلك مبلغ مليار دولار للمساهمة فى نفقات الحرب ، وعندما أوقدنا الشموع فى اليوم التالى دعوت الله أن تبدأ محادثات بيننا وبين الفلسطينيين يمثلنا فيها شيمون بيريز وتسفر فى النهاية عن إقامة دولة فلسطينية .

## المذبحة

لم نكن قد تنفسنا الصعداء بعد من الأنباء المروعة للقصف الوحشى لمدينة بيروت ، وقطع الماء والكهرباء عنها ، كان الطقس لا يزال حارًا خانقًا ومن القسوة حرمان الإنسان من الماء كان هناك قرابة نصف مليون مدنى فى بيروت الغربية ، وكانت القوات الإسرائيلية تشدد الحصار وتكثف عمليات القصف فى محاولة لإجبار القوات



آليات القوات المشتركة

الفلسطينية على الاستسلام ، ولقد كان حصار بيروت عبئا هـــائلا علـــى الضمـــير الإسرائيلى ، وكلما فكرت فى لحظات العطش التى يمر بها الأطفال المحاصرون تخيلـــت مدى العذاب والمعاناة الذى يتحمله الآباء .

حقيقة أننا – كمواطنين لم نسكت – فقد وقعنا الالتماسات ، وجمعنا الأمـــوال ، وقمنا بمظاهرات احتجاج ، وأيدنا السياسيين الذين يعارضون الحرب ، لقد أصبحنـــا محاصرين بآلامنا وبشقاء ويأس الآخرين حولنا ، إننى لا أستطيع ســـوى القـــول إن بيروت صارت شهيدة .

وتذكرت مظاهرات السلام الهائلة التى اجتاحت دول أوربا الغربية احتجاجا علـــى الأسلحة النووية وللمطالبة بنزع السلاح ، وتذكرت كيف وصلـــت إحـــدى هـــذه المسيرات إلى موسكو ، ما كان أحراها أن تصل إلى بـــيروت عـــن طريـــق الســـفن والزوارق، وتحاول دفع الحصار البحرى الإسرائيلى حول السواحل اللبنانيـــة ، كـــان ينبغى على دعاة السلام هؤلاء أن يتضامنوا مع الفلسطينيين ولكنهم تركوا هذه الفرصة التاريخية تفلت من بين أيديهم .

وجاءت لحظة الرعب الحقيقى ، عندما حدثت المذبحة فى مخيمى صـــبرا وشـــاتيلا للاجئين الفلسطينيين ، كان ذلك فى مطلع العام العبرى الجديد ، وفى غـــرة شـــهر تيشرى ٥٧٤٣ وفقا للتقويم العبرى .

كنا سمعنا النبأ بشكل مؤكد من هيئة الإذاعة البريطانية "بى . بى . سى" ولكن ماذا كان رد الفعل ، قام جماعة من الشباب فى كيبوتر جاش الذى يقع شمـــالى إســـرائيل بعشرين كيلومترا بمظاهرة احتجاج وقطعوا الطريق المؤدى إلى حيفا وأشعلوا النـــار فى إطارات السيارات مما أدى إلى شل حركة المرور ، كان ذلك أول حركة احتجاج وقد جرت بشكل تلقائى ، كان هؤلاء الشباب يعربون عن غضبهم ، وبالتالى فقد قطعـــوا الطريق الذى تستخدمه القوات الإسرائيلية للوصول إلى لبنان .

وفى القدس خرجت مظاهرة تضم مائة ألف شخص ، وأعلنـــوا أنهـــم يشـــعرون بالخجل لكونهم إسرائيليين ، وتعرضوا لعصى الشرطة والقنابل المسيلة للدموع .

ومع ذلك فحركات الاحتجاج الضئيلة هذه لا تكفى للتعبير عن رد الفعل الغاضب إزاء ما حدث فى صبرا وشاتيلا وأخذت أتساءل لماذا يعجز الإسرائيليون عـــن إدراك الدرجة العالية من الإجرام التى ارتكبـــها الجيـــش الإســـرائيلى فى حـــق اللاجئـــين الفلسطينيين؟ لقد أصبح واضحًا للجميع أن الجيش هو الذى قام بتدبير المذبحة .

ومن العجيب أن نجد صحفيًا كفئًا وبارزًا وأمينًا مثل "زيف تشيف" يعلم بأنبـــاء المذبحة فى بدايتها ثم يبلغها لأحد أعضاء الحكومة راجيًا إياه أن يتدخل ، بدلاً مـــن أن يمررها إلى الصحافة العالمية التى كانت ستحاول وقف أعمال القتل والذبح ، فقد غلب على الصحفى الإسرائيلى الإحساس بالانضباط ، وهو الإحساس الذى سيطر علـــى الإسرائيليين قرابة عشرين عامًا وأدى إلى ابتزاز يهود الشتات ، وكـــانت النتيجـــة أن الصحفى أبلغ المعلومات إلى شخصية حكومية متورطة فى المذبحة أساسًا .

وفى يوم الأحد ١٩ سبتمبر ١٩٨٢ وهو اليوم الذى تنامى إلى أسماعنا فيـــه أنبـــاء المذبحة تم استدعاء ابنى الأكبر دانيال مرة أخرى للخدمة العسكرية ، كان قد تم تسريحه لفترة ، كان لا يريد الذهاب إلى الجبهة ولكن صورة السجن كانت تراود خيالـــه ، وخاصة وأنه كان يزورنى فى السجن عندما كنت فى الأرجنتين ، وأخذ يسألنى بلطـف عن الحياة داخل السجن ولكنى أخبرته أن السجون الإسرائيلية تختلف عن الســـجون الأرجنتينية ، ففى سجون إسرائيل يتعرض العرب وحدهم للتعذيب ، ولكن ذلـــك لا يحدث للمواطنين الإسرائيليين لأنهم يعتبرون الجنس الأرقى ، قلت له إنه لن يعـذب فى السجن ، وإذا امتنع عن الاستجابة لأمر الاستدعاء للخدمة العسكرية فقد يكون ذلـك حالة احتجاج فردية ، ولكن هذا سيشجع عددًا آخر من الجنود على الاقتداء به ، وفى هذه الحالة سيزيد العدد ويمكن تنظيم حركة احتجاج جماعية وينبغى عليكـــم جميعًـــا رفض الذهاب إلى لبنان ، فلا يمكن للمرء أن يكون شريكًا فى جريمة ويبرر ذلك لنفسه بأنه كان ينفذ أوامر رؤسائه .

وقد رفض ابنى الامتثال لأوامر رؤسائه ، وفى ٤ أكتوبر ١٩٨٢، أصدرت محكمة عسكرية حكما بسجنه لمدة ٢٨ يوما فى سجن حربى ، وتذكرت الحاخام "روبرت جولدبرج" الذي كان يقول للشباب الذين يرفضون الاشتراك فى حرب فيتنام : (إنكم قد تواجهون المحاكمة، ولكنكم لن تمثلوا أبدا أمام محكمة على غرار نورمبرج) وكان يعنى بذلك أنهم لن يدانوا فى المستقبل بسبب ارتكابهم جرائم حرب ، و لم أستطع أن أسمح لابنى أن يشترك مع المجرمين المصابين بجنون العظمة والذين يقودون الجيش الإسرائيلى حاليا .

وماذا بعد ذلك ؟ ليس لدى إيمان كبير فى المعارضة الديمقراطية فى إسرائيل ، لأننى أخشى أن الشعور الإسرائيلى بالانضباط الذى يسيطر تماما على اللا وعى عند كل شخص منا ، سيحول دون إنزال العقاب الذى يستحقه المجرمون ، وبالتالى سيفقد اليهود مشاعر الاحترام من جانب العالم ، وفى الماضى كانت هناك لجان تحقيق عديدة، ولكن تقاريرها كانت لا تنشر أو تنفذ ، ولا يمكن هنا سوى ترديد قول الحاخام إبراهام هيشل الذى كان يعارض حرب فيتنام "فى المجتمع الحر قد يذنب البعض ولكن الجميع يتحملون المسئولية" .

وأعتقد أنه ليس بوسع أحد أن يقدم لنا يد المعونة سوى اليهود أنفسهم ، فينبغى على يهود الشتات الذين حافظوا على التقاليد والقيم اليهودية والذين داسهم التعصب القومى الإسرائيلى أن يشكلوا محاكمة يهودية تصدر أحكامها ضد بيجين وشارون وأيتان وهيئة أركان الجيش الإسرائيلى بأكملها .

لقد مرت علىَّ ثلاث سنوات فى داخل إسرائيل ، رأيت فيها كيف تحولت إسرائيل إلى جنوب أفريقيا أخرى فى المنطقة ، تحيل العمال العرب إلى مواطنين من الدرجة الثانية لخدمتها مثلما تستخدم جنوب أفريقيا السود، ورأيت كيف تحولت إلى بروسيا الشرق الأوسط تحاول التوسع والسيطرة . لقد جئت إلى هنا فراراً من سجون الأرجنتين أحلم بدولة ديمقراطية ، ولكنى لم أستطع تعلم اللغة العبرية رغم الدروس

الكثيرة التى حصلت عليها ، سأحاول مرة أخرى لمدة ستة أشهر قادمة ، وإذا فشلت فسوف أحاول تعلم اللغة العربية .

إنَّ فهم الفلسطينيين له نفس القدر من الأهمية مثل فهم أنفسنا .





# الفصل الرابع

# إسرائيل .. البيت المنقسم على ذاته

يطلق زعماء إسرائيل عليها وصف "الأرض الحلم" التى جاء إليها يهود الشتات من كل صوب تراودهم أحلام الحياة السعيدة الرغدة المترفة ، ولكن أحيانا ما يتحول الحلم إلى كابوس مثلما يحدث فى إسرائيل الآن .

فهذه الدولة تتعرض لانقسامات داخلية متعددة : الصراع المستتر والعلنى أحياناً والمحتدم بين اليهود الشرقيين والغربيين .

الصراع بين الصهيونية التى رفعت بيارق الدولة الإسرائيلية منذ نشأتها وبين اليهودية الأرثوذكسية التى تريد العودة إلى الوراء آلاف السنين لتفسر الماضى والحاضر والمستقبل وفقًا لتعاليم التوراة .

الصراع بين دعاة السلام والتفاهم والتمسك بأخلاقيات الدين وبين التطرف الكامن فى اللاوعى ينتهز الفرص للفكاك والتجسد .

بين أنصار الحضارة الغربية الذين يرفعون شعاراتها استدراراً للمعونات والتأييد الخارجى ، وبين التيارات التى ترفض هذه الحضارة شكلاً وموضوعًا .

وليس هناك أفضل من اليهود أنفسهم قدرة على كشف وتعرية هذه الصراعات التى تنخر فى الجسد الإسرائيلى ومن بين هؤلاء الكاتب والروائى الإسرائيلى "آموس عوز" الذى ولد بالقدس عام ١٩٣٩ ، وخدم بالجيش الإسرائيلى فى حربى ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، وهو عضو فى حزب العمل عاش حياته كلها فى كيبوتز "هولدا" حيث قام بتدريس الأدب وعلم الاجتماع ، ومن الناحية الفكرية ينتمى أموس عوز إلى جيل الأدباء الذى أثار حيرته استمرار احتلال إسرائيل للأراضى العربية وتعنت كتلة الليكود.

وقد نال آموس عوز عدة جوائز تقديرًا لأعماله الأدبية ، وفى كتابه "فى أرض إسرائيل" يكشف التناقضات الخفية التى تنخر فى عظام إسرائيل من الداخل ، ويميط اللثام عن الكراهية والشحناء التى تعتمل تحت السطح بين الطوائف اليهودية المختلفة، كل هذا فى أسلوب يتبع الطريقة الحديثة فى الكتابة التى تسمى "عين الكاميرا" حيث يترك الأشخاص والأماكن تعبر عن نفسها دون أن يتدخل بقلمه .

فى كتابه هذا يعود آموس عوز لاستكشاف إسرائيل من الداخل ، يطوف بمدنها وأحيائها فاحصًا ومدققًا ، لينقل لنا ليس فقط الاختلاف والتباين الشاسع فى مكونات إسرائيل السكانية والثقافية ، ولكن ليضع أيدينا فى نفس الوقت على شهادات حية لهذا الواقع الذى يضطرب بعوامل التناقض والتناحر الداخلى .

وهو فى كتابه لا يقصد معاداة إسرائيل ، وإنما يكشف عن عيوبها ناقدًا رغبة منه فى تحسين صورتها وإزالة ما بها من عيوب وقصور ، ومع ذلك يجىء هذا الكتاب كاشفًا عن صورة داخلية لإسرائيل تستحق أن نراها وأن نعرف أبعادها .

## ١ – العودة إلى مسقط الرأس

كان من الطبيعى أن أبدأ جولتى بحى جئيولاه بالقدس الغربية ، فهنا ولدت وشببت عن الطوق وتعلمت أولى دروسى فى الحياة . وحين وصلت إلى مشارف الحى كانت الشمس قد اقتربت من كبد السماء ، واستطعت عن بعد تمييز المشهد الذى اعتادت عيناى على رؤيته منذ قرابة خمسة وثلاثين عامًا حتى أضحى من معالم الحى الثابتة ، حبال الغسيل المدلاة من شرفات المنازل والممتلئة بالثياب التى تتساقط منها قطرات المياه.

لا شىء تغير هنا ، ولم يفلح الزمن فى أن يترك بصماته على وجه المكان ، كل شىء يذكرنى بالأيام الخوالى التى كنت أعدو فيها فى شوارع الحى طفلاً صغيرًا ، وعلى إحدى بالوعات المجارى بشارع الحاخام مائير استطعت أن أقرا بوضوح عبارة "مدينة ديستمينستر" ، وهى من بقايا أيام الانتداب البريطانى لفلسطين ، وهناك أيضًا من

الناحية المقابلة من الشارع يقبع متجر البقال فى مكانه لم يتغير منذ أربعين عامًـــا ، وإن كان البائع نفسه قد اختفى ليحل محله آخر أصغر سنًا .

وعندما عرجت إلى شارع "ملوك إسرائيل" شعرت ببرودة تدب فى أوصالى فقـــد كنا فى فصل الخريف ، ووجدت الشارع كعهدى به يعج باليهود التقاة من مذهـــب المتصوفة ، يرتدون ثيابهم الطويلة السوداء وقد طالت لحاهم حتى صدورهم أو تكـــاد، يضعون العدسات الزجاجية فوق أعينهم ويتحدثون باللغة اليديشية .

وهنا وهناك كانت النسوة عائدات من السوق فى عجل يحملن احتياجاتهن اليومية ، ويتوقفن ليثرثرن مع الجارات حول الأسعار والسلع وشئون الحياة، حقيقة أن الوجـــوه جديدة بالنسبة لى، ولكن الشوارع والطرق والأزقة والحارات والمبانى والمتاجر مألوفـــة كأننى غادرت المكان بالأمس فقط ، وتذكرت أيام طفولتى فى هذا الحى ، كان المكان يعج بالمثقفين اليهود الذين وفدوا من أوربا الشرقية وباللاجئين المتعلمين الذين هربـــوا من ألمانيا والنمسا خوفًا من بطش النازية ، كانوا يعيشون جنبًا إلى جنب فى سلام مـــع طائفة اليهود الأرثوذكس المتعصبين دينيًا .

كنت تستطيع أن ترى هنا جميع الفئات : الحرفيون والطلاب والمسئولون بالنقابات العمالية ، ورواد الحزب القومى الدينى ، وأصحاب المدرسة التنقيحيـــــة فى الديـــن ، وموظفو حكومة الانتداب البريطانى ، وعاملون فى الوكالة اليهودية، وأعضاء منظمـــتى الهاجانة وأرجون ، وأعضاء منظمة الشباب التابعة لحزب حيروت ، وأعضاء الحركـــة الاشتراكية الموحدة ، ومنظمة بنو أكيفا ، والحركة الشبابية الدينية ، وباحثون بارزون، وحمقى ، ومجانين تحرقهم أنوار النبوة ، هؤلاء الذين كانوا يعتقـــدون أهـــم خلقـــوا ليصلحوا العالم ، لقد كان كل من هؤلاء يعتقد أنه هو نفسه الماشيح المنتظـــر الـــذى سيخلص اليهود من آلامهم ، وفى سبيل هذا الاعتقاد فهو على استعداد دائم لصلـــب معارضيه ليصلب نفسه فى النهاية .

ولعل التغيير الوحيد والحقيقى الذى طرأ على هذا المكان هو أن كل هـــؤلاء قـــد ذهبوا بعيدًا دون أن يخلفوا أى أثر أو علامة تدل على أهم كانوا هنا فى وقـــت مـــن

الأوقات ، وتساءلت أين ذهبوا؟ هل غادروا المكان أم غيروا أفكارهم ؟ أم عساهم وجدوا مكانًا أكثر اعتدالاً يستطيعون التفكير والتنفس فيه ؟ لعلهم اكتشفوا أن الحى يلفظهم وأن سكانه لا يؤمنون بما يقولون ، أو أن المكان غير قابل للتغيير ، وأن أهله يؤمنون بمعتقدات وأفكار ورثوها عن أجدادهم منذ آلاف السنين عن الحياة والموت والخلاص والأغيار الآخرين ، وهذه المعتقدات ضربت بجذورها عميقًا فى العقول والقلوب حتى أصبح مجرد مناقشتها أمرًا غير مسموح به ، بل لعله يؤدى إلا اندلاع براكين السخط والغضب .

حسنًا – لقد رحلت العلمانية إذن من هذا الحى العتيق ، وأرى المكان يحفل الآن بالمتصوفة وتلاميذ المدارس التلمودية الذين أقبلوا من أحياء أخرى مثل حى شعاريم وسانحدريه بل من أماكن بعيدة من العالم مثل نيويورك وتورنتو وبلجيكا ، وأصبحت اليديشية هى لغة الشارع ، ولولا أشجار الزيتون والصنوبر وعبق القدس الخاص ، لاعتقد المرء أنه يسير داخل إحدى التجمعات السكانية اليهودية داخل الجيتو فى مدينة بأوربا الشرقية قبل ظهور هتلر ، فهنا ينسى الجميع الصهيونية ، ومحرقة يهود أوربا ، وإنشاء دولة إسرائيل ، ولا يظهر للعيان واضحًا سوى نمو وتعاظم هذه الجماعات التى تتسم بالتطرف فى معتقداتها كغابة عتيقة عند خط الاستواء .

ولكن يمكن للسائر إذا أمعن النظر أن يرصد بعض مظاهر الحاضر وفخاخه، صبى عربى يكنس أحد الممرات ، إعلانات الشويبس والفانتا تزين كشكًا خشبيًا ، جندى بدين فى بزة عسكرية ملطخة بالأقذار ينقل صناديق السلع من سيارة نقل إلى متجر للبقالة، وعدا ذلك تحمل الحوائط هنا عبارات وشعارات تكاد تكون واحدة تشير إلى شخصيتين تدور حولهما فقط حياة الحى هنا : هتلر – والماشيح المنتظر ، وكل شىء عداهما تافه وزائل لا يشغل البال ، فلولا هتلر لما ظهرت فكرة الصهيونية ولما كان لأتباعها الحق فى مجادلة فكرة التصوف ، وبسبب الماشيح يحيطك هؤلاء المتصوفة بأطواق حديدية لا تملك منها فكاكًا ، ولا تستطيع أن تفتح معهم بابًا للمناقشة .

واتتنى رغبة فى التدخين دلفت إلى متجر قريب ، كان البدال واقفًا يصغى باهتمام شديد لأحد المتصوفة لدرجة أنه لم يلحظنى ، كان يبدو على هيئته أنه من السفارديم أى اليهود الشرقيين ، ويضع على رأسه قلنسوة سوداء من ذلك النوع الذى يرتديه المتدينون ، أما المتصوف فقد كان شابًا فى الثلاثينيات ذا لحية طويلة شقراء ، وكان يلقى محاضرته على البدال فى أناة شديدة ، ووصل إلى سمعى كلماته الأخيرة التى تقول: "وأخيرًا .. وبعد أن يأس المريض من الشفاء ، وضاق ذرعًا بعلاج الأطباء وأدويتهم الكثيرة ، توجه إلى المقابر عشية العيد المقدس وألقى بنفسه أمام قبر أحد الصدوقيين طلبًا للبركات .. وعندما عاد إلى منزله كان سليمًا معافى ، زالت قروحه وشفى من ضغط الدم وآلام الظهر" .

هز البدال رأسه مؤمنًا على كلامه فى انبهار ، وأخيرًا استجمع أطراف شجاعته ليسأل فى دعة ورهبة : "أكان كل هذا نتيجة لدعائه أم لأن الحاخام المتوفى منحه نوعًا من البركات والتمائم؟" .

فرد الواعظ بتعالى العارف قائلاً : "كلا .. إنه كان مسلحًا بالإيمان .. هذا هو كل ما فى الأمر .. إنها مسألة إيمان" .

وفى هذه اللحظة وقعت عينا البدال عليَّ ولبى طلبى ، وحينما كنت أشعل لفافة التبغ مغادرًا المتجر ظلت كلمات المتصوف الأخيرة ترن فى أذنى "إنها مسألة إيمان" ، وقلت لنفسى إن كلمة "إيمان" التى يعنيها الواعظ تختلف جذريًا حقًا عن الكلمة التى يفهمها الإسرائيليون حاليًا ، لقد أصبح الإيمان الآن بالجيش وبالقوة ، وليس فى الخلاص الذى يمنحه الله .

تذكرت فجأة كلمات دون سادان معلمى فى المدرسة منذ عشرين عامًا ، كان يقول إن الصهيونية ليست سوى حلقة عابرة، أو مجرد ظاهرة دنيوية مؤقتة فى التاريخ والسياسة، وأن اليهودية الأرثوذكسية ستعود إلى الظهور مرة أخرى لتبتلع الصهيونية بل وتهضمها فى أحشائها ، تذكرت هذه الكلمات وأنا أنتقل من حى جيئولاه إلى حى أشفاه ثم إلى ميكور باروخ ، وأيقنت بعد تفكير أن الصهيونية قد رحلت من هنا ،

وإن لم يكن الأمر كذلك فهى على الأقل قد نفيت إلى داخل ركن قصى لتقتصر مهامها على الأعمال الدنيوية مثل رفع مستوى المعيشة ، أو تشغيل مرافق الحياة اليومية من كهرباء وماء مجارى وأعمال نظافة ، إنها تحولت إلى فتى من الأغيار يقوم بالأعمال اليدوية التى يعزفون عنها .

قررت أن أزور إحدى المدارس التلمودية هنا لأتعرف على نوع التعليم الذى يتلقاه الصغار الذين سيصبحون رجال المستقبل ذات يوم ، وجدت مبنى المدرسة عتيق الطراز يرجع إلى العهد العثمانى بحوائطه السميكة وأسواره العالية ، ورأيت عمدة مدينة القدس "تيدى كوليك" يشرف بنفسه على إصلاح سقف المدرسة بينما يقف بعض العمال العرب على سقالات خشبية ، وعلمت أن السلطات المختصة أرسلتهم لإجراء إصلاحات شاملة فى المدرسة بمناسبة اقتراب فصل الشتاء .

قالوا لى أن المناهج الدراسية فى هذه المدرسة تعتمد على الديانة اليهودية أساسًا ، وليست لها صلة بالأيديولوجية الصهيونية ، ومع ذلك تعترف وزارة التعليم بالشهادات التى تمنحها المدرسة لخريجيها ، بل تقدم لها الدعم المالى ، كما تدعم الحكومة سيارات الأوتوبيس التى تقل التلاميذ إلى منازلهم ووجبة الغذاء الساخنة ، حيث تستمر الدراسة حتى الساعة الرابعة بعد الظهر على الرغم من أن المدارس العلمانية الأخرى تغلق أبوابها فى الساعة الواحدة ، أما هذه المدرسة فتقدم دروسًا مكثفة ، ويدرس التلاميذ الكبار "١٢ – ١٣ – ١٤ عامًا" حتى الساعة السادسة مساءً، وتتبع المدرسة نظامًا فريدًا من نوعه فهى تسجل فى كشوفها أسماء الصبية الذين لا يرغبون فى الدراسة ولكن يريدون العمل كحرفيين فى سن مبكرة حتى لا يجندون فى الجيش .

وسألت عن نوعية المناهج التى تدرس ، فقال لى أحد المدرسين أننا نركز على التعاليم الدينية وإن كنا ندرس بعض المواد العلمانية مثل الحساب والجغرافيا وتحسين الخطوط ، ولكننا لا ندرس العلوم الطبيعية لأن حكماءنا يقولون لا تقضم من الطعام أكثر مما تستطيع مضغه .

وعندما سألت هل تخصصون حصصًا للتدريب المهنى، أجابنى المدرس بسؤال آخر مشيرًا إلى العرب الذين يعتلون السقالات "ولماذا خلق الله إذن هؤلاء القوم؟"، وأعاود السؤال : "هل تدرسون التاريخ هنا؟" فيجيب المعلم : "نعم.. نحن ندرس التاريخ اليهودى وليس لنا شأن بأى تاريخ آخر ، فما شأننا بالدنس والقتل والسطو والبغضاء، أليست هذه قصصًا ودروس التاريخ الدنيوى؟" .

وأتوقف برهة محاولاً ازدراد هذه الكلمات ، ثم أسأله : "ألا تحتفلون إذن بعيد إقامة إسرائيل؟" فيبتسم محدثى باسى ويقول لى بصوت خافت: "علام نحتفل يا صديقى؟ هل عاد الماشيح المنتظر؟ هل جاء يوم الخلاص؟" ثم تحول صوت المعلم إلى همس وقال: "إن ما سأقوله الآن هو كلام بينى وبينك فقط ، فالدولة التى أقمتموها لأنفسكم ليست موضع فخار ، والمرء الذى لا يتركها يشعر بالخجل لذلك ، فما هو الأمر العظيم الذى يدعونا للاحتفال؟! هل هو أننا أصبحنا كالأغيار ، كالآخرين، فالحقيقة أنكم أصبحتم أسوأ من الأغيار ، نعم أن الأغيار أنفسهم يحتقرونكم ، ولا يجانبنى الصواب إذا قلت أنكم تفتقرون الموهبة لتصبحوا كالأغيار الآخرين ، لقد أصبحتم كالرجل الذى يحاول أن يقلد القرد فيثير الضحك ، ثم تقول لى نحتفل بهذه الدولة ، إن أى يهودى هنا يجد الفرصة فى الهروب من هذه الدولة سيسارع باقتناصها ، فإلى أى مدى أوصلتكم هذه الدولة التى أقمتموها ، لقد جعلتكم قتلة وعاهرات ولصوصًا وفاسدين وكفرة ، بالطبع لا أعنيك يا سيدى فهناك بعض الأشخاص المحترمين ، وأعتقد أنك يهودى طيب وإلا ما ساقتك قدماك إلى هذا المكان .

وفجأة وجدت على لسانى سؤالاً يندفع تلقائيًا قبل أن أستطيع منعه .

سألته عن رأيه فى جماعة "جوش امونيم" التى تدعو إلى التوسع فى المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى العربية المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ وتستخدم فى ذلك العنف أحيانًا ، فزمجر المعلم فى غضب وهو يقول :

"إنهم ليسوا يهودًا بل جماعة من الأغيار ، إنهم يتصرفون كما لو كان الماشيح المنتظر فى جيبهم ، إنهم بأعمالهم يثيرون الأغيار ضدنا ، وما هو المقابل ؟ كمية من

الصخور والأشجار ، إن تصرفات هذه الجماعة تثير غضب العالم علينا وتحرض ضدنا الأعداء ، وستؤدى هذه الجماعة إلى ظهور هتلر جديد يمارس ضدنا الإبادة" .

غادرت المكان مسرعاً بعد أن وعدت الرجل بزيارة أخرى أحضر فيها بعض الدروس ، لقد رأيت بعينى انبعاث اليهودية الأرثوذكسية أو الأصولية ، وبدأت أتساءل هل ستدخل فى صراع مع الصهيونية ، ولكن هل تناسوا فوائد الصهيونية بالنسبة لإسرائيل ؟ فهى استطاعت أن تحول عن طريق شبكة معقدة ومتداخلة عرق عامل أمريكى من ديترويت وفلاح من أوهايو أو ميسورى إلى أموال تتدفق إلى داخل إسرائيل من خلال قنوات المعونة الخارجية ، ومن المفارقات أن مليارات الدولارات التى تقدم سنويًا على شكل معونات لتلك الدولة التى تقول بطاقة هويتها أنها ديمقراطية ومستنيرة وتقدمية ، تصل إلى مثل هذا المجتمع المغلق الذى زرته ، والذى يوجد على غراره مجتمعات أخرى فى إسرائيل تنتمى إلى عصور سحيقة ، ترى أن بيروت وصور وصيدا هى أسماء الأماكن فى كواكب أخرى ، وتبدو بالنسبة لها القضية اليومية فى الحياة الإسرائيلية كالحرب والتضخم والرقابة والليكود وحزب العمل والهستدروت وشركة العال وفريق الماكابى لكرة السلة تبدو وكأنها رمال متحركة ، أما الثابت لديها فهما هتلر والماشيح المنتظر .

## ٢ – فى بيت شميس أو مدينة الغضب

هل أصابت اللعنة إسرائيل ؟

طاف هذا التساؤل بخيالى وأنا فى طريقى إلى مدينة بيت شميس الصغيرة التى كانت تستخدم فى الماضى كمعسكر انتقال ، يقيم فيه اليهود المهاجرون من كل بقاع العالم إلى أن يتم تدبير أماكن لتوطينهم .

كان اليهود يقبلون من كل صوب ، جميع الطوائف والجنسيات والملل ، لغات شتى، وجوه متباينة ، طبائع متنافرة ، كانت الأغلبية ليهود أوربا الشرقية ثم غرب أوربا ثم الولايات المتحدة ، وهذه المجموعة التى أطلق عليها اسم "الاشكناز" كانت

أكثر حظا فى التعليم والثقافة والثراء ، وسرعان ما شكلت النخبة الحاكمة ، وانضمت إلى حزب العمل باعتباره حزبا علمانيا تقدميا يتسم بالتسامح .

ثم جاءت بعد ذلك مجموعة اليهود الشرقيين من الهند والمغرب ومصر واليمن وغيرها وهم الذين أطلق عليهم لقب "السفارديم" ، وهذه المجموعة بحكم انتمائها لدول ما يسمى بالعالم الثالث كانت أكثر فقرا وأقل نصيبا فى التعليم ، ومن الطبيعى أنها كانت تأتى فى ذيل قائمة المجتمع ، أما فى الجيش فكان أفرادها دائما يشكلون الجنود أو ضباط الصف على أكثر تقدير ، وانضم معظمهم إلى حزب الليكود باعتباره حزبا يمينيا محافظا يؤيد القيم التقليدية التى يؤمنون بها أبا عن جد .

ولكن التناقض بين الاشكناز والسفارديم تزايدت حدته إلى درجة تكاد تصل إلى الانفجار خاصة بعد انتقال حزب الليكود من مقاعد المعارضة إلى الحكم ، واستقطابه لليهود الشرقيين الذين يطالبون كل يوم بمزيد من المساواة مع يهود أوربا، لقد قررت أن أتوجه إلى بيت شميس معقل السفارديم والليكود لعلى أجد جوابا لسؤالى : هل نقترب من حرب أهلية بين المجموعتين ؟.

وكانت قد مرت قرابة عشرين عاما منذ أن خطوت لآخر مرة على شوارع مدينة بيت شميس الصغيرة الهادئة ، لم يبق فى ذاكرتى منها سوى صفوف من المنازل المتواضعة التى أقيمت على عجل و لم يراع فى إنشائها ذوق أو جمال ، وأتذكر فوق أسطحها سخانات تعمل بالطاقة الشمسية ، وأمامها أفنية مهملة مهجورة قد ذبلت نباتاها ، يسكنها عمال تلوح على وجوههم الكآبة ، وسيدات بدينات ارتسم على محياهن عبء الحياة وقسوها .

وحين عدت إلى بيت شميس مرة أخرى بعد طول غياب ، استطعت بعد جهد أن أعثر على بقايا معسكر الانتقال الذى كان نواة إنشاء المدينة التى تغيرت إلى حد كبير، فقد زاد عدد المساكن ، وارتفعت الطوابق ، واتسعت الشقق، وأضافت بعض المنازل حدائق إليها بعد أن نقلت التربة الطمية من أماكن بعيدة وكست بها أرض المدينة الصخرية .

عثرت على مقهى جديد يطل على الميدان ، جلست لأحتسى قدحا من القهوة ، كان الجالسون حولى يشربون البيرة ويتناقشون فى نتائج المباريات الرياضية ، لاحظ أحد الجالسين أننى غريب عن المكان ، فاقترب بكرسيه منى وقال : لعلك جئت تشاهد مشروع "**ابنى مسكنك بنفسك**" الذى تنفذه شركة أميدار ، حيث تبنى لك الشركة حجرة أساسية ثم تقوم أنت بإكمال المترل حينما تسمح لك مواردك المالية بذلك ، وكما ترى فهذا المشروع من بقايا حكومة حزب العمل .

وبدلا من الإجابة على سؤاله توجهت إليه بسؤال آخر : هل يوجد هنا أنصار كثيرون لحزب العمل ؟

فرد قائلا : لا يوجد سوى زمرة منهم يتعيشون على منح يقدمها الحزب لهم .

وهنا أعدت السؤال بصيغة أخرى : هل يعنى ذلك أنه يوجد هنا أنصار لحزب الليكود؟

وفجأة وجدت الجالسين على المناضد يتوقفون عن الكلام والشرب والضجيج ، وتتحول الرءوس باتجاهى ، ثم أخذ ستة منهم يتحدثون بصوت عال فى وقت واحد، ولكن أحدهم وهو شاب ضخم الجثة وقف وقال بصوت غطى على الجميع "نعم".. نحن أنصار مناحم بيجين .. نعم نحن سود الوجوه الذين وصفهم شيمون بيريز زعيم حزب العمل بأنهم يؤيدون الخمينى الجديد .. يقصد بيجين" .

وانبرى شخص آخر ولكن نبراته كانت أكثر هدوءا – ليقول : "هل يستطيع شخص مثل شيمون بيريز أن يصبح رئيسا للوزراء ، إنه ضعيف هش لا يتحمل الضغوط، هل رأيته أثناء الحملة الانتخابية ، إنه كان يذرف الدموع ألما لمجرد أن مجموعة من الناخبين هتفت يحيا بيجين ، هل يستطيع مثل هذا الشخص أن يواجه العرب ويقف أمام العالم" .

واستدرت لأسمع صوت شاب يجلس خلفى يقول فى حماس : "هل رأيت زعيم الليكود على شاشة التليفزيون وهو جالس فى الكنيست ، وهل شاهدته وهو يواجه

صيحات المعارضة برباطة جأش ، لقد تركهم يخرجون كل ما بداخلهم من غضب ، وبعد ذلك حطمهم جميعا بدعابة واحدة أطلقها ثم استمر فى كلامه كأن شيئا لم يكن، هذا هو ما ينبغى أن يفعله الزعيم" ..

وعلى حين غرة تقدم من داخل المقهى رجل فى أواسط الأربعينيات ضخم الجثة ، أصلع الرأس ، واقترب من المنضدة التى أجلس أمامها وصاح بصوت أجش : "لماذا تتحدثون إلى هذا الرجل؟ ألا تعرفون من هو ؟ ألم تشاهدوه على شاشة التليفزيون وهو يهاجم بيجين ويتفوه بكلمات ضد البلد؟" .

جذب صوته المرتفع الصاخب أشخاصا آخرين وعددا من المارة .

وفى أقل من دقيقة وجدت أكثر من عشرين شخصا متحلقين حولى ، يحدقون فى وجهى محاولين الكشف عن شخصيتى ، صاح أحدهم أخيرا : "هذا هو الكاتب آموس عوز" . لم أكن أود أن يكشفوا شخصيتى خاصة بعد أن عرفت أن هذه المدينة بأكملها من أنصار الليكود ، وأنا من أنصار حزب العمل ، ومع ذلك مضيت فى محاولتى للتعرف على الآراء ووجهات النظر ، وشجعنى على ذلك روح الود التى أظهروها تجاهى ، فقد انهمرت على "الطلبات" .. المثلجات ، الشاى ، القهوة ، السجائر، على حسابهم طبعا ، كانوا يتصايحون ويتكلمون فى وقت واحد ، والجميع يطالبنى بأن أكتب الحقيقة .

حاولت بعد جهد جهيد أن أنظم النقاش ، أن أدون الكلمات والآراء التى تخرج من أفواههم كطلقات الرصاص ، كانوا يحدثون جلبة شديدة وهم يتكلمون فى غضب وسخط ، وأخيرا قررت التزام الصمت وأن أتركهم يتحدثون على سجيتهم ، واكتفيت بتدوين الملاحظات وهذه بعضها :

- ما فائدة الكبيوترات؟
- ماذا استفدنا من الهستدروت؟
- لماذا أدخلتم التليفزيون؟

- كيف يتوجه شيمون بيريز إلى واشنطن لكى يشوه صورة إسرائيل هناك ؟

- هل من مصلحتنا استمرار العمليات العسكرية فى لبنان ؟

- لماذا استقال القائد العسكرى إيلى جيفا من قيادة إحدى الوحدات فى لبنان ؟

- يجب على إسحاق نافون (رئيس إسرائيل) أن يبتعد عن العمل السياسى وإلا فسيسحقه الليكود .

وفجأة قطع هذه الأسئلة والكلمات صوت من آخر الدائرة التى اكتملت حولى يصيح فى غضب : "عليكم اللعنة أيها البيض" ، وفهمت سر غضبه، فهذه المدينة التى تناصر الليكود يسكنها غالبية من اليهود الشرقيين سمر الوجوه ، بينما يناصر حزب العمل اليهود الأوربيون بيض الوجوه ، وهم هنا يشعرون بنوع من الاضطهاد أو التفرقة العنصرية ، وتحولت دفة الحديث وبدأوا يقصون علي روايات عديدة عن هذه التفرقة .

- إننى أنحدر من أصل مغربى، وعندما جاء أبواى إلى هنا كانا يحملان معهما العزة والكرامة والقيم الحميدة ، ولكن ما الذى حدث ، لقد رشت السلطات الإسرائيلية فى مطار حيفا مادة "الليزول" المطهرة على هذه المعتقدات لقتلها قبل أن تدخل البلاد ، لقد قتلوا فينا الكرامة .

- لقد أجرت سلطات حزب العمل للمهاجرين الجدد عملية غسيل مخ لانتزاع معتقداهم التى أتوا بها ، ثم حشروا فى أدمغتهم أفكارا أخرى بدعوى تغييرهم إلى الأفضل ، كما لو كنا نحن المهاجرين نحمل الأقذار فى رءوسنا . هل تصدق أن ابن جوريون نفسه أطلق علينا وصف "**تراب الأرض**" .

- وجاء بيجين إلى الحكم مع فوز الليكود ، وأعاد إلينا نحن اليهود الشرقيين الكرامة.

– إن مشكلتكم فى حزب العمل أن الجنون أصابكم منذ وصول بيجين إلى الحكم من مقاعد المعارضة ، وأنتم لا يهمكم أن تذهب البلاد إلى الجحيم مادمتم ستصلون إلى السلطة .

– إن حزب العمل لا يتورع أن يلقى بالأقذار فى وجه البلاد ويشوه صورتنا أمام العالم ، ويؤيد الأعداء فى سبيل الوصول إلى الحكم .

– قبل كل انتخابات يأتينا ممثلو حزب العمل ، هؤلاء البيض الحمر ، للحصول على أصواتنا ، وفيما عدا ذلك يمنعوننا من دخول الكيبوتزات أو استخدام حمامات السباحة وملاعب التنس التابعة لها ، هل تدرى أنهم يرسلون صغارهم إلى مدارس تبعد عنهم مائة كيلومتر كاملة ولا يأتون بهم إلى مدارسنا القريبة لأننا لسنا من البيض .

– إذا فكر أحدنا فى التوجه إلى كيبوتز لحزب العمل كما فكرت أنت فى المجىء إلينا فماذا تكون النتيجة ؟ سيتصل السكرتير تليفونيا بالشرطة ويبلغها بأن شخصا غريبا يتجول فى المكان .

– وماذا يحدث إذا فكرنا ذات يوم أن نقلدكم ونتوجه إلى كيبوتز بأتوبيس لنحشد أصوات الناخبين لصالح الليكود ، بالتأكيد ستقذفون بنا إلى الطريق كالكلاب الضالة.

– سأخبرك بملحوظة ملأت نفسى بالمرارة ، عندما كنت طفلا كانت معلمتى فى الحضانة بيضاء ومساعدتها سمراء اللون ، وعندما دخلت المدرسة كان معلمى عراقيا أما الناظر فكان بولنديا ، وعندما تخرجت أصبحت عاملا ، أما رئيسى فكان رجلا أوربى الأصل؛ وفى مصحة المدينة – نفس الوضع – الممرضة مصرية والطبيب اشكنازى من أوربا ، وفى الجيش الجنود مغاربة والضباط اشكناز من الكيبوتزات، لقد ظللت طيلة حياتى فى القاع وأنتم تعتلون القمة .

– حقا لقد أعطيتمونا المنازل والمدارس والعمل الحقير ، ولكنكم أخذتم منا الاحترام، هل تدرى لماذا جلبوا أبواى إلى إسرائيل ؟ سأخبرك بالحقيقة .. لقد جاءوا

بنا لنقوم بالأعمال الوضيعة التى يتأففون من القيام بها .. فلم يكن العرب وقتذاك يقومون بهذه الأعمال ، فأصبحنا نحن العمال والخدم وجامعى القمامة .

-لقد أصبحت مشرفا وجارى مقاول ، والشخص الواقف هناك يمتلك مشروعا للنقل الخاص ، ولكن ماذا سيحدث لنا إذا سلمتم الأراضى التى يطالب بها العرب ، سيحدث أن العرب سيحجمون عن العمل لدينا ، وستعوضون نقص العمالة هذه بإعادتنا إلى ما كنا عليه من قيام بأعمال يدوية وضيعة . إن ابنتى تعمل موظفة فى البنك بينما يقوم بتنظيفه عامل عربى ، وأنتم تريدون انتزاع ابنتى من وظيفتها لتمسح الأرضية بدلا من العربى كما كانت تفعل أمهاتكم ، ولهذا فنحن نكره حزب العمل هنا ، إن هذا لن يحدث مادام الليكود فى الحكم .

-إنكم مازلتم تحكمون البلاد وليس الليكود ، فلديكم اتحاد النقابات العمالية "الهستدروت" ، ولديكم الصحافة والإذاعة والتليفزيون ورءوس الأموال أيضا .

-قل لى برب السماء لماذا هاجمتم بيجين ؟ لقد وفى بوعوده جميعا ، ألم يقل أنه سيأتى بالسلام إذا وصل إلى الحكم؟ ووصفتموه حينئذ بأنه غوغائى؟ وقد حقق الرجل وعده وأقام السلام مع مصر ، ووفى بوعوده الأخرى ، دمر المفاعل النووى العراقى ، وأقام السلام فى الجليل ، وضرب الصواريخ السورية ، وكثف المستوطنات فى الضفة الغربية ، ولم يذعن للضغوط الأمريكية، ومع ذلك لم يفكر فى اتخاذ إجراءات انتقامية ضدكم عندما وصل إلى الحكم ، لقد عاملتموه ككلب طيلة ثلاثين عاما دون منحه فرصة واحدة ، ولم يحصل أحد من رجاله على منصب حكومى ..

-وتتحدثون عن العنف ؟ من الذى بدأ العنف هنا؟ صدقنى ، إذا لم يكن اليهود الشرقيون قد جاءوا إلى إسرائيل لاستمر اليهود الاشكناز فى ذبح أحدهم الآخر ، ألم يقتل بعضهم البعض فى الكيبوتزات بسبب روسيا ، ألم يسلموا أعضاء منظمة "أرجون" التى كان يتزعمها بيجين إلى البريطانيين وقت الانتداب؟ ألم يتقاتل الشيوعيون مع المتدينين ؟

– ألا ترى كيف أن رجالكم ضعاف النفوس مثل الكاتب يوسى ساريد الذى قـام بحملة إعلامية أثناء الحرب ضد إسرائيل ، وهذا ما فعلتموه أثناء حرب يوم كيبور ، لقد كدتم تدمرون البلاد .

– إننا لن ننسى الفساد الذى صاحب فترة حكمكم ، السرقات والرشاوى والقطط السمان التى ترعرعت ونمت أيامكم .

– وما رأيك فى جماعة "السلام الآن" التى تقيم الدنيا ولا تقعدها ضد الليكود ويحرضون الأغيار على الاستيلاء على البلاد .

– عندما كنتم فى الحكم كنتم تخبئوننا فى المدن والقرى البعيدة والمستوطنات النائية حتى لا يرانا السائحون ، وبالتالى لا نشوه الصورة التى رسمتموها لأنفسكم أمام العالم بأنكم دولة يقطنها البيض ، ولكن هذا انتهى الآن ، فلقد خرجنا من جحورنا ، وإن ما يؤلمكم هو الكبرياء والغطرسة ، فأنتم تعتقدون أنكم ورثتم هذه البلاد من "بابا حزب العمل" ، إنكم لن تصلوا إلى الحكم مرة أخرى قبل مرور مائة عام، فقد يأسنا منكم .

– ولماذا تطالبون بالتفاهم مع العرب؟ ماذا سيحدث لو ضممنا الأراضى المحتلة إلى دولة إسرائيل ؟ هل يحتاج العرب إلى مزيد من الأراضى ، إن لديهم ما يكفيهم، وقد حصلوا على سيناء بأكملها ، فهل تريدون إعطائهم القدس وبيت شميس أيضا ؟ ولكن شيمون بيريز يريد أن يبيع البلاد للعرب فى سبيل الوصول إلى الحكم ، فهل يريد العرب دولة لهم فى الضفة الغربية ؟ كلا .. إنهم يريدون أن يلتهمونا أحياء .. وأنتم تحرضونهم بالمظاهرات التى تنظمونها مع جماعة "السلام الآن" .

– أرجوك اعقد مقارنة بين بيت شميس وأحد الكيبوتزات حيث يتعاطى الشباب المخدرات ويسرقون السيارات ، ويعصون أوامر القيادة وقت الحرب ، ويتزوجون فتيات سويديات ، ويهاجرون من البلاد ، ومع ذلك فإنهم ظرفاء ومدللون ، أما نحن فرجال عصابات ورعاع .

– ألم تسألوا أنفسكم أبدا من الذى دفع اليهود المغاربة إلى ممارسة الدعارة والجريمة، من الذى علم الصغار أثناء وجودهم فى معسكرات الاعتقال الاستهزاء بالكبار والسخرية من الدين ورجاله ، ومن الذى أوحى إلى اليهود الشرقيين أن المال هو أهم شيء فى الحياة ، ومن الذى أدخل السرقة والغش والاحتيال ؟

– وأنت لماذا هاجمتنا على شاشة التليفزيون أثناء الانتخابات ؟ لماذا تكرهنا؟ هل نحن أشرار؟ لماذا؟ هل تعانى من الجوع ؟ هل تسكن أحد الأكواخ الحقيرة؟ هل أهانك أحد؟

– هل تريدون إنهاء حالة الكراهية بيننا؟ حسنا .. تعالوا واعتذروا عما سلف..قولوا أنكم أخطأتم وأذنبتم فى حقنا ، وتخلوا عن الغطرسة التى تتسمون بها .

كانت الكلمات تتدفق كالمطر وتنهال على رأسى كالمطارق ، كانوا يتحدثون بغضب وحمية تغلفها المرارة ، لم أستطع بالطبع أن أدون إلا بعضا منها وقد فاتنى منها الكثير .

## ٣ – مناحم وهاريت ودانى

لاح فى الأفق جبل هيروديون الذى تقع تحت سفحه مستوطنة تيكواه كالقزم على بعد سبعة كيلومترات فقط من بيت لحم ، كانت السماء صافية والشمس مشرقة فى هذا الصباح مبشرة بيوم دافئ صحو ، لم يبق سوى منعطف واحد طويل اجتازه قبل أن أصل إلى المكان المنشود .

كنت متشوقا لأن ألتقى بأبناء هذه المستوطنة الذين جاءوا من مختلف دول العالم ليقيموا هنا حالمين بأرض الميعاد ، منتظرين لحظة الخلاص التى وعدهم بها كتابهم المقدس .

لقد ذاع صيت هذه المستوطنة باعتبارها البوتقة التى انصهرت فيها جميع الطوائف والأجناس من اليهود ، الأمريكيون والروس ، العلمانيون والسلفيون ، المعتدلون

والمتطرفون ، كلهم يعيشون جنبا إلى جنب فى محاولة للتعايش والتفاهم بغض النظر عن اختلاف العقائد والأفكار .

وفى الطريق كنت أفكر فى القنابل الزمنية والألغام المدفونة فى أعماق الأعماق تحت "أرض الميعاد" ، ولا يعلم سوى الله متى ستنفجر أو من الذى سينزع الفتيل ، لم أكن قد أفقت بعد من لقاء بيت شميس ، والهجوم العنيف ومشاعر المرارة التى أبداها اليهود الشرقيون تجاه اليهود الغربيين ، كانت الأمور قد أخذت مجرى حزينا ومؤسفا ، فقد تعرض المجتمع الإسرائيلى مؤخرا لموجة عاتية من الاستقطاب الداخلى أخذت بتلابيبه وهى تصنف فئاته وطوائفه وجذبها حول التكتلات السياسية .

ومن ناحية أخرى ، لم أكن قد نسيت بعد ما يحدث فى حى جئيولاه بالقدس ، حيث اكتسح التيار الدينى المتطرف روح الاستنارة والتعقل ، وأصبحت أمور الحياة والاقتصاد والعلوم والطب والفلك والصناعة وغيرها تفسر وفقا لما ورد بالتوراة ، أو كما ينادى به الأحبار ذوى القلنسوات السوداء .

وحين وصلت إلى مشارف المستوطنة ، استطعت أن أميز منازلها التى بنيت فى صفوف متوالية فوق التلال الصخرية وجميعها من المساكن السابقة التجهيز ، حتى الفيلات الصغيرة المتناثرة هنا وهناك، وعلمت أن تيكواه أنشئت كمستعمرة عسكرية فى عام ١٩٧٠ ، ولم تكن سوى مجموعة من الأكواخ الخشبية والخيام يتوسطها علم ومحاطة بالأسلاك الشائكة ، أما الآن فقد تغيرت الأحوال وتحولت المستعمرة إلى مستوطنة مدنية عام ١٩٧٧ ، وتسلمتها حركة "آمانا" وهى الجناح المسئول عن المستوطنات فى جماعة "جوش أمونيم" .

وقد بدت هذه المستوطنة بمساكنها السابقة التجهيز المصنوعة من الخرسانة والألمونيوم والبلاستيك غريبة عن هذا المكان بصخوره ورماله الداكنة ، ويزيد من غرابتها القرى العربية القريبة ذات الطراز المختلف عنها ، بل إن هذه المستوطنة فى حد ذاتها تجمع بين سكانها مجموعة غريبة متنافرة الأصل والمشارب ، قلة منهم ولدوا فى إسرائيل ، والباقى جاءوا من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة والأرجنتين وفرنسا

وبريطانيا ، والنظام هنا أن يقدم المستوطنون طلبا للحصول على ترشيح بقبولهم أعضاء فى المستوطنة ، وبعد ذلك بفترة يقبلون كأعضاء فيها ، ولمنع الخلافات بين المتدينين وغير المتدينين تم شق طريق دائرى حول المستوطنة ليستخدمه العلمانيون أيام السبت للمرور دون إزعاج المتدينين الذين يحرمون العمل أو حتى قيادة السيارات فى هذا اليوم الذى يقدسونه .

ومعظم المستوطنين هنا يعملون فى القدس التى تبعد عن تيكواه بمدى نصف ساعة بالسيارة ، ثم يعودون فى نهاية اليوم للنوم فى المستوطنة ، وتمتلك جميع الأسر هنا سيارات خاصة لأنها ضرورية للانتقال وابتياع الحاجات ، وغالبا ما يضطر السكان إلى التوجه إلى القدس لشراء متطلباتهم اليومية حيث أن المستوطنة لا تزال تفتقر إلى الخدمات الأساسية ، كما لا توجد أية وسائل ترفيه لقضاء وقت الفراغ ، ولا يوجد من وسائل الأنشطة الاجتماعية سوى مجلس المستوطنة الذى ينعقد أسبوعيا لمناقشة المشكلات وإيجاد الحلول ، وعلى رأس هذه المشكلات الديون التى ترزح المستوطنة تحت عبئها ، إلى جانب الأخطار الأخرى وخاصة بعد مصرع ديفيد روزينفيلد – أحد الحراس مؤخرا .

هالنى – عندما رحت أسير فى شوارع المستوطنة – ابتعاد الناس عنى كأننى غريب غير مرغوب فيه ، وحينما حاولت الالتقاء بالسكان والتحدث معهم على سجيتى ، كان الرد الذى يأتينى دائما "نحن لا نتحدث إلى الصحافة .. ويمكنك لقاء المتحدث المعتمد باسم مجلس المستوطنة" ، وحيث أننى وصلت دون سابق إخطار فلم أستطع العثور على هذا المتحدث فى الحال ، وحلت سيدة بريطانية الأصل المشكلة بقولها : "يمكنك التجول فى أنحاء المنطقة لتأخذ فكرة عنها إلى أن يصل المتحدث الرسمى" .

ولكن هذا الاتجاه إلى التزام الصمت لم يكن عاما ، فقد عثرت على ورشة فى ركن قصى من المستوطنة يمتلكها شخص يدعى "مناحم" ولديه عامل واحد اسمه دانى ، كان مناحم مستعدا للتحدث والثرثرة حول أى شىء فى العالم كله باستثناء مستوطنة تيكواه.

ينحدر مناحم من أسرة يمنية من عدن جاءت إلى القدس فى أوائل القرن الحالى ، وتلقى تعليما دينيا منذ صغره ، وأثناء حرب ١٩٤٨ هربت أسرته من القدس لتستقر فى يافا ، ثم تلقى مناحم تدريبا مهنيا وتنقل بين عدة أعمال، ثم رحل إلى لندن ليعمل هناك فى صناعة الماس ، وبعد حرب يونيو ١٩٦٧ عاد مرة أخرى إلى إسرائيل ، ثم تزوج من فتاة أمريكية تدعى هاريت ، وراودته فكرة أن يكون له مشروع مستقل فجاء مع زوجته وأولاده الخمسة إلى تيكواه ، وأسس ورشة لصناعة الأدوات المستخدمة فى قطع الماس وصقله ، ولكن رأس المال ليس ملكه خالصا ، فقد شارك ببعضه ، بينما قدم القطاع الأكبر منه مجلس المستوطنة والحكومة والوكالة اليهودية ، ومع ذلك فهو المالك الرسمى لهذا المشروع الذى حقق نجاحا وفقا لكلامه .

قضينا وقتا طويلا – مناحم ودانى العامل وأنا – نثرثر حول صناعة الماس والورشة وقصة حياته، وأخيرا دعانى مناحم إلى تناول قدح من القهوة فى بيته ، وصحبنا دانى ، وعلمت أن المتحدث باسم المستوطنة فى زيارة للقدس وربما يتأخر هناك حتى المساء، ولذلك رحبت باحتساء القهوة لدى مناحم .

وصلنا إلى منزله المقام على مرتفع عن الأرض ، استطعت من شرفة المنزل تمييز أضواء المستوطنة المجاورة "مالية آموس" التى تربض فوق إحدى التلال البعيدة ، وقال لى مناحم وهو يشير إلى المستوطنة التى يعنى اسمها "تل النبى آموس" – وهو أحد أنبياء اليهود – هناك يعيش اليهود الأرثوذكس السلفيون بثيابهم السوداء ، إنهم يجلسون هناك منذ الصباح حتى المساء ليتدارسوا التوراة ، ولا يدرى أحد من أين يحصلون على رزقهم.. ربما كانوا يعيشون على الهبات" .

قدمت لى زوجته هاريت – الأمريكية الأصل – قهوة مصنوعة على المذاق اليمنى ، قالت لى إنها من نيويورك وأنها جاءت إلى إسرائيل منذ أربعة عشر عاما، وعلمت أنها ربة بيت حاليا بعد أن حصلت على إجازة من عملها لرعاية أطفالها الخمسة ، كانت تعمل فى مركز استقبال المهاجرين وتأمل فى العودة إلى عملها بعد أن يكبر الأطفال ،

وعزاؤها فى ذلك أن العمل فى المركز لم يعد مكثفا بسبب انخفاض معدلات الهجرة إلى إسرائيل ، وإن كانت تتوقع أن ترتفع هذه المعدلات قريبا مرة أخرى .

سألتها كيف سترتفع معدلات الهجرة ؟ قالت حدوث شيء هام يوحد اليهود ويقرب بين صفوفهم مثل انتصار يونيو ١٩٦٧، فمناحم زوجى عاد إلى إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ وأنا هاجرت إليها لهذا السبب ، عدت أسأل : "هل تأملين فى وقوع حرب جديدة" ردت قائلة : "ليس من الضرورى أن يكون الحدث حربا ، ربما كان كارثة هائلة تحدث لليهود فى الشتات تنتهى معها الوفرة والرفاهية التى يتمتعون بها هناك، أو ربما يتعرضون للاضطهاد من جديد ، ومن ثم فلن يكون أمامهم سوى الحضور إلى هنا" .

وسار الحوار بيننا على هذا المنوال :

**– وما رأيك فى السلام؟ هل يؤدى أيضا إلى زيادة معدلات الهجرة إلى إسرائيل؟**

**هاريت** : ما هو السلام ؟ هل أدى السلام مع مصر إلى إقبال المهاجرين إلينا؟ لقد حدث العكس من ذلك ، ولكن هذا الاتفاق مع مصر لم يكن هو السلام؟ بل كان هو الاستسلام بعينه ، نعم لقد باعوا كل شيء للمصريين مقابل قطعة من الورق ، وأنا لا أؤمن بشكل عام أنه سيكون هناك سلام ، لأن كراهية الأغيار الآخرين لإسرائيل شيء أبدى لا يتغير ، ولن يكون هناك سلام على الإطلاق بيننا وبينهم إلا إذا حدث وهزمونا تماما ، أو هزمناهم نحن تماما ، ربما ينبغى علينا أن نجعل شخصا مثل أريل شارون يبيد أكبر عدد منهم على قدر الإمكان ، حتى يدرك العرب فى النهاية أننا أسدينا إليهم معروفا كبيرا بتركهم على قيد الحياة .

**– هل يوافق الناس فى إسرائيل على الدخول فى حرب جديدة كالتى تقترحينها؟**

**هاريت** : لقد أصاب الفساد والتدليل الناس فى إسرائيل ، ودارت رءوسهم من الترف ، ولم يعد لديهم الاستعداد لتقديم التضحيات من أجل الخلاص ، إن سكان إسرائيل ينقسمون حاليا إلى قسمين : الأول يجرى وراء المال فى توحش وجنون ،

والثانى وهو الغالبية فقير يشعر بالإحباط وبأنه مثقل بالأعباء ، وهذا هو سبب تـــدنى الروح المعنوية ، والانحطاط الأخلاقى ، إنه شيء مخيف .

**– والمستقبل ؟**

**هاريت** : ربما يدرك العرب ذات يوم أن هذه الأرض ملكنا ، ولن يحدث هـــذا إلا إذا أدركنا نحن ذلك أولا ، وينبغى أن يتوقف البعض منا عن تقويض حقنا فى هـــذه الأرض والدعاية لمطلب العرب فيها ، ويجب علينا عدم سماع ما يقوله الأغيار، فلدينـــا القوة ولنتركها إذن تتحدث عن نفسها ، لأن الأغيار لا يفهمون سوى لغة القوة .

**– إذا تجاهلنا الأغيار تماما فماذا سيكون مصير المعونة الخارجية؟**

**هاريت** : فلتذهب المعونة إلى الجحيم لأنها سبب هذا الاعوجاج الذى أصابنا ، لقد اشترونا بهذه المعونة ، لقد جعلوا عقولنا تطير من رءوسنا بذهبهم .

**– والأسلحة؟**

**هاريت** : إن الحروب لا تكسب بالأسلحة ، إنما بالرجال ، إن الذى ينتصر هـــو الإيمان ، ويجب على العالم أن يدرك ذلك ، ما كان ينبغـــى أن نتوقـــف فى حـــرب ١٩٦٧، بل كان يجب علينا أن نواصل تقدمنا حتى ندمر مدنهم وعواصمـــــهم ، وإن كان ذلك لن يجلب السلام وإنما فترة من الهدوء ، لأن الحرب بيننا وبينهم مقدســـة ، إما نحن وإما هم ، إنها حرب ضد الأغيار .

**– حينئذ يعيش العرب تحت سيطرتنا ويؤدون الأعمال الوضيعة بدلا منا؟**

**هاريت** : نعم .. أليس ذلك ما يقوله العهد القديم .. إن ذلك سيكون رحمة بهم .

**– أليس هناك أمل فى التوصل إلى حل وسط؟**

**هاريت (باستنكار بالغ)** : مع من؟ مع الأغيار ؟ كلما تنازلنا لهم وقعنا فى المتاعب، هذا ما يقول العهد القديم ، إن من طبيعة الأغيار أن يكونوا ضدنا .. هـــذا قـــدر .. أحيانا يكون ذلك بسبب تعاليم دينهم أو بسبب الأيديولوجية أو معـــاداة الســـامية، وكلما توصلنا إلى حل وسط معهم تكون النتيجة الوحيدة : الحرب .

**– ولكن ماذا نفعل يا هاريت إذا جاء العرب وعرضوا علينا معاهدة للسلام؟**

**هاريت** : ينبغى أن نقول لهم بصراحة : آسفون ، لقد فات الوقت ، بل يجب أن نشن حربا حتى لا نترك لهم الفرصة لإقناع الضعفاء بيننا بمثل هذه التسوية .

وهنا تدخل مناحم فى المناقشة ليقول : "إننى أكثر تطرفا من هاريت ، غير أننى أرى أن هناك إمكانية للتعايش مع العرب فى صداقة بمجرد أن يعترفوا بأنهم تحت رحمتنا وليس لأن لهم حق فى العيش هنا، إننى أتكلم العربية ولى معارف كثيرون من العرب، بل إن أسرتى من أصل عربى ، ونحن نعرف أن العربى رجل طيب القلب ومطيع إلا إذا استثاره أحد أو سمم أفكاره ، إن العربى ليس بتاجر حروب .

**– وإذا جاء عرفات إلى هنا مثلما فعل السادات ليعرض علينا الاعتراف والسلام؟**

**مناحم** : إذا كنت مسئولا سألقيه فى غياهب السجن بتهمة القتل .

**– وإذا جاء زعيم فلسطينى آخر بدلا منه؟**

**مناحم** : إذا لم تكن يداه ملطخة بدماء اليهود سأتحدث إليه ، حتى ولو باللغة العربية، إننى لست مثل زوجتى ، إنها تخاف من الفلسطينيين لأنها لا تعرفهم ، ولكنى على دراية بهم ولست خائفا منهم ، سندعهم يعملون ويعيشون ولكن بشرط أن يفهموا من هو السيد هنا .

وجاء الدور على دانى – العامل – فى الكلام، قال : "إن كلا من اليهود والعرب يعتقد أن هذا المكان ملكه ، وكلانا على حق وإن كنت أعتقد أننا على حق بدرجة أكبر من العرب ، ولكن هناك مساحة شاسعة من الأراضى هنا تكفينا معا ، وبالنسبة لى أنا لا أفعل شيئا ضد أى عربى ، فأنا لا أقتلهم أو ألقيهم خارج ديارهم، ولكنى لا أعرف على وجه التحديد ما الذى يمكن عمله لحل هذه المشكلة ، وأعتقد أن لهم حقوقا فهم من البشر ولهم الحق فى الحياة ، وإذا لم نكن مضطرين إلى إعطائهم هذه

الأراضى فلن نفعل ذلك ، ولكن إذا أجبرونا فسوف نسلمها إليهم ، وقد نستطيع الاستمرار فى الحياة معا هنا .

*** 

جاءنى أخيرا من يخبرنى أن المتحدث الرسمى باسم المستوطنة الدكتور إميل أونجر قد وصل وهو بانتظارى ، توجهت إليه فى شقته وعلمت أنه قد هاجر من الولايات المتحدة إلى إسرائيل وتزوج من سيدة بريطانية أنجب منها ثلاثة أطفال ، وهو يعمل حاليا محاضرا فى العلوم السياسية بجامعة بار إيلان بالقرب من تل أبيب .

قال لى الدكتور أميل أنه عضو فى جماعة الاستيطان اليهودية الأمريكية، وإنه كان يود الاستيطان فى تيكواه منذ زمن ، لكنه وجد صعوبة فى ذلك أثناء تولى حزب العمل الحكم بما كان يفرضه من قيود على الاستيطان فى الأراضى العربية المحتلة ، ولكن بعد تولى الليكود الحكم أصبحت الأمور أكثر سهولة ، وكان أول يهودى أمريكى تطأ قدماه مستوطنة تيكواه عام ١٩٧٨ .

وفهمت من الدكتور إميل أن جماعة الاستيطان اليهودية الأمريكية تجمع اليهود فى الولايات المتحدة بهدف الاستيطان فى الضفة الغربية لنهر الأردن (يطلقون عليها الاسم العبرى وهو يهودا والسامرة) ، وتعلم إميل اللغة العبرية فى الولايات المتحدة قبل أن يأتى إلى إسرائيل ، وأسأله : ولكن لماذا الاستيطان فى الضفة الغربية بالذات؟ فرد قائلا: "لأن العهد القديم ينص على عودة شعب إسرائيل إلى أرضه وعلى الخلاص النهائى ، وخلاص الناس مرهون بخلاص الأرض ، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بالحياة وفقا لتعليم التوراة وليس على أساس الحضارة الغربية" .

وفى هذه اللحظة وصل روبرت براون الأخصائى الاجتماعى بالمستوطنة فاشترك فى الحديث بالدعوة إلى عدم استسلام اليهود إلى الضعف ، وأشار إلى حادثة التمرد التى وقعت فى جيتو وارسو ضد النازى ، وقال : إن اليهود الذين كانوا يقيمون فى هذا الجيتو استسلموا للنازى فى البداية لأنهم كانوا يخافون من إراقة الدماء ، وكان كل منهم يطمع أن يكون هو الذى سيبقى على قيد الحياة ، وكانوا يريدون "السلام الآن"

كما تفعل هذه الجماعة الشهيرة بهذا الاسم حاليا فى إسرائيل ، فماذا كانت النتيجة، استمر النازيون فى طغيانهم وإبادتهم لليهود وثار جيتو وارسو عندما أصبح عدد سكانه بضعة آلاف فقط ، وكان بالأحرى أن يثوروا عندما كان عددهم نصف المليون ، إن هذا درس هام ينبغى علينا أن نعيه جيدا ، يجب علينا ألا ننتظر ، بل يتعين علينا أن نبدأ بالهجوم ضدهم . ماذا؟ أتسألنى عن الخيار بين حرب جديدة وبين أن أترك تيكواه ؟ حسنا . أقول لك إن الله يمنعنا من تسليم أرض إسرائيل ، فإن ما أعطانا إياه الله لا يمكننا أن نتنازل عنه كهبة أو هدية .

واستطرد روبرت قائلا : "أما بالنسبة لحركة (السلام الآن) فهم مجموعة من الأشخاص الذين يعيشون فى عالم خيالى ، وما يحركهم ليس حب السلام إنما عدم القدرة على تحمل قسوة الحرب ، فهم يريدون التنعم بمباهج الحياة ، ويعيشون حياة سهلة ميسرة لا تعب فيها أو نصب ، إنهم يريدون العيش كالأمريكيين ، ولا يريدون الالتحاق بالجيش حتى لا يضطروا إلى الدفاع عن البلاد ، لقد استوردوا هذه الحركة من الولايات المتحدة التى انتشرت فيها حركات السلام أيام حرب فيتنام ، إن هذا كله من وحى حركات اليسار ، ولكن هذا كله انتهى فى الولايات المتحدة الآن ، وسينتهى أمره هنا أيضا قريبا ، لأن هذا تقليد مستورد وليس نابعا من الروح اليهودية".

وتدخل إميل فى الحديث قائلا : "أما العرب فهم يمثلون مشكلة لنا .. ربما كان الرب – تباركت قدرته – قد وضعهم فى طريقنا ليختبرنا ، فإذا أثبتنا أننا أقوياء فسيكون هذا هو بداية طريق الخلاص" .

كان الليل قد هبط وضرب بأستاره على الصحراء الواسعة التى تحدق بالمكان كوحش كاسر ، اضطررت للانصراف قبل أن يوغل الظلام ، وبينما كنت أقود سيارتى عائدا إلى القدس عبر القرى الحجرية المتهالكة التى يقطنها العرب ، ظلت كلمات حاييم وهاريت ودانى وإميل وروبرت تطن فى أذنى ككابوس مزعج ، إنهم جميعا يعتقدون أنهم تجسيد لنبوءات أنبيائهم بعودة شعب إسرائيل إلى أرض الميعاد ،

ولكنى تساءلت رغما عنى : إذا كانوا حقيقة يؤمنون بما يقوله أنبياؤهم فلماذا لا يلتفتون إلى الجانب الآخر من هذه النبوءات ، ألم يقرأوا هذه النبوءة التى تعبر عن غضب الرب "وسيسقط أولادكم وبناتكم تحت حد السيف .. وسأحيل أعيادكم إلى أيام الحداد ، وأغنياتكم إلى عويل ونواح" .

وتذكرت قصة قديمة وقعت فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ ، فقد حدث أثناء اجتماع عقده ليفى أشكول رئيس الوزراء فى ذلك الوقت أن قال أحد الحاضرين : "يجب علينا أن نشرع على الفور فى بناء المستوطنات بالضفة الغربية ، لأن إصبع الله تحركت ودفعت "الملك حسين" لأن يشن الحرب ضدنا حتى يخسرها وبذلك نستطيع أن نعود إلى أرض أجدادنا ، إن إصبع الله تحركت لتطهر الرملة ويافا من العرب عام ١٩٤٨ ، وسيحدث نفس الشىء فى نابلس وبيت لحم والخليل ، وإن كان الأمر يتطلب قدرا من المساعدة منا" .

وهنا أطرق أشكول صامتا وتنهد، وبعد فترة طويلة من التفكير سأل فجأة وكأنه يستعيد كلمة أفلتت من أذنه "هل قلت إصبع الله" . إذا كان الأمر كذلك إذن فكل الموت والدمار الذى لقيناه خلال تاريخنا الطويل كان بفعل إصبع الله ، وإذا كنا قد حصلنا على مدينة الخليل الآن ، فما يدرينا ما سيفعل بنا الله غدا؟".

## ٤- على مقهى فى رام الله

بلغت مدينة رام الله الواقعة فى الضفة الغربية فى تمام الساعة التاسعة صباحا ، كان الجو رائعا يخلب اللب ، توجهت إلى مقهى يقع فى شارع جانبى هادئ، تمتد مناضده بكراسيها فوق الرصيف ، وحول منضدة كبيرة مكسوة بالفورمايكا جلس ثلاثة من العرب يدخنون ويثرثرون بصوت مسموع ، ولكنهم لاذوا بصمت عميق عندما انضممت إليهم فى جلستهم .

كان أحدهم يناهز السبعين من عمره وقد اكتسب شعره اللون الرمادى ، يرتدى حلة قد ذهب لونها بفعل الزمن ، أما الآخران فهما شابان يرتديان الجيتر ، طلبت

لنفسى قدحا من القهوة التركية ، كان الصمت بيننا ضاربا بأطنابه حتى صار مخيفـــا ، غير أننى حينما سحبت سيجارة ووضعتها فى فمى سارع أحد الشابين بإشعالها بقداحة أخرجها من جيبه . شكرته . وعاد الصمت بيننا من جديد .

مال الشابان ناحية بعيدا عنى وأخذا يتهامسان بالعربية ، ثم التفت أحدهما صـــوبى وسألنى بالعبرية : "هل أنت من هذه الناحية؟" و لم يكن السؤال واضحا فـــترددت فى الإجابة ، فعاد الشاب يسأل : "أقصد هل أنت من أبناء المستوطنات؟" .

قلت : "كلا .. أنا من كيبوتز .. وأنتما؟" .

رد الشاب قائلا : "أنا من هنا .. وزميلى من قرية ســـيلواد ، هـــل تعمـــل مـــع الحكومـــة العسكرية؟" .

قلت إننى جئت إلى هنا فى زيارة للتعرف على آراء الناس ، وربما أكتب ملاحظاتى فى إحدى الصحف ، عرفت أن الشاب الأول يدعى نايف ، والآخر حســـن ، أمـــا الشيخ المسن فيدعى أبو عزمى ، ودار بيننا حوار طويل .

**حسن** : هل يوجد هنا ما يستحق أن تراه ؟

**نايف** : **اكتب فى مقالك أن الوضع سيئ .**

**حسن** : أفضل شيء أن تكتب داعيا للسلام .

**– أى نوع من السلام؟**

**حسن** : السلام العادل الذى يقبله الجميع ، ولكن أشعر بأن هناك حربا أخـــرى قادمة فى الطريق .

**لماذا ؟**

**حسن** : ( يهز كتفيه ولا يجيب) .

**– وماذا ستكون نتيجة الحرب القادمة ؟**

**نايف** : ستقع بعدها حرب أخرى .. وتتوالى الحروب حتى يصل عددها إلى مائة .

**وفى نهاية هذه الحروب كلها .. ماذا سيحدث ؟**

**نايف** : ربما يصيبهم الإنهاك فى النهاية ، وربما يهلك جميع الجنود ، وقد يثوبوا إلى رشدهم .

لاحظت أن (حسن ونايف) يستخدمان فى حديثهما كلمة "هم" وليس "نحن" و"أنتم" ، ربما كان ذلك حتى يستمر النقاش فى سلام ، أما أبو عزمى فلم يبد بادرة تنم عن رغبته فى الاشتراك فى الحديث ، ربما كان لا يفهم العبرية ، أو ربما كان مصابًا بالصمم ولا يستطيع تتبع حوارنا، وقد يكون قد تحدث وسمع كثيرًا فى حياته و لم تعد لديه الرغبة فى الكلام أو الاستماع .

**– أين تعلمتما العبرية؟**

**نايف** : أثناء العمل ، فنحن نعمل لدى اليهود .

**حسن (مصححًا)** : بل لدى الإسرائيليين .

**– وما الفرق بين اليهود والإسرائيليين ؟**

كان جواب سؤالى هو الصمت ، وحاول حسن بشتى الطرق التنصل من الإجابة ، قدم لى لفافة من التبغ ، ثم قدم لى بعض الحمص ، ولكنى ضغطت وأعدت سؤالى مرارًا حتى أذعن فى النهاية .

**حسن** : اليهود هم القوم الذين كانوا يعيشون بيننا قبل أن يصبح للإسرائيليين دولة.

**– ألم تقابل إسرائيليين متدينين؟**

**حسن** : بالتأكيد هناك كثيرون منهم .

**– وما الفارق بين اليهود فى الماضى والإسرائيليين الآن؟**

**نايف** : إننى لا أتذكر اليهود القدامى جيدًا ، ولكن أجدادى كانوا يقولون إن اليهودى شخص يثير الشفقة يبكى ويتوسل وإن كان يمتلك العقل والقلب ، كان اليهود أكثر رقة من العرب ، ولكن الإسرائيليين فقدوا عقولهم عندما امتلكوا القوة .

**– كيف فقد الإسرائيليون عقولهم؟**

**نايف** : بماذا كان يطالب اليهود قبل ١٩٤٨ ، بقطعة من الأرض ، هذا هو كل ما كانوا يصبون إليه أو يحلمون به ، كانوا يطالبون باستكانة وباستعطاف ، ورد العرب قائلين : نحن نمتلك القوة والزمن فى صالحنا ولن تحصلوا على شىء ، أما الآن فقد انقلبت الأوضاع وأصبح العرب هم الذين يطالبونكم بقطعة من الأرض ولا شىء سواها ، ويرد الإسرائيليون : نحن نمتلك القوة ، فلماذا نعطيكم شيئًا .

**– ولكن إذا حصل الفلسطينيون على قطعة من الأرض لأنفسهم ، ألن يسيل ذلك لعابهم فيطالبون بالمزيد أو بقطع أخرى من الأرض حتى يبتلعوا إسرائيل بكاملها؟**

انفجر الشابان ضاحكين حتى كاد أن يسقطا على الأرض ، وقال حسن : ألم يفعل اليهود نفس الشىء ، كان حاييم وايزمان يطالب فى البداية بقطعة صغيرة من الأرض ، ولكن فى أعماق نفسه كان يريد ابتلاع قطعة وراء قطعة كلما واتته الفرصة حتى تصير الأرض كلها تابعة له .

نظرت إلى أبى عزمى الرجل الصامت كأبى الهول ، وخيل إلىّ أن شفتيه تنفرجان فى ضحكة ساخرة خفية تحت شاربه الكث ، ربما كان هذا الرجل أكثر حكمة منا ويعلم بحدسه نهاية القصة كلها .

وخطر لى أن أوجه هذا السؤال للشابين : ماذا ستكون نهاية القصة؟ هل سيحل السلام؟

**حسن** : ربما يأتى فى النهاية .. وسيكون نتيجة للتعقل وليس للحرب ، وعندما يقدم أى رئيس حكومة إسرائيلى الضفة الغربية لعرفات سيقبلها على الفور وسيكون هناك سلام .

**– ألن يطالب عرفات بالمزيد ؟**

**حسن** : إذا فعل فستنفجر الحرب مرة أخرى ، وهو يعلم أن الولايات المتحدة تضع إسرائيل على "حجرها" كطفل رضيع ، كما أن هناك قوى أخرى لها تأثيرها غير العرب واليهود ، فهذان الطرفان مثل حصانين مقيدين فى عربة واحدة ، كلما حاول أحدهما الفكاك منها انكسرت ساقاه .

وعندما بدأت أجمع أوراقى ، وأبتلع الرشفة الأخيرة من زجاجة الكوكاكولا التى قدمها لى نايف ، فوجئت بالكهل الصامت يتحدث ، وبلغة عبرية سليمة تمامًا ، وإن كان صوته أجش يغلفه الحزن ، صاح :

"لقد سلبتمونا كل شىء ، كيف يصل النوم إلى جفونكم بالليل ؟ ألا تخشون الله؟"

سارعت بالرحيل هربًا من صوت الماضى المخيف الذى انبعث فجأة .

## ٥ – الصقر يتحدث

كلما قرأت التصنيفات الجديدة التى تطلع بها علينا الصحف الإسرائيلية كل يوم تعجبت ، لقد أصبحوا يقسمون اليهود إلى أقسام وفقاً للقوة والبطش والشدة فى معاملة العرب ، أسمع عن الصقور والحمائم ، والمتشددين والمعتدلين ، ومجانين الحرب والعقلاء ، بل ظهر لقب جديد يوصم به كل من يحاول انتهاج طريق العقل والخروج من الأزمة بالتفاهم والمنطق ، واللقب ببساطة هو "المخنث" ، ألهذه الدرجة وصل بنا الحال .

وتمنيت أن تواتينى الفرصة لألتقى بأحد هؤلاء الصقور لأسمع منه وجهة نظره ، وماذا يريد ، وقد تحققت رغبتى بأسرع مما أتصور ، فقد دعانى أحد أصدقائى لتناول العشاء عند شخصية سياسية هامة ومؤثرة سأكتفى هنا بأن أشير إليها بالحرف "زد" ، وقد قضينا وقتاً ممتعًا فى مسكنه الملحق بمزرعته الخاصة، ويبدو أن النسيم الرائع الذى كان يهب علينا من الحقول فيلفح وجوهنا ، وأريج أزاهير البرتقال الذى كان يدغدغ أنوفنا قادمًا من حديقة المترل الواسعة قد فتح شهيته للكلام ومنحنى القدرة على الإصغاء ، قال :

"إنهم يطلقون علينا الآن اصطلاح "اليهود النازيون" ، يريدون تخويفنا أو الضغط علينا عن طريق تشويه صورتنا ، ولكنى أقول لهم إننى لا أبالى بهذا الوصف ، وهل فى هذه الصفة ما يشين ؟ إننى لا أريد أن أحصل على إعجاب الأغيار ولا أريد أن أكون أفضل من الخمينى أو برجنيف ، بل أنت تعلم أن مشاهير الزعماء فى العالم كانوا قتلة إرهابيين ، سأعطيكم مثالاً على ذلك ، ألم يقتل الرئيس الأمريكى الشهير هارى ترومان نصف مليون يابانى فى نهاية الحرب العالمية الثانية بالقنبلة الذرية، فلماذا أكون أنا أفضل منهم من الناحية الأخلاقية ؟

إننى أريد أن تنضم إسرائيل إلى هذا النادى الذى يضم مجموعة من الزعماء الأقوياء الذين لا يراعون المبادئ والأخلاق ، وحينئذ سيهابنا العالم بدلاً من أن يعطف علينا، حقيقة سيبدأ العالم فى الارتجاف خوفًا من نزواتنا بدلاً من الإعجاب بنبل أخلاقنا ، ولكن أتركهم يعوون فى العراء ويصفوننا بأننا أمة من الكلاب المسعورة ، نعم .. دعهم يدركون أننا دولة متوحشة تحمل بين أذرعها الموت والخطر ، دع العالم كله يعرف أننا لا نتورع عن إثارة حرب عالمية ثالثة إذا قتل أحد سفرائنا فى الخارج " .

"لا تترعج هكذا .. إن كل هذا مفيد لنا فى النهاية وسيجلب علينا عطف العالم ، تسألنى كيف؟ عندما نتصرف بهذا العنف وبهذه الوحشية سيقتنع العالم بأننا يائسون وضحايا ومظلومون ، وحينئذ سيقومون بمظاهرات فى كل مكان لإظهار تعاطفهم معنا، وحتى لو لم يحدث هذا فسوف نكون الفائزين فى النهاية، سيسيرون حولنا على أطراف أصابعهم حتى لا يوقظوا الوحش النائم هنا .

ويقولون ما فائدة الحرب فى لبنان .. هؤلاء الحمقى السذج ؟ حتى لو لم تكن الحرب فى لبنان قد أسفرت عن إخراج منظمة التحرير الفلسطينية وتحييد سوريا وتأمين الجليل ، فيكفى أنها شوهت صورة اليهود فى جميع أنحاء العالم ، كان يهود الشتات يدعون إننا نحن الإسرائيليين فقط الذين تلوثت أيدينا بالدماء فى الحروب ، وأنهم هم الأتقياء المتدينون المسالمون الذين لا يعرفون العنف وإراقة الدماء ، أما الآن فهم يتعرضون للانتقاد والهجوم والكراهية ، وهذا فى صالحنا ، لأنهم فى النهاية

سيرفعون شعارنا القديم الذى يقول : "أيــــها اليـــهود .. اذهبـــوا إلى فلســـطين" ، وسيضطرون إلى المجىء إلى هنا لأنه لن يكون أمامهم خيار آخر ، وبعد ذلك ســـتأتى الأيام السعيدة ، ويزداد عدد المهاجرين إلينا ، وسيشعر الذين يعلنون أهم مـــهذبون لا يستطيعون قتل ذبابة أن لا فائدة ترجى من أخلاقهم الحميدة ، وسيكون ثمن هذا كلـه رائعًا : السلام الدائم .

"إننى لا أهتم بأن يطلقوا علينا أفظع الألقاب ، لا يهم ، فكل شىء محرم مســموح به فى سبيل البقاء ، أى شىء ، حتى طرد العرب من الضفة الغربية " .

"فليقولوا علينا إننا نازيون.. لا يهم.. إن العيش بدون مخالب فى عالم من الذئـــاب هو جريمة أسوأ من القتل ، فهؤلاء اليهود الذين كانوا يعظون ويحثون علــى مكــارم الأخلاق فى أوربا الشرقية أين ذهبوا .. لقد قتلوا جميعًا ، فماذا لو قتلنا مليونًـــا مـــن العرب أو حتى ستة ملايين ، ماذا سيحدث؟ سيكتب التاريخ عنا فى كتابه صفحتـــين فقط مجللتين بالسواد ، ولكن ثمن ذلك سيكون عظيمًا ، سيأتى إلينا يـــهود الشـــتات ونصبح أمة تعدادها ٢٥ مليونًا .. أمة تدعو للاحترام ، وبعد ذلك سينسى التـــاريخ ذلك ، ويأتى أدباؤنا ويكتبون روايات عظيمة عن المذابح التى ارتكبناها فى حق العرب ومشاعر الذنب التى تنتاب الجيل الجديد ، ويحصل هؤلاء الأدباء على جوائز نوبـــل فى الأدب ، بالضبط مثلما فعل الأدباء الألمان الكبار الذين كتبوا عن الشـــعور بـــالذنب بسبب مذابح النازية مثل الكاتبين الشهيرين جونتر جراس وهنريخ بويل .

توقف " زد " لحظات ليلتقط أنفاسه ، وليلتهم كأسًا كبيرًا من الآيس كريم الـــذى صنع بمترله ، وليجمع أفكاره ، ثم واصل كلامه قائلاً :

"أما باقى العرب الذين لم نستطع قتلهم للاستيلاء علـــى أرضـــهم ســـنقدم لهـــم تعويضات نحصل عليها من عائدات بترول آبار العراق، وبعد ذلك نهنأ فى دولتنا الـــتى تضم ٢٥ مليون إسرائيلى وتمتد من قناة السويس إلى آبار البترول فى الخليج، وصدقـــى أن العالم لا يحترم إلا القوة ، والذى سيحدث أنه بالرغم من الجرائم التى ســـنرتكبها

سنجد هؤلاء الكلاب أولاد السفاح فى جميع أنحاء العالم من موسكو إلى بكين إلى واشنطن ، يتمسحون فينا ويخطبون ودنا برغم أيادينا الملطخة بالدماء" .

" أصغ إلى يا صديقى .. إننى على استعداد منذ اليوم للتطوع لأداء "الجانب القذر" من العمل لإسرائيل ، أن أقتل أكبر عدد ممكن من العرب ، أن أطرد الباقى وأن أحرق المساكن ، أن أثير الكراهية ضد يهود الشتات حتى يهرعون إلى هنا طلبًا لحمايتنا ، حتى لو اضطررت لتحقيق ذلك إلى إحراق عدد من المعابد اليهودية هنا وهناك ، وبعد ذلك لا يهمنى لو حاكمونى كمجرم حرب ، فسأتحمل وحدى السمعة السيئة ، ويمكنكم بعد ذلك التنصل من هذه الجرائم وأن تزعموا أنكم شعب مهذب ومتحضر".

"اعلموا أن الصهيونية لم تنته من العمل القذر بعد ، نعم كان يمكننا الانتهاء منه فى ١٩٤٨ ، لولا أن بعض الطوائف اليهودية هنا ويهود الشتات أرادوا أن يثبتوا أنهم متحضرون ، ولكن ما العيب فى أن يكون لأى دولة سجل إجرامى ، إن لكل الدول الكبرى مثل هذا السجل ، الولايات المتحدة – بريطانيا – فرنسا – ألمانيا ، وهذه الدول أصبحت الآن محترمة ومتحضرة ونسيت ماضيها الإجرامى القديم ، بل إن هذا يحدث فى أحسن العائلات ، وكما قلت لك إننى مستعد أن أتحمل هذا السجل الإجرامى وحدى ، فلتلقوا الوزر كله على رأسى ، وليضاف اسمى إلى القائمة التى تضم شارون وبيجين والجنرال اتيان ، وسترون أن المستقبل سيصبح ورديًا ومشرقًا ، وسيأتى ملايين اليهود إلى دارنا بعد أن نوسعها ونضم إليها حجرات أخرى جديدة لتستوعب جميع أفراد العائلة" .

"ولكنك لم تسألنى لماذا أريد أن يأتى يهود الشتات إلى هنا ، إننى يا صديقى أنفذ تعاليم ديننا التى تقول عن اليهودى الذى لا يعيش فى أرض الميعاد ما يلى : "وبين شعوب هذه الأمم لن تجد راحة البال ، بل إن نعل حذائك لن يجد موطئ قدم ينعم فيه بالهدوء ، وهناك سيملأ الله قلبك بالرجفة ، وعينيك بالوهن ، وعقلك بالحزن ، وستمضى ليلك ونهارك فى خوف دائم" ، هذا يا صديقى خلاصة حال اليهودى فى

الشتات ، فى كلمات قليلة كما لو كنت تنظر إليه تحت الميكروسكوب، وهذا الحال هو ما تريد الصهيونية تغييره ، ولكننا لا نملك التغيير إلا إذا فهم يهود الشتات وضعهم الحقيقى وما تخبئه الأيام لهم إذا لم يعودوا إلى ديارهم قبل أن يحل الظلام" .

"هل أخبرك بالخطيئة التى ارتكبها أسلافنا والتى أدت إلى هدم المعبد وإلى الشتات اليهودى ، إنها كما يقول الفيلسوف اليهودى ميمونيدس : "إنهم لم يدرسوا فن الحرب وفتح الممالك" ، نعم فتح وقهر البلاد وليس الدفاع عن الوطن ، وليس الخط الأخضر، وليس اللجوء إلى الحرب كآخر ورقة ، سأعقد صفقة مغرية ، سأقوم أنا بالدور القذر: القتل والطرد ، وستقوم أنت بالدور الطيب النظيف ، ستدعو إلى المظاهرات التى تتعاطف مع مصير العرب السيئ ، ستكون أنت الرجل الذى تتشرف به العائلة ، بينما سأكون أنا النقطة السوداء على ثوبها الناصع" .

وعندما حان وقت الرحيل أدركت أن هتلر لم يقتل اليهود فحسب ، بل أصابهم بعدوى مسمومة تجرى فى شرايين بعضهم دون أن يستطيعوا لها منعًا .

## ٦ – جوش أمونيم

هبطت من السيارة بعد رحلة قصيرة إلى مستوطنة "أوفرا" ، أغلقت الباب بعد أن أخذت حقيبتى بيسراى ، وأخذت أدير النظر حولى أتأمل الأبنية المتناثرة هنا وهناك محاولاً أن أستخلص آثار "جوش أمونيم" فى المكان ، هذه المنظمة الذائعة الصيت الغائبة والحاضرة ، الخفية والماثلة ، كجنى مخيف لا تدركه الأبصار ، يجول ويصول فى الخفاء، تاركًا وراءه بصماته وآثار أقدامه فى كل مكان .

مررت فى تجوالى عبر مدرسة المستوطنة ووجدتها مغلقة ، فاليوم عطلة السبت الأسبوعية ، ومع ذلك وجدت عددًا من الأشخاص يدخلون ويخرجون ، وعلمت أن مجلس المستوطنة يحول مبنى المدرسة أيام العطلات إلى مركز للدراسات اليهودية ، وهنا يحضر مختلف الطلاب لتلقى المحاضرات والدروس : ضباط الجيش ، طلاب المدارس العليا من مدن أخرى ، المهاجرون الجدد الذين يريدون تعلم اللغة العبرية ، ثم تقام

ندوة بعد المحاضرات تدور حول "حق اليهود فى الأرض" ، وعادة ما يركز المحاضر فى دعواه على نصوص دينية وردت فى العهد القديم ، إلى جانب اعتبارات الأمن والأسباب الاقتصادية الأخرى .

التقيت بمدير المدرسة وهو شاب يدعى يائير ، خدم فى الجيش كضابط احتياط بسلاح الاستطلاع ، تولى منصبه بعد عام ونصف من إقامة مستوطنة "أوفرا" فى عام ١٩٧٥ ، قال لى إنه جاء إلى هذه المستوطنة لأنه يعتقد أن هذه الأراضى يجب أن تبقى بين أيدى اليهود إلى الأبد ، وأوضح لى أن أوفرا مستوطنة ذات طابع خاص ، فإلى جانب الواجبات التى يتعين على المستوطنين القيام بها مثلما هو الحال فى بقية المستوطنات كدفع رسوم مقابل الحراسة وقبول قرارات مجلس المستوطنة ، فإن سكان "أوفرا" يتحملون المسئولية المشتركة لأى مشروع اقتصادى بالمستوطنة ، أى أنهم يضمنون المشروعات الاقتصادية التى يقوم بها زملاؤهم ، فإذا خسر المشروع أو أفلس يتحمل بقية المستوطنين الأعباء المالية اللازمة متضامنين مع مالك المشروع ، وهناك سمة خاصة تتميز بها هذه المستوطنة ، وهى إجبار كل الأسر على تشغيل أحد أعضائها فى المستوطنة ، وبذلك تصبح "أوفرا" مكانًا للأيدى العاملة وليست مجرد "فندق" مثل المستوطنات الأخرى ، يبيت السكان فيه آخر النهار بعد انتهاء العمل فى القدس أو فى أماكن أخرى .

ويعمل البعض فى الزراعة والآخر فى التدريس أو الحرف اليومية ، أو فى مجلس المستوطنة أو فى الجيش وقوات الأمن القريبة من المنطقة ، ويوجد حضانة تقبل الأطفال من سن ثلاثة شهور ، كما توجد روضة أطفال ومدرسة ابتدائية ، ولا تزال تنقصها مدرسة عليا .

ونظام الزراعة هنا فريد من نوعه ، فهو خليط من القطاع الخاص والتعاونى ، وعلى سبيل المثال تمتلك الأسر من خمسة إلى عشرة أفدنة من بساتين الفاكهة، ويقوم خبراء زراعيون تابعون لمجلس المستوطنة بأداء الأعمال الشاقة مثل إعداد التربة والزراعة ومقاومة الآفات والرى ، أما بالنسبة لجنى المحصول فيشترك فيه جميع السكان ، ثم يقوم

مجلس المستوطنة بحساب التكاليف وخصمها من ثمن المحصول ، ويوجد أيضًا خلايا نحل العسل ، وحظائر لتربية الدواجن ، وورش صغيرة للنجارة ، وورشة للحام ، ومعمل للتصوير ، ومكتب تحرير صحيفة "نيكودا" الناطقة بلسان مجلس المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهى صحيفة نصف شهرية تصدرها منظمة "جوش أمونيم" .

وأسأل مدير المدرسة عن علاقة المستوطنة بالقرى العربية المجاورة ، فيقول : "نحن لا نقيم أية علاقة على الإطلاق مع هذه القرى على الرغم من أن أراضينا تتاخم أراضى العرب ، ونحن لم نأخذ حتى ولو مساحة قدم مربع واحد منهم " .

لم أعارض هذا القول على الرغم من أننى أعرف أنه لم يكن قولاً صادقًا .

ومضى يائير قائلاً : "إننى لست متطرفًا ، ولكنى لا أعرف على وجه التحديد أى حل لمشكلة العرب ، ولكننا بنينا أوفرا كمستوطنة يهودية نموذجية ، ونحن لا نتلقى أى منح مالية من الحكومة كما يدعى خصومنا ، ونحن أحد مراكز "جوش أمونيم" ، وعندما ذاع نبأ جلاء المستوطنين من ياميت بسيناء توجهنا جميعًا إلى هناك ، وتسلقنا أسطح منازل ياميت لمنع جلاء المستوطنين عنها ، لأننا كنا نشعر هنا بأن ياميت هى خط الجبهة بالنسبة لنا ، وأن أى جلاء عنها قد يعنى حدوث ذلك هنا فى أوفرا أيضًا".

وتقودنى قدماى إلى مجلس المستوطنة وهو ليس بعيدًا عن هنا ، وأجد رئيسه بنحاس وولرشتاين يقلب فى بعض الأوراق على مكتبه ، ويدور فى رأسى سؤال عن مستقبل المستوطنة، ويجيبنى بنحاس الذى يعد واحدًا من أبرز زعماء جوش أمونيم قائلاً : "إن ذلك مرهون تمامًا بما إذا كانت إسرائيل ستواجه العالم واقفة على قدميها أو راكعة على ركبتيها ، ويوجد الآن ٢٥ ألف مستوطن يهودى فى الضفة الغربية ، وكان عددهم منذ سبع سنوات خمسة عشر ألف يهودى ، وبعد خمس سنوات من الآن أتوقع أن يصل عدد المستوطنين إلى سبعين ألفًا ، وهذا العدد الضخم من المستحيل على الحكومة أن تجليه ، وهى إن كانت قد نجحت فى إجلاء المستوطنين فى ياميت فذلك

لأن عددهم كان ثمانية آلاف فقط ، أعطونا خمسة أعوام فقط من الهدوء والسلام وستجدون أن مسألة أرض إسرائيل قد حسمت إلى الأبد" .

وعدت أسأل بنحاس عن قصة بناء مستوطنة أوفرا ، فتنحنج وأشعل لفافة من التبغ وناولنى أخرى وشرع يقول : "إن قصة أوفرا تبدأ بالضبط عام ١٩٧٥ عندما أقام بضعة أشخاص فيها وحولوها إلى معسكر عمل ، ولعلك تعلم أنها كانت أساسًا مقر حامية أردنية قبل حرب ١٩٦٧ ، ومازالت بقايا الثكنة العسكرية موجودة ، ولكن العمال اليهود الذين يعملون فى إنشاء معسكر للجيش مجاور حولوها إلى معسكر صغير يبيتون فيه بعد انتهاء العمل اليومى ، وبعد استكمال المعسكر لم يعد العمال أدراجهم، وإنما استمروا فى الحياة هنا ، وجئت للإقامة فى المستوطنة النواة .

"وبعد فترة من الزمن بدأنا فى تحسين ظروف المعيشة هنا على أمل تحويلها إلى مستوطنة ، وأخطرنا قائد الوحدة العسكرية المجاورة إننا لن نرحل عن هذا المكان إلا بناء على أوامر من وزير الدفاع شخصيًا ، وكنا نأمل فى تجنب مواجهة مع الجيش ، ومن حسن حظنا أنه كانت هناك خلافات شديدة بين إسحاق رابين رئيس حكومة العمل فى ذلك الوقت وبين شيمون بيريز وزير الدفاع ، وكان هذا يعنى أن بيريز لن يتحرك ضدنا حتى لا يثير سخط جماعة جوش أمونيم ضده" .

"وفى ذلك الوقت جاءنا الرد من السلطات العليا بأن عملنا هذا غير مشروع ، ولكن القائد المحلى للمنظمة تلقى أوامر بأن يغمض عينيه تمامًا كأننا لسنا موجودين ، وعندما سمعنا هذا النبأ أصابتنا موجة من الفرح المجنون فأخذنا نفتح زجاجات الكونياك ونعب منها فى نخب القادة العسكريين ، نعم لقد كان هذا القرار فى صالحنا مائة فى المائة" .

"ولم يكتف رجال الحامية المجاورة بالتزام الصمت حيالنا ، بل سربوا إلينا بعض الأسلحة خوفًا من هجوم السكان العرب علينا ، وقد أغمضت السلطات العليا أعينها عن ذلك أيضًا ، بل إن رجال الحامية قدموا إلينا يد المساعدة بشكل لم نكن نتوقعه ، والأكثر من ذلك أن شيمون بيريز زارنا بنفسه ليطمئن علينا ، ثم أصبحت زيارته لنا

أمرًا مألوفًا ، **فقد كان يأتى** من حين لآخر لتفقد أحوالنا ، ربما كان يخطب ودنا ليكسب المستوطنين إلى جانبه فى صراعه ضد رابين" .

"وكانت سعادتنا **عظيمة** عندما زارنا أعضاء لجنة الشئون الخارجية بالبرلمان برئاسة إسحاق نافون قبل **أن** ينتخب رئيسًا لإسرائيل ، وقد صدم أعضاء اللجنة عندما رأوا أحوال المعيشة السيئة **والظروف** القاسية التى نعانى منها فى أوفرا ، فلم يكن هناك سور يحمى المستوطنة ، وكنا محرومين من المياه الجارية والشوارع المرصوفة والصرف الصحى، **فأظهروا جميعًا تعاطفهم معنا** ، فقد كنا أول مستوطنة تنشأ فى الضفة الغربية فى ذلك الوقت ، **وبعد ذلك** أخذت المساعدات تنهال علينا " .

توجهت إلى مقر صحيفة **"نيكودا"** لألتقى برئيس تحريرها يسرائيل هارل ، وهو يشغل فى الوقت نفسه منصب رئيس مجلس المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية وغزة، وهو من أبناء حركة الشباب الدينية المعروفة باسم **"بنو اكيفا"** ، وأصبح الآن من الأعضاء البارزين فى **"جوش أمونيم"** ، وقد جاء يسرائيل إلى مستوطنة أوفرا بصحبة أسرته منذ نحو عام ونصف عام ، وعندما جلست قبالته فى حجرة مكتبه البسيطة شرع على الفور يتحدث عن هذه الحركة الجياشة التى أخذت بتلابيب الشباب فى إسرائيل ، إنها حركة **"جوش أمونيم"** التى يعنى اسمها **"كتلة الإيمان"**، قال لى أن أتباع هذه المنظمة زاد إيمانهم بها بعد إخلاء مستوطنة ياميت وحرب لبنان ، وهى جماعة من اليهود المتعصبين دينيًا الذين يؤمنون بحقهم المقدس فى بناء المستوطنات فى جميع الأراضى التى استولت عليها إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ .

وأسأل : كيف نشأت هذه الجماعة ؟

ويرد يسرائيل هارل قائلاً : "لقد نشأت كحركة دينية قومية تقلد الحركة الصهيونية الاشتراكية فى سعيها للوصول إلى أرض الميعاد ، ولكن أعضاءها كانوا يشعرون بمركب النقص تجاه الصهيونية والحركة العمالية ، وبعد حرب ١٩٦٧ أصاب حزب العمال نوع من الخوف لعله الشعور الدفين بالذنب لما حدث فى الحرب ، وبالتالى طرأ نوع من الفراغ الروحى، وهنا انطلق شباب **"بنو اكيفا"** وأتباع الحاخام

كوك من القمقم الذى وضعهم فيه حزب العمل ، وكانت السمة التى تميزهم هى ثقتهم الشديدة واعتقادهم الراسخ فى صواب أفكارهم، ولم يكن ينتابهم أدنى شك فى أحقيتهم "بالأراضى المحررة" كما يسمون الضفة الغربية وقطاع غزة" .

وجال فى فكرى سؤال طارئ لم أتردد فى توجيهه لهذا الصحفى المحترف : ما هى الحواجز الموجودة داخل إسرائيل حاليًا والتى تحول دون التقاء شعبها؟ فيرد بعد تريث قائلاً : ربما كان الحاجز الرئيسى هو ذلك الذى يفصل بين اليهودى والإسرائيلى ، فاليهود هم أولئك الذين يريدون العيش بشكل أو بآخر وفقًا للتوراة ، أما الإسرائيليون فهم يؤمنون بالتراث اليهودى اسمًا ولكنهم فى داخل أعماقهم يريدون أن يصبحوا شعبًا جديدًا مختلفًا ، أن يكونوا تابعين للحضارة الغربية ، وتصبح "أرض الميعاد" للكثيرين منهم مجرد "صدفة جغرافية" ، بمعنى أنهم يعيشون فيها ، ولكن إذا واتت أحدهم فرصة أفضل فى أى مكان آخر فلن يتردد فى أن يحزم أمتعته ويغادر البلاد .

وعاد محدثى إلى موضوع " جوش أمونيم" ليقول أن هذه الجماعة تهدد تجربة الحضارة الغربية الحديثة فى إسرائيل بما فيها العلمانية والدولية ، ويبدو أن المعركة بين اليهود والإسرائيليين قد دخلت إلى الساحة السياسية وإن كنت أود أن تحسم فى ساحة المواجهة الروحية ، والشعور السائد فى إسرائيل أن هناك تحالفًا وثيقًا بين التيار الدينى وبين أفكار الليكود وبين المؤسسة العسكرية، وأن هذا التحالف هو الذى انتصر على الحركة العمالية الاشتراكية التقدمية، ولكن هذا ليس صحيحًا تمامًا، فجماعة "جوش أمونيم" شعرت بالغضب الشديد إزاء قرار بيجين بإخلاء مستوطنة ياميت من سيناء .

واستطرد يسرائيل هارل يقول : "إن مشكلة الإسرائيليين هى أنهم لا يؤمنون بأية حقيقة مطلقة ، والأيديولوجية التى لا تحتوى على حبة خردل من الإيمان بالمطلق يكون مصيرها التحلل والزوال ، ومن ثم تسود المادية والسعى نحو تحقيق المتع الدنيوية وإرضاء الذات ويؤمن الإسرائيليون – تقليدًا للحضارة الغربية – بنسبية الحقيقة وأن لكل عملة وجهين" .

وحين كنت أغادر مقر الصحيفة لأستقل سيارتى لأعود أدراجى إلى كبيوتز هولدا تذكرت المقال الذى كتبته فى صحيفة "دافار" بعد شهرين فقط من حرب ١٩٦٧ والذى قلت فيه : "إننا لا يجب أن ننظر إلى أنفسنا كمحررين لهذه الأراضى ، فالأرض لا تستعبد ، وبالتالى فإن عبارة "تحرير الأراضى" عبارة خاطئة ، لأن الشعوب فقط هى التى تستعبد ، فإذا أردنا تحرير شيئًا فينبغى أن نحرر الشعب وليس الأرض، لأن كلمة "تحرير" تنصب على البشر فقط ، ولذا يمكن القول إننا لم نحرر الخليل ورام الله والعريش، ولكننا فتحنا هذه المناطق وسنحكمها إلى حين حلول السلام " .

سرت فى طريقى أتأمل جمال الطبيعة الساحر ، الخضرة والأشجار والأكواخ الصغيرة ، وظلال أشجار التين ، وشحوب أشجار الزيتون على مرمى البصر وقد بدت شجيرات الكرم صغيرة من بعيد ، تمرح أمامها قطعان الأغنام وتهبط على المنحدرات الجميلة الخلابة التى سحرت الرواد الأول للصهيونية، وتساءلت أليس كل هذا الجمال والسحر عربى الأصل ؟!

## ٧ - زيارة للفجر

تقع مكاتب صحيفة **"الفجر"** الناطقة باللغة العربية فى القدس الشرقية ، ارتقيت سلالم مترل حجرى عتيق عربى الطراز إلى الطابق الثانى ، حين دخلت إلى مقر الصحيفة لم أجد صعوبة فى اكتشاف أن جو المكان هنا هو بعينه الذى كان سائدًا فى مكاتب الصحف اليهودية التى كانت تصدر فى أوربا الشرقية قبل الحرب العالمية الثانية، نفس الفقر والحماس والبلاغة الرفيعة ، وامتزاج السياسة بالشعر ، وهى صفات كلها من سمات النضال .

وجدت خمس غرف داخل الشقة ، مزودة بمكاتب متواضعة مصنوعة من الخشب ، وعلى الحوائط عدة لوحات تصور النضال الفلسطينى إحداها تصور سيدة صلبة الملامح ولكنها مقطوعة الساقين ، لا شك أنها ترمز لفلسطين ، وفوق رأسها تحلق حمامة السلام والدماء تقطر من جسدها الرقيق .

وقد أسس صحيفة "الفجر" اليومية عام ١٩٧٢ مجموعة من المثقفين الفلسطينيين ، ولم تكن عملية إصدارها سهلة مستقرة ، بل تعرضت الصحيفة لمتاعب ومشكلات عديدة ، فقد اختطف أول رئيس تحرير لها ولم يعثر حتى الآن على أثر له ، بل ولم تعرف هوية الأشخاص الذين اختطفوه ، ويتعرض المحررون والعاملون بالصحيفة لاضطهاد السلطات الإسرائيلية ، وكثيرًا ما يلقى القبض عليهم أو يتعرضون للتفتيش ، وتحظر الرقابة على الصحيفة نشر ما يروق لها، وأحيانًا ما تمنع نشر نفس الأخبار التى تنشرها الصحف الإسرائيلية ، وكل هذا يجعل العاملين بالصحيفة يشعرون بأنهم أبطال تحرير مضطهدون .

ويمتلك الصحيفة فلسطينى يحمل الجنسية الأمريكية يدعى بول عجلونى، ويقال أنه ليس صاحب الصحيفة الحقيقى وإنما يتوارى خلفه الجهاز الإعلامى لمنظمة التحرير الفلسطينية ، أما رئيس التحرير فيدعى زياد أبو زياد ، ويقول عن صحيفته أنها موجهة للشعب الفلسطينى وتعبر عن أمانى هذا الشعب فى الحرية والسلام ، وهى تنتهج خطًا واقعيًا تمامًا .

وألتقى برئيس التحرير فى مكتبه البسيط وأسأله "من يقرأ الفجر؟" فيقول: "إن قراء صحيفتنا من شرائح مختلفة معظمهم من المثقفين وطلاب الجامعة والمدارس الثانوية ، وجميع الأشخاص الذين يتمتعون بالوعى السياسى ، ولصحيفتنا قراء فى إسرائيل نفسها من اليهود والعرب ، ونحن نصدر طبعة باللغة الإنجليزية ونقدم إصدار طبعة أخرى باللغة العبرية حتى يتعرف اليهود على وضع الفلسطينيين كما هو بالضبط وليس كما تقدمه الصحافة الإسرائيلية بصورة شائهة ، نعم .. إنها مسألة غريبة لا شك .. صحيفة فلسطينية باللغة العبرية" .

**ماذا يكتبون إليكم فى باب بريد القراء ؟**

**أبو زياد :** يدور الحوار بيننا وبين القراء أساسًا حول مسألة الهوية الفلسطينية ووضعها داخل الهوية العربية ، وبعض القراء يرسلون إلينا خطابات غاضبة يتهموننا فيها بسبب الاعتدال والمرونة التى تنتهجها الصحيفة ، وأحيانًا أرفض نشر بعض الرسائل لشعورى أن الرقيب سوف يرفض نشرها إن أجزها أنا ، وإحدى هذه الرسائل تطالبه بالنضال المسلح وتعارض جميع مبادرات السلام .

**وما هو خطكم السياسى ؟**

**أبو زياد :** هو خط معتدل ، منتصف الطريق بين أرض إسرائيل الكبرى وبين فلسطين الكبرى ، لو أننا انتهجنا هذا الخط منذ ثلاثة أجيال لتغير شكل المشروع الصهيونى تمامًا ، لأننا حتى لو افترضنا جدلاً أن العرب سيستطيعون يومًا ما هزيمة إسرائيل بقوة السلاح واكتساحها بجيوشهم ، فماذا سيفعلون بالمواطنين اليهود؟ هل يطردون جميع اليهود الموجودين داخل إسرائيل؟ إن هناك حقيقة أصبحت أمرًا واقعًا؛ هناك مواطنون يهود ويوجد مواطنون فلسطينيون سواء رضينا أم أبينا ، وينبغى عليهم الحياة . التعايش معًا على قدم المساواة .

**وما هى حقوق الفلسطينيين المشروعة ؟**

**أبو زياد :** ولماذا ينبغى علينا وصفها بأنها "مشروعة" يكفى أن نقول حقوق الفلسطينيين ، نحن شعب وأنتم شعب ، ومن حقنا أن نتحرر ، هذا هو كل ما فى الأمر.

**وكيف تصورون إسرائيل فى صحيفة الفجر ؟**

**أبو زياد :** وفقًا لأعمال حكومتكم : القمع ، سرقة الأراضى ، إنكار حقوقنا ، تكميم أفواهنا ، قتل أشقائنا فى الضفة الغربية ولبنان ، إلا أننا ننشر أيضًا أخبار الإسرائيليين الآخرين الذين يعارضون الحكومة ويعترفون بحقوقنا ، وإن كان الرقيب

يعترض غالبًا على مثل هذه الأخبار ، ولا أدرى لماذا يعترضون على نشر أخبار جماعة **"السلام الآن"** .

**وماذا لو حدث وجاء عرفات طالبًا السلام مثلما فعل السادات ؟**

**أبو زياد :** سيحدث انقسام فى الشارع العربى ، سيؤيد البعض هذه الخطوة ويقولون أنها ستخرج الإسرائيليين وتعزلهم تمامًا ، بينما سيتهم البعض عرفات بالخيانة، ولكنى أعتقد أن غالبية الفلسطينيين يريدون السلام .

**هل يمكن تقسيم الأرض بين الإسرائيليين والفلسطينيين من خلال معاهدة سلام؟**

**أبو زياد :** حسنًا ، هذا ممكن ، وربما تتوحد الدولتان الإسرائيلية والفلسطينية بعد عشرين أو ثلاثين عامًا ، ربما لو حل السلام لحدث التقارب بين الشعبين ولاعتاد كل منهما احترام الآخر .

**هل هذا هو مفهوم منظمة التحرير الفلسطينية عن الدولة الموحدة التى يعيش فيها اليهود جنبًا إلى جنب مع العرب؟**

**أبو زياد :** نعم .. ويمكن تحقيق ذلك عن طريق الإقناع وبالتدريج والإتفاق المشترك وليس عن طريق القوة ، ولكن يجب أولاً أن يصبح الفلسطينيون أحرارًا ، هذه هى الخطوة الأولى ، ينبغى أن نعود إلى وطننا ، يجب أن نكون شعبًا مثل بقية الشعوب، هذا هو حلمنا حاليًا ، يجب أن نعود إلى القدس ..

ودهشت من هذا المطلب ، فهذا الرجل يعيش فى قلب القدس ، ومع ذلك يقول : **"يجب أن نعود إلى القدس"** ، لأنه بالفعل بعيدًا عنها .

**ياللعجب !!**

انتقلت إلى مكتب على الهلالى محرر القسم الأدبى بصحيفة الفجر ، كان يتصفح العدد الأخير ويراجع الدراسات الأدبية التى تنشر تحت إشرافه .

هناك مقال عن تحرير المرأة الفلسطينية بقلم كاتب يدعى على عثمان ، ومقال آخر عن جذور الهوية الفلسطينية فى القرن التاسع عشر بقلم مهاجر فلسطينى يعيش فى شيلى ، وحديث صحفى مع أكرم حانيه وهو كاتب قصة قصيرة فلسطينى قضى عامين ونصفًا محتجزًا داخل مترله، وقصائد لخمسة شعراء من الشباب بالضفة الغربية وقطاع غزة ، معظمها يدور حول البعث القومى والشوق للعودة للديار ، ثم مجموعة من القصص القصيرة يدور معظمها حول المعاناة فى ظل الاحتلال والتطلع للتحرير ، وأحدها يتناول مسألة الانتقام .

بادرنى على الهلالى قائلاً : "إن الأدب والأيديولوجية والتاريخ والسياسة مرتبطة ببعضها البعض بالنسبة لنا ، ولا نستطيع فصل أحدها عن الآخر ، وهذا هو الحال دائمًا بالنسبة للشعوب المضطهدة ، فالشعب الأسير لا يستطيع أن يصدح مثل بلبل على الشجر ، وإنما سيشدو فى حزن كطائر حبيس فى قفص .

وتذكرت أن نفس هذه الكلمات كان يقولها الصحفيون العاملون فى صحيفة يهودية كانت تصدر فى فيينا عام ١٨٦٨ ، ومن مفارقات القدر أنها كانت تحمل نفس الاسم "الفجر" ، وكان خطها السياسى لا يختلف كثيرًا عن خط زميلتها العربية ، مطالب بحرية الشعب اليهودى وفك قيوده ، وكان أسلوب الكتابة يتسم بالخطابة الرنانة والشعر ، فغالبًا ما يكتب الإنسان الشعر فى سنى حياته الأولى عندما يكون متدفقًا بالحيوية والحياة والقوة ، ولكنه لا يستطيع كتابة النثر إلا بعد أن ينتقل إلى مرحلة أنضج فى الحياة وأكثر واقعية .

قطع الهلالى حبل أفكارى بقوله : "إن الكاتب فى عصرنا ينبغى عليه أن يمزج جميع أشكال الكتابة ، فليس هناك أدب مجرد صاف ، وإذا عزل الكاتب نفسه عن صنوف المعاناة والمشكلات فى مجتمعه فإن ذلك يعنى اتخاذه موقفًا فى صفة الشر والظلم والاضطهاد ، وبالمناسبة فإن ما أقوله ليس له علاقة بالفكر الماركسى ، ولكن له علاقة بأبسط المبادئ فى العالم : **"الأمانة والمسئولية"** ، فعلى سبيل المثال إذا جلس رسام

ليصور منظرًا طبيعيًا بفرشاته ثم رأى شخصًا يقتل بالقرب منه ، وانتظر حتى يفرغ من اللوحة فسيكون شريكًا فى الجريمة" .

وأسأله عن كتاباته فيقول : "لقد بدأت فى الكتابة وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى ولكنى أحمد الله أننى لم أنشر كتاباتى الأولى ، فقد كانت كلها رومانسية فى وصف أشجار البرتقال والكرم التى لم أرها فى حياتى ، لقد كنت متأثرًا خلال تلك الفترة بأشعار نزار قبانى ، ولكن حتى نزار نفسه تحول أخيرًا إلى الشعر السياسى ، أما التحول الذى طرأ عليَّ فقد بدأ عام ١٩٦٧ بعد الاحتلال الإسرائيلى لأراضى الضفة والقطاع ، وظللت لفترة طويلة غير قادر على الكتابة ، حرقت كل أوراقى القديمة ، فقد بدت كل كتاباتى السابقة كنوع من الحلوى الزائفة.، و لم أستطع الكتابة إلا عام ١٩٧١ حيث صدر لى أول كتاب .

**ما الذى طرأ عليك بعد الاحتلال ؟**

**الهلالى** : لقد اكتشفت هويتى ببطء ، رجعت إلى جذورى ، وجدت نفسى ، عندما دخلت دباباتكم نابلس فى أسود يوم فى حياتى كنت أخشى أن تقتلوا جميع المثقفين أو تطردوهم أو تضعوهم داخل معسكرات الاعتقال ، كنت حينذاك أعمل مدرسًا لنصف الوقت ، أما النصف الآخر فقد كنت أعمل فيه كصيدلى ، وذات يوم جاءنى ضابط إسرائيلى فى المدرسة ليعطى جميع المدرسين التعليمات بما يجب تدريسه وما ينبغى حذفه من المناهج ، واضطررت إلى ترك التدريس والعمل فى الصيدلية طول الوقت ، إلى أن فوجئت صباح يوم بشاب أنيق يأتى إلى الصيدلية ويتحدث العربية بطلاقة ويقدم لى نفسه على أنه وكيل إحدى الشركات ، وعلمت أنه يهودى ، وأصابنى ذلك بنوع من الصدمة ، فإلى تلك اللحظة لم أكن قد رأيت من قبل شخصًا إسرائيلياً ، و لم أكن أتصور أن الإسرائيلى يمكن أن يكون مثل ذلك الشخص الأنيق لأننى كنت أعتقد أن الإسرائيليين هم جنود فقط أو رجال شرطة على أقل تقدير .

"وعندما عدت إلى منزلى فى ذلك اليوم كنت لا أزال مندهشًا ، هل يعمل الإسرائيليون مثلنا فى مهن أخرى غير جيش الاحتلال : صيادلة .. مدرسون.. رجال أعمال .. تجار، ومع ذلك فلم أستطع أن أنام طوال الليل بسبب تأنيب الضمير لأنى صافحته وتحدثت معه فى ود، وفى ذلك الوقت – عام ١٩٦٧ – لم أكن أعلم الكثير عن اليهود لأنهم لم يكونوا يعيشون فى الضفة الغربية ، وكل معلوماتنا عن الصهاينة هى أنهم وحوش .

ومع الاحتلال شعرنا بالإحباط والغضب والإذلال ، وكرهنا اليهود ، وكرهنا الأمريكيين الذين باعونا ، وأيضًا الإنجليز والروس والفرنسيين الذين ساعدوا إسرائيل ضدنا .

"وبعد ذلك بدأت عيناى تتفتح على الحقيقة والواقع ، وبدأت أقرأ الكثير عن إسرائيل، ثم قرأت العهد القديم ، وقرأت الكثير عن الشعراء اليهود وكتبًا عن التاريخ اليهودى والصهيونية فى محاولة للفهم ، وأعتزم حاليًا أن أنشر مقالاً شهريًا عن الأدب الإسرائيلى فى صحيفة الفجر حتى يفهم الفلسطينيون طبيعة اليهود ، وربما أدى ذلك إلى التوصل لحل وسط .

**وما هو هذا الحل الوسط ؟**

**الهلالى** : هناك حل وهو حلم أيضًا إقامة دولة مشتركة ، ومع ذلك فهناك حل آخر واقعى وهو إقامة دولتين منفصلتين للفلسطينيين والإسرائيليين ، وربما أدى الحل الواقعى إلى تحقيق الحل الحلم ، وعدا ذلك فليس هناك حل سوى أن يدمر أحدنا الآخر تمامًا .

ودَّعت الهلالى وخرجت من مكتب الصحيفة .

عنَّ لى أن أسير على قدمى بالقرب من بوابة دمشق ، كان الظلام قد حل ، وبدأ المارة يعودون إلى منازلهم ، بدا المكان خاليًا مع قلة الإضاءة فأثار داخلى قدرًا من الخوف ، سمعت وقع أقدام ورائى . التفت. وجدت شابًا يهوديًا غريب الشكل يطيل

شعره على طريقة الهيبز ، ولكنه كان نحيفًا وتشع عيناه بلمعة غريبة . أدركني وجذبني من كتفى وقال بصوت هامس ولكنه مسموع :

- أنت أيضًا ؟

- ماذا؟

- هل تنتظره أنت أيضًا ؟

- من؟

- سيأتى قريبًا ، ربما الليلة ، وربما فى الصباح .

- من هو؟

- سيقوم بتطهير هذا المكان التطهير المقدس ، سيعيدنا إلى مكاننا بعد أن يأتى نبأ من جميع أنحاء العالم ، ويرسلهم إلى أماكنهم ، فهذه هى مدينة الملك داود وليست مدينة النبى محمد ، هل تؤمن بذلك ؟

- كلا .. لا أؤمن بذلك .

صحت فيه وأنا أتملص من يده التى أمسكت بكتفى ، وابتعدت عنه وهو يقهقه ساخرًا منى ويقول : "أنت إذن واحد منهم .. عاشق للعرب ، اسألهم هل يحبونك؟ ماذا يفعلون هنا؟ أليست لهم بلاد أخرى يذهبون إليها؟ وبالمناسبة أقرضنى شيكل أو اثنين ، فأنالا أملك أية نقود ولا أستطيع البقاء هنا وحدى طوال الليل فى انتظاره ، فقد يقتلوننى " .

## ٨ - فى بلدة زخرون

وصلت إلى بلدة زخرون الصغيرة متطلعًا إلى التعرف على حياة الناس الهادئة هنا وأفكارهم أيضًا ، أمر أولاً على قرية بات شلومو المتاخمة ، وألتقى مع زفى بوتشر أحد شيوخ القرية - ٧٨ عامًا - ويحكى لى عن قصة هذه القرية التى أنشئت عام ١٨٨٩ ، وكيف كان أهلها يرزحون تحت عبء الاحتلال العثمانى، والفقر المدقع الذى كانوا

يعانون منه ، ثم وقوعها تحت الانتداب البريطانى وكيف تم تعيين حاكم يهودى لها ، ولكن هذا لم يشعرهم بالاستقلال لأنه كان يحكم باسم الإنجليز ، إلى أن أقيمت الدولة اليهودية .

وقص زفى بوتشر على الكثير عن رفاقه الذين تحملوا الفقر أيام الشباب، فلم تكن هناك طرق معبدة أو مياه جارية أو متاجر أو عيادة طبية أو حتى مكتب بريد ، ومع ذلك كان الجميع يعملون بنشاط وهمة بأيديهم ، ويمصمص الشيخ شفتيه ويقول : "كنا نستيقظ فى الخامسة فجرًا لنزرع الأرض ، أما الآن ، فإن العرب وحدهم هم الذين يستيقظون فى هذه الساعة المبكرة بينما يغط اليهود فى نوم عميق ، لقد أصبحت أشعر بخيبة أمل إزاء اليهود ، لقد كنت أعتقد فى شبابى أننا شعب الله المختار وإننا عندما نقيم دولتنا لن نحتاج إلى شرطة وسجون، ولكن ماذا حدث؟ لماذا أصبحنا أمة من اللصوص والانتهازيين والطفيليين ، ولا داعى لذكر حوادث القتل والسطو والاغتصاب ، ماذا حدث لنا ؟ هل فقدنا أخلاقنا على الطريق ؟

ربما كان السبب فى ذلك هو قدوم يهود أوربا ، فنحن يهود الشرق نعمل بجد ونكدح ، ونحن أمناء أيضًا ، وربما كان السبب هو الحروب مع العرب التى أدت إلى تدفق المعونات من الولايات المتحدة ، وقد أدت أموال المعونة السهلة إلى إفساد الذمم وانتشر ذلك كالوباء ، إن دولتنا فقيرة للغاية ، ومع ذلك يعيش أهلها كالأغنياء ، وهذه الأموال السهلة جلبت معها الانحلال والجرائم وتزايد معدلات الطلاق ، إنهم ينجبون الأطفال حاليًا ويلقون بهم إلى عرض الطريق حتى لا يفسدون عليهم التمتع بمباهج الحياة .

لقد بدأ الانحلال بين اليهود مع إقامة الدولة اليهودية ، كنا نعتقد أننا وصلنا إلى مرحلة من الأمن والاستقرار تسمح لنا بالحياة على النمط الغربى، ولكننا قلدنا الغرب فى اللهو والتحلل و لم نقلده فى حب العمل والكدح ، فهناك فى تل أبيب قلما وجدت شخصًا يرغب فى العمل ، وكل يعتقد فى نفسه أنه رجل عظيم وهام ، لقد انتهى

العهد الذى كان اليهود فيه يعملون فى المزارع ، لقد دمر سوق الأوراق المالية البلاد ، ما كان ليهود الشتات أن يحضروا إلى هنا ، لقد أفسدونا تمامًا " .

"والخطير أن العرب بدأوا يعدون جيلاً جديدًا يختلف عما اعتدنا عليه ، إنه جيل متعلم وجاد ومثابر ، والكثيرون منهم بدأوا العودة إلى دينهم ، ويحلمون على الدوام بوطن لهم ، بل أن بعضهم على استعداد للتضحية بأنفسهم ، هناك شىء خطأ يحدث بيننا " .

وهنا تدخلت زوجته سارة فى الكلام لتقول : "حتى تغيير الحكومة لن يفيد بأى شىء ، انظر مثلاً إلى الشخصيات السياسية البارزة ، كان رئيس الوزراء بيجين شخصية مهاجرة وليست له جذور فى الأرض ، إيجال آلون شخصية سياسية ضعيفة ، شيمون بيريز كل مزاياه أنه وسيم ، وأريل شارون شجاع ولكنه عديم الأخلاق، أما إسحاق رابين فهو مهذب ولكنه بارد دون عواطف أو مشاعر والزعيم يجب أن ينبض قلبه بالنار وليس بالجليد ، من غير هؤلاء الزعماء يصلح ؟ .. لا أحد !!

إننى سيدة بسيطة وغير مثقفة ، ولكن الزمن علمنى الكثير، إذا أردت سماع وجهة نظرى حول عدم إقبال اليهود على العمل فنفذوا هذه النصيحة : ألقوا بجميع أجهزة التليفزيون إلى الطريق فهى أسهمت فى إفساد الشباب ، ثم ينبغى على الحكومة أن تصدر قانونًا ينص على إجبار أى شخص سليم البنية على العمل ، ويصبح العمل اليدوى شرطًا للقبول فى الجامعة وللحصول على سكن وللسفر إلى الخارج" .

"ولكننى لا أعنى أن تزدحم المكاتب بالشباب .. يجب أن ينص القانون على ألا يشغل الشباب أية وظيفة مكتبية ، ليس قبل أن يصلوا لسن الخامسة والأربعين ، وقبل ذلك يعمل الجميع بأيديهم حتى تحترم العمل اليدوى ، قد تقولون أن هذا تعدٍ على الحريات وأن الغرب لا يفعل ذلك ، والرد على ذلك أن الغرب يعمل ونحن لا نعمل ونعيش على حساب الغير " .

فى هذه البلدة الصغيرة الهادئة طالعتنى مرة أخرى مشاعر السخط والأستياء ضد يهود الشتات ، الاشكناز الذين جاءوا إلى هنا حاملين معهم حضارة غريبة عن المكان، وها هو الجيل القديم يدين مظاهر الانحلال والتفسخ التى بدأت تطرأ على الجيل الجديد الذى ترك العمل الجاد واكتفى بالعيش على أموال المعونة الأمريكية ، من هذه البلدة النائية أسمع صوت التعقل يطالب بإعادة النظر فى أوضاعنا قبل أن تقع الكارثة .



# المــراجــع

## مراجع الفصل الأول :


١ – د. حسن آمون ، د. أورى ديفيس ، نصر دخل الله – العرب الفلسطينيون فـى إسرائيل – دار الكلمة للنشر – بيروت .

٢ – د. محمد ربيع – أزمة الفكر الصهيونى – المؤسسة العربية للدراسات والنشـر – بيروت .

٣ – أحمد بهاء الدين – إسرائيليات – دار الهلال .

٤ – د. كامل بسعفان – اليهود تاريخ وعقيدة – دار الهلال .

٥ – د. على الدين هلال – تكوين إسرائيل – دار الهلال .

٦ – د. السيد عليوة – فعاليات النظام السياسى الإسرائيلى – مجلس السياسة الدولية – العدد ٨٧ .

٧ – محمد خالد الأزعر – العسكريون والنظام السياسى فـــى إســرائيل – مجلـــة السياسة الدولية – العدد ٨٧ .

٨ – ميساء سخيطة – الاستراتيجية الصهيونية فى الهجرة والاستزراع الاقتصـــادى – مجلة شئون عربية – العدد ٣٣ – ٣٤ .

٩ – المجتمع الإسرائيلى – التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية – كتـــاب دروى رقم (٢) – مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية – الأهرام .


## مراجع الفصل الثانى :


- *Roberta Strauss Feuerlicht. The fate of the Jews.*


## مراجع الفصل الثالث :


- *Jacobo Timerman. The Longest War.*


## مراجع الفصل الرابع :


- *Amos 02. In The Land of Israel.*

# الفهرس

**رقم الإيداع :** ٢٠٠٢ / ١١٥٦٤

I.S.B.N 977-01-7906-X




لقد أدركنا منذ البداية أن تكوين ثقافة المجتمع تبدأ بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة، وأن المعرفة وسيلتها الأساسية هى الكتاب، وأن الحق فى القراءة يماثل تماما الحق فى التعليم، والحق فى الصحة.. بل الحق فى الحياة نفسها.

سوزان مبارك

الثمن ٢٠٠ قرش